مات الأولاد

مجزرة روبوسكي والمسألة الكُردية في تركيا

فريدريكا خيردينك

ترجمة:
كيڤورك خاتون وانيس

فريدريكا خيردينك

مات الأولاد
مجزرة روبوسكي والمسألة الكُردية في تركيا

ترجمة: كيڤورك خاتون وانيس

دار الفارابي

الكتاب: مات الأولاد

مجزرة روبوسكي والمسألة الكُردية في تركيا

المؤلف: فريدريكا خيردينك

الترجمة : كيڤورك خاتون وانيس

صورة الغلاف: فريدريكا خيردينك

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان

ت: ٣٠١٤٦١(٠١) – فاكس: ٣٠٧٧٧٥(٠١)

ص.ب: ٣١٨١/ ١١ – الرمز البريدي: ٢١٣٠ ١١٠٧

www.dar-alfarabi.com

e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: أيلول ٢٠١٨

ISBN: 978-614-432-929-0

© **جميع الحقوق محفوظة**

تباع النسخة الكترونياً عبر موقع الدار.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي الدار.

مرة أخرى...

أجدني مضطراً إلى التأكيد والتذكير بالدوافع التي تقف وراء تقديم هذا الكتاب والكتاب السابق وربما اللاحق: إنسانية المسألة المطروحة، والإضافة المعرفية الجديدة، والهدف الإنساني للكاتب.

أعلم جيداً كما يدرك الكثيرون بأن للقضية الكُردية حساسية عالية في شرقنا المجنون - الحنون وخصوصاً الدول التي يعيش فيها الكُرد، سواء على المستوى الحكومي أو الشعبي بشكل عام. لذا لا سبيل للتخلص من هذه الحساسية إلا بالتعامل معها كقضية إنسانية قبل كل شيء. فالإنسانية والانتقائية لا يجتمعان بتاتاً، إذ لا يمكن للمرء أن يشعر بألم أناس ومعاناتهم في مكان ما ويغض الطرف أو يبرر أو يسكت عن المظالم التي تقع على أناس في مكان آخر.

إن ما يلزمنا نحن شعوب المنطقة هو الإنصات ولو مرة واحدة إلى صوت أرضها التي تصرخ منذ عقود: كفى دماءً!.

وأعلم أيضاً، بأن سبب هذه الحساسية، لدى أبناء هذه المنطقة (ليس في التعاطي مع هذه المسألة فقط) يعود إلى الخطاب السياسي الإيديولوجي الحكومي وغير الحكومي الذي شحن شعوب المنطقة

عقوداً عديدة بشحنات قومية عالية بعضها تجاه بعض، فتشكلت نظرة أبنائها وعلاقاتهم وفق هذا المنهاج. لذا لا بد من استبدال هذه النظرة، التي لم تنتج غير الأحقاد والآلام، بمعرفة أساسها الموضوعية والإنسانية (التي لم تتوافر وياللأسف إلا ما ندر في طروحات أبناء المنطقة في التعامل فيما بينهم!)، وهو ما تحاول الكاتبة تقديمه في هذا الكتاب!

ثمة أمر ثالث وهام وهو شجاعة فريدريكا، التي تحدت ولاتزال تتحدى كل المصاعب والتهديدات والإهانات الشخصية، وما أكثرها وأقساها وأشنعها في منطقتنا، في سبيل الدفاع عن الإنسانية. فمن يعرفها ويتابع نشاطاتها لا يستطع إلا أن يقف تقديراً لجهودها وشجاعتها على نقل صوت المستضعفين وأنينهم، بصرف النظر عن مدى اختلافنا أو اتفاقنا معها في الرأي.

هذا الكتاب هو قبل كل شيء للدفاع عن حق الإنسان في التعبيرعن نفسه والعيش وفقاً لهويته. وهذا أمر جوهري لكل إنسان، بغض النظر عن محتوى هذه الهوية.

وهو يخلو من أي شحنة إيديولوجية، وبالتالي ليس مع «طرف» ضد «طرف آخر». إنه يدعو إلى السلام والعيش المشترك، وتقبّل «الآخر» الذي قد تكون هو أنت نفسك في مكانٍ وزمنٍ وظرفٍ ما!.

قد يبدو هذا الكلام رومانسياً لكن ألا يستحق حجم المآسي التي عانيناها ولانزال، إلى التفكير في طريقة جديدة غير الإقصاء

والإسكات والقتل؟!....طريقة التعرّف إلى «الآخر» والتعامل معه دون أحكام مسبقة أو خلفيات إيديولوجيّة. أليست هي الطريقة نفسها التي اتبعتها أوروبا، التي تضم شعوباً وقوميات ولغات مختلفة، في ترتيب بيتها الداخلي والعيش المشترك، بعد أن خاضت تجارب مريرة من حروب دينية وقومية وإيديولوجية!؟

كلما قلت الشحنات الإيديولوجية (قومية، دينية، مادية....إلخ) في بنية المجتمع والفرد، ازدادت فرص التفاهم والتقارب، وبالتالي الاستقراروالبناء والتطور.

إهداء المترجم

إلى كل الجنود المجهولين في كل أصقاع المعمورة الذين يسخّرون علمهم وحياتهم في سبيل إيصال صوت المستضعفين ويقفون إلى جانب المظلومين غير آبهين للمخاطر التي تواجههم ويدفعون حياتهم ثمناً لمواقفهم الإنسانية هذه.

ولكي لا يبقى هؤلاء «المجهولون» مجهولين، يجب تعريف الرأي العام الشعبي بهوية هؤلاء وتضحياتهم عند الحديث عن القضايا الإنسانية، فالقيام بذلك يخدم هدفين نبيلين: التعبير عن الوفاء، والإبقاء على ذكراهم حية كمثال تقتدي به الأجيال.

ومادام موضوع الكتاب هو المسألة الكُردية، فلا شك بأن الذين وقفوا مع حق الكُرد في الحياة كشعب مثله مثل أي شعب آخر في العالم، هم كثر ومن مختلف الأصول.

لكن تبقى لشجاعة العديد من الأتراك وتضحياتهم وإنسانيتهم في الإحساس بألم هؤلاء الناس والدفاع عن حقهم في الحياة، محل تقدير خاص، إذ إن المخاطر التي واجهوها والأثمان التي دفوعها كانت مضاعفة عشرات المرات.

بغض النظر عن مدى التوافق أو الاختلاف معه في الرأي، لا يمكن إلا الوقوف بكل احترام وتقدير للبروفيسور التركي إسماعيل بيشيكجي لمواقفه الإنسانية الذي دفع ثمنها أكثر من ١٧ عاماً في المعتقلات والسجون.

وكذلك يجب عدم نسيان تضحيات وشجاعة الثنائي التركي عائشة نور وراغب زاراك أوغلو اللذين قاما، بالإضافة إلى نشاطاتهما في الدفاع عن المستضعفين، في السبعينيات، بتأسيس دار نشر كانت الرائدة في تناول أشد المواضيع خطورةً في تركيا ومنها المسألة الكُردية التي كلفتهما أثماناً باهظة أقلها تفجير الدار في ١٩٩٥ ودخول المعتقلات عدة مرات بالإضافة إلى حظر السفر سنوات عديدة.

كما لا بد من ذكر شجاعة المناضل الأسطوري التركي دينيز غيزميش الذي كان الدفاع عن حق الكُرد في العيش بكرامة جزءاً أساسياً من كفاحه في الستينيات من القرن الماضي. فأعدم في ١٩٧٢ وهو في ريعان شبابه (٢٥).

أخيراً، وليس آخراً، الكاتب والصحفي التركي أحمد آلتان الذي كان دائماً وفياً لإنسانيته في نقل أصوات المستضعفين فدفع على مدى أكثر من ٣٠ سنة من العمل الصحفي والكتابي أثماناً باهظة، (حُكم عليه قبل بضعة أشهر بالسجن المؤبد بتهمة «الانقلاب» الأخير). الحرية لك ولأمثالك الأحرار.

في النهاية طوبى لكل من يعمل بمقولة: قد أختلف معك في الرأي ولكنني مستعد أن أدفع حياتي ثمناً لحقك في التعبيرعن رأيك.

الفصل الأول

٢٨ كانون الأول ٢٠١١

٢١:٣٩ – ٢٢:٢٤

كان طنين طائرات الاستطلاع، المسيّرة بدون طيار، مسموعاً بشكل واضح. لا شيء غير عادي فوق الجبال على الحدود بين تركيا والعراق؛ الرجال، القسم الأكبر منهم في الواقع أولاد، سائرون في طريقهم إلى الجانب العراقي من الحدود لجلب مواد مهرّبة، لا شيء يقلقهم. فهم لم يتلقوا أي تحذير من مخافر الجيش في المنطقة عن وجود خطة لأية عمليات عسكرية. وبناءً عليه فقد قرروا الذهاب.

تم تجهيز البغال وبدأ ٣٨ رجلاً وولداً من قريتي أورتاسو وكول يازي مسيرهم على الطريق الرئيس الذي يمر بقرية أورتاسو، والذي يتحول إلى طريق صغير سالك بصعوبة أكثر من قبل بسبب الثلج. يبلغ طول المسار حتى الحدود حوالى ٦ كم وقد حفظوه عن ظهر قلب، لكن الظروف الجوية صعبة والرحلة تستغرق ساعتين على أقل تقدير.

عند العلامة ١٥ يعبرون الحدود؛ حيث لوحة حجرية مكتوب على أحد وجهيها تركيا، وعلى الوجه الآخر العراق. هناك على بُعد كيلومترين تنتظرهم شاحنات ممتلئة تماماً بصفائح بنزين وصناديق

سجائر. يتم تحميل هذه المواد على البغال وربطها، ثم يسير المهربون عائدين باتجاه الحدود.

كانت الساعة قد قاربت التاسعة والنصف مساءً عندما عادوا إلى الحدود. عندئذ انقسمت المجموعة قسمين، دخل القسم الأول الأراضي التركية وأُصيب بالصدمة عندما رأى الطرق الثلاث التي توصل إلى القرية مغلقة من قبل الجيش. صحيح أنه يحدث كثيراً بأن يكون طريق أو اثنان منها مسدوداً، لكن لم يصدف قط أن كانت جميعها مغلقة في آن واحد. لذلك عاد هذا القسم باتجاه الحدود.

هناك أصوات طلقات نارية، لا يعرفون السبب، لكنهم يتابعون المسير. في الواقع يعلم كل سكان هذه المنطقة بما يجري هناك لذلك لا أحد قلقاً حيال سلامتهم. لكن فجأة حلقت فوقهم طائرات الـ F 16 الحربية التابعة للجيش التركي وقامت بقصف المجموعة المتقدمة من المهربين المكونة من حوالى ١٨ شخصاً. بعد أقل من ٥ دقائق قذيفة ثانية، وبعد ٢٠ دقيقة واحدة أخرى وأما آخر قصف فقد تم قبل العاشرة والنصف تماماً. لم يفارق الجميع الحياة مباشرةً. أُصيب ثمانية فتيان بجروح بالغة، سبعة منهم توفوا في الطريق إلى القرية. وتم علاج الثامن، حسن أوريك (١٧ عاماً)، بعد أن قضى عدة أشهرفي المشفى. كما نجا ثلاثة آخرون أيضاً من كامل المجموعة.

***

في قرية أورتاسو، كان لازكين إنجو(٣٦ سنة) جالساً يشاهد

التلفزيون، لا يسمع صوت مقاتلات الـ F 16 حتى اللحظة التي طرق الأولاد الباب وهم يصرخون «طائرات!». ركض إلى الخارج ورآها. بعد برهة رأى قنابل تتساقط وأحس بالأرض تهتز من تحته. فكّر، أولادنا!. إنهم يقصفون أولادنا!.

قام لازكين وآخرون من القرية بإحضار بعض السيارات وساروا أقصى ما يمكن باتجاه موقع الكارثة، لأن الجزء الأخير من الطريق لا يصلح للسير إلا مشياً على الأقدام. رأوا جنوداً، وقالوا لهم وهم في حالة ذعر: «أنتم تقصفون أولادنا!». فأجابوهم: لا داعي للقلق، نحن نخيفهم فقط لا أقل ولا أكثر. بعد لحظات استؤنف القصف. في هذه الأثناء تم بكل الوسائل استدعاء مزيد من الرجال من قريتي أورتاسو وكول يازي، وطُلب إليهم جلب كل ما لديهم من أغطية. يبعد المكان الذي وجب عليهم إيقاف السيارات فيه عن موقع القصف حوالى كيلومتر واحد. الرجال يتسلقون الهضبة. يقول لازكين بأنه من هذا الموقع كان بالإمكان رؤية النار والدخان وشم رائحة البارود أيضاً.

تابعوا مسيرهم عبر الثلوج وعندما وصلوا إلى الحدود رأوا ما قد خمّنوه: لم تكن عملية تخويف، بل عملية قصف مركّزة، قُتل فيها الجميع عدا ثمانية أشخاص، أما الجرحى فقد لُفّوا بالبطانيات ونقلوا إلى السيارات؛ كل جريح يحمله أربعة أو خمسة أشخاص. مات منهم سبعة في الطريق قبل وصولهم إلى السيارات. فقد توفي الشاب صالح أوريك البالغ من العمر ٢٣ عاماً بين ذراعي لازكين إنجو.

بعد الانتهاء من نقل الجرحى تم قدر المستطاع لف الجثث أيضاً ببطانيات رغم قلتها. كانت بعض الأجساد ممزقة الأوصال وليس من السهل معرفة الأعضاء التي تخص الجسد نفسه. كما لم يكن دائماً واضحاً فيما إذا قطعة العظم التي «استشاط» اللحم الذي عليها، تعود إلى جسد بشري أما إلى الحيوانات التي استخدمت للتحميل.

***

شاهد إرطغرل كوركجو، النائب في البرلمان التركي، تسجيل فيديو مدته ٧ ساعات. وهي تسجيلات قامت بها طائرات الاستطلاع بدون طيار من نوع هيرون التابعة للجيش التركي؛ تملك هذه الطائرات أحقية الطيران بعمق ٥ كم ضمن الأجواء العراقية وهي مزودة بكاميرات ليلية تعمل بالأشعة تحت الحمراء.

كان كوركجو بالإضافة إلى باقي أعضاء لجنة فرعية خاصة مشكّلة من اللجنة البرلمانية لحقوق الإنسان قد شاهدوا التسجيلات بعد شهر ونصف الشهر من القصف، أي في ١٥ شباط ٢٠١٢. كانت هذه اللجنة مكونة من ثمانية أعضاء ينتمون إلى الأحزاب الأربعة المشاركة في البرلمان التركي. وكلهم شاهدوا الصور نفسها: مهربون مدنيون.

إنهم عبارة عن قافلة تمشي ببطء من تركيا باتجاه العراق. حيث تنتظرهم في الجهة المقابلة على بُعد كيلومتر واحد تقريباً من الحدود، شاحنات محملة بالمواد. عند وصولهم يقومون بنقل المواد المهربة من الآليات وربطها وتحميلها على البغال. ثم تعود المجموعة من حيث أتت.

إن عدم كونهم من مقاتلي حزب العمال الكردستاني PKK، هو أمر واضح وضوح الشمس. ليس فقط بسبب ما يقومون به، لكن أيضاً بسبب كبر المجموعة والغياب التام للانضباط. فهي مجموعة غير متناسقة ولا تشكل كتلة واحدة، بعضهم يبعد عن البعض الآخر مئات الأمتار. المجموعة مكونة من حوالى ٤٠ شخصاً، بينما المقاتلون ينظمون أنفسهم دائماً في مجموعات تضم بين ٨ – ١٠ عناصر. صحيح أن المقاتلين يستخدمون البغال لكن ليس بهذا العدد في عملية على الحدود.

لقد بكى أحد أعضاء اللجنة حتى قبل مشاهدة صور القصف. حيث استولى عليه الحزن وهو يرى كيف أن المجموعة كانت تمشي باتجاه الموت. ثم هدير طائرات الـ F 16. 'ماذا كان مقاتلو الكريلا سيفعلون في هذه الحالة؟' يسأل كوروجو ويجيب: 'كانوا سيركضون إلى الجهة الأخرى ويبحثون عن مخبأ حتى يقللوا قدر الإمكان من الخسائر البشرية'. أما ما قام به المهربون فهو عكس ذلك تماماً، فهم يركضون بعضهم باتجاه بعض ويشكّلون مجموعة متماسكة يمسك بعضها بعضاً. 'كانوا خائفين' يقول كوروجو. ' فقد كانوا أولاداً بعد'.

الفصل الثاني

القرية

بعد سبعة أيام على المجزرة كنتُ جالسة على الأرض في أحد البيوت في قرية كول يازي. كانت رائحة الأقدام المتعرقة تملأ الغرفة المكتظة الحارة جداً. جلس حولي أقارب الضحايا والكل يريد أن يروي قصته. كانت الأحاديث تتداخل بعضها في بعض، فالكل يريد شد انتباهي. إحدى النساء فقدت ابنها في هذه المجزرة، كما كان ابنها الآخر قد فقد ساقيه في انفجارلغم- كيف سيتدبرون أمرهم الآن وقد فقدوا المعيل الأهم؟ وامرأة أخرى تشير إلى ولد عمره حوالى ١٢ سنة قُتل أخوه الأكبر وفي وقت سابق كان قد فقد أباه؛ ما يعني أن عليه من الآن فصاعداً العمل في التهريب لكي يعيل أسرته.

ألمح في هذه الزحمة فتاة وولداً أصغر منها يجلسان جنباً إلى جنب ساكتين بجانب بعضهما قرب مدفأة الحطب، والدمع يترقرق في عيونهما. سألت 'من أنتِ؟' اسمها سميرة؛ في السابعة عشرة من عمرها والولد الجالس بجانبها يدعى سيفان هو أخوها وعمره ١١ سنة. لقد فقدا أخاهما بدران (١٢ سنة)، أحد أصغر ضحيتين من ضحايا القصف. 'كان بدران سيعود من رحلته حوالى الساعة ١١

ليلاً' تقول سميرة بلطف: 'كنا قد جهزنا له طعاماً، لكنني كنتُ بعدها قد غفوت وعندما استيقظت في الصباح الباكر، سمعتُ بكاء الناس. بدران لم يعد'.

***

كنتُ في صباح اليوم التالي للمجزرة، أي ٢٩ كانون الأول، قد تصفحتُ الأخبار عبر هاتفي الجوال. وهو ما أقوم به عادة كل صباح قبل أن أنهض من فراشي، حيث أتصفح ما كُتب على التويترعن أحداث الساعات السابقة. فأنا من متابعي تويترات الكثير من الكُرد والإعلام الكُردي؛ خلال المرور على عدد هائل من المنشورات القصيرة وصلت إلى خبر: يبدو أن الجيش قد قصف قرويين كُرداً كانوا يقومون بالتهريب عبر الحدود التركية العراقية. هناك أكثر من ٣٠ ضحية.

قفزت من سريري، فتحت التلفزيون وتنقلت بين قنوات الأخبار: NTV, CNN Turk, HaberTurk. ليس هناك سوى أخبار الطقس، وأخبار اقتصادية وأخبار عن كرة القدم. أُصبت بالدهشة لكن سرعان ما أدركت أيضاً، أنني فتحت التلفزيون في منتصف الإرسال، ربما عليّ الانتظار ساعة أو نصف ساعة، موعد النشرات الإخبارية الدورية التي يتم فيها ترتيب الأخبار الهامة.

لم أستحم هذا اليوم لكي لا تفوتني أي كلمة من الأخبار. حضرتُ القهوة وأنا بملابس النوم وتابعت التنقل بين القنوات التلفزيونية.

قمت في هذه الأثناء بكتابة منشورعلى التويتر عن هذه الأخبار، لكنني توخيت الحذر في التعاطي معها، إذ إن ما حدث ليس واضحاً

تماماً حتى الآن. بعدها قام المكتب الإعلامي الكُردي وكالة أنباء دجلة (Dicle Haber Ajans DIHAK)، بنشر صور عبر التويتر. أرى في الصور صفاً من بطانيات تلف أجساداً تظهر منها أقدام تنتعل أحذية متينة، وأناساً يربطون الجثث على البغال لإيصالها إلى الطريق الممهدة، حيث تنتظر هناك سيارة لنقل الجثث، كما أرى رجالاً يبكون وهم يضعون أيديهم على وجوههم. قمت بدوري بإرسال الصور إلى كل من يتابعني عبر التويتر وكتبتُ بأن الإعلام التركي لم يذكر شيئاً حتى الآن عن هذه المأساة.

بدأت نشرة الأخبار على قناة سي.ن.ن التركية (CNN Türk) وأنا مشدودة الأعصاب. كيف سيقدمون الخبر؟ لكنني أصبت بالذهول، إذ إنهم لم يذكروا شيئاً عن ذلك. بدأوا النشرة بعرض رد فعل مجلس الأمن القومي التركي على القانون الفرنسي، الذي تمت المصادقة عليه قبل أسبوع من قبل البرلمان الفرنسي، والذي نص على تجريم إنكار الإبادة الأرمنية ١٩١٥. ثم تلتها فقرة حول المستقبل السياسي للرئيس عبدالله غول بعد انتهاء فترة رئاسته. وبعدها؟ كرة القدم- وبشكل خاص فضيحة الرشى التي عصفت بتركيا هذه الأيام. كما اتبعت بقية القنوات النهج نفسه في التعامل مع الحدث.

كتبت منشوراً على التويتر أعلنت فيه تذمري من الإعلام التركي. فهناك أكثر من ٣٠ مدنياً قد قُتلوا والإعلام لا يتكلم عنهم؟ هل يصح ذلك؟ لو قُتل جندي تركي في المعارك، لكانت الأخبار قد ملأت

الصحافة، أما ما حدث لعشرات من القرويين الكُرد فأمر لا يستحق الذكر؟

فوصلتني فجأة رسالة شخصية عبر التويتر على الخاص، من صحفية تعمل لدى إحدى كبرى محطات التلفزة التركية. تقول:

عزيزتي، طوال الصباح ونحن هنا نحاول بكل الجهود من أجل قول شيء ولو بشكل مختصر حول هذا الحدث. لكن أنقرة قالت لا! الأمر ليس بيدنا. أعذريني على هذا.

بعدها مباشرة رسالة أخرى: صدقيني...نحن ندمع هنا... الأمر يتحول إلى مهزلة...

ورسالة أخرى: قالوا لنا ' إلى حين تأكيد هذه القصة رسمياً، عليكم التزام الصمت وعدم الكتابة عن الحدث. نقطة انتهى'

فقد كان رئيس الوزراء أردوغان- باعتباره هو المعني هنا بكلمة 'أنقرة'- قد أمر طاقم مكتبه بإبلاغ القنوات التلفزيونية الكبرى بما يجب عليها بثه وما لا يجب الحديث عنه. اندهشتُ لكنني لم أفاجأ. إذ إنني مطّلعة بشكل دقيق، منذ استقراري في تركيا في العام ٢٠٠٦ كصحفية مستقلة تتخذ من 'حقوق الإنسان' ركيزة أساسية في عملها، على موضوع حرية الصحافة وخصوصاً الافتقار إليها. كانت الحكومة في الأشهر التي سبقت المجزرة قد شددت قبضتها على الصحافة.

ففي وقت سابق من تلك السنة، وتحديداً في ٢٠ تشرين الأول، تم استدعاء رؤساء التحرير ومالكي وسائل الإعلام إلى مكتب رئيس الوزراء. عُقد هذا الاجتماع في أعقاب هجوم نفذه الـPKK، في محافظة

حكاري ليلة ١٨ – ١٩ تشرين الأول ذهب ضحيته ٢٤ عسكرياً وجُرح ٢٢ آخرون.

بعد التشاور بين رئيس الوزراء والصحافة، صرحت مختلف المكاتب الإعلامية، بما فيها وكالة الأناضول شبه الحكومية (مصدر أغلب وسائل الإعلام)، بأنها تلتزم بقرارحظر النشر الذي تقره السلطة. وبأنها 'ستأخذ في الاعتبار مسألة الأمن العام' عند نشر أخبار تتعلق 'بالإرهاب وحوادث العنف'. كما وعدت 'بالابتعاد عن نشر تقارير قد تسبب الخوف والفوضى والعدائية والذعر والترويع' وبعدم' تضمينها أي منشور دعائي لأي منظمة غير قانونية'.

لم توافق على ذلك بعض المكاتب الإعلامية فحسب، بل كذلك فعلت كبرى الجرائد ومحطات التلفزة أيضاً، كرجل الأعمال آيدين دوغان، الذي يمتلك مجموعة دوغان الإعلامية التي تضم محطة سي.ن.ن التركية. والسبب وراء هذه الموافقة بسيط: يملك أغلب مالكي وسائل الإعلام في تركيا أعمالاً تجارية أخرى، في البناء والطاقة والشبكات والمناجم...إلخ. ومن يريد حماية هذه المصالح ولا يريد خسارة تعاملات الدولة معه، يوظف وسائل إعلامه وفق هذه الاستراتيجية. من ناحية أخرى، تلبية رغبات أردوغان أمر مفيد أيضاً من حيث تعزيز نسبة المبيعات لأن القارئ التركي العادي لا يعير اهتماماً للصحافة الناقدة التي تبحث عن الحقيقة. فهو يفضل عدم التشويش على صورة القومي التركي العالمية.

كتبت ياسمين جونغار، نائبة رئيس تحرير جريدة (Taraf) اليومية التي تنتقد الجيش بشدة، بشكل يومي بعد الاجتماع مع أردوغان حيث كانت هي أيضاً حاضرة، بأنها أُصيبت بالدهشة حين رأت أرباب المؤسسات الإعلامية وهم يقدمون مقترحات «لقولبة» الصحافة بحماسة أكثر من أردوغان نفسه.

تروي جونغار، في مقابلة بعد سنة ونصف، مجريات الاجتماع : 'بدأ الاجتماع بكلمة لأردوغان تحدث خلالها عن الخيط الرفيع الذي يفصل بين الدعاية الإعلامية والصحافة. أما بقية الاجتماع فقد كان خاصاً ولم يتم تدوينه، لكن بإمكاني الآن البوح به. في ذلك الاجتماع اقترح آيدين دوغان تشكيل مجموعة تضم ناشرين ورؤساء تحرير مهمتها وضع إجراءات عن كيفية نقل الأخبار الحساسة. كما اقترح أحدهم تعيين ممثل عن الحكومة في هذه المجموعة، لكن أردوغان وجد ذلك غير ضروري. لكنني لا أملك أي معلومة فيما إذا كانت المجموعة قد تشكلت أم لا. كما كان هناك اقتراح آخر مكون من ثلاث نقاط: عدم دعوة الذين لا يصنفون الـPKK منظمة إرهابية، وعدم التحدث مع الـPKK أو زيارة معسكراتهم على الحدود مع العراق لأن في ذلك دعاية إعلامية للـ PKK، وحصر الأخبار العاجلة عن العنف الناجم عن القتال ضد الـ PKK بمدة لا تتجاوز ١٥ ثانية'.

كما تم الحديث، تضيف جونغار، عن التوقف عن زيارة «أماكن محددة» والتكلم مع «أناس محددين». وتستدرك جونغار القول:

’عندما لاحظت عدم اعتراض أي من الموجودين، قلت لهم بأنني كنتُ واحدة من هؤلاء الذين قاموا بزيارة تلك «الأماكن المحددة» وتحدثتُ مع أولئك «الأناس المحددين» وبأنني سأستمر في القيام بذلك‘.

بالمناسبة، لم تغيّرعملية التشاور شيئاً من الواقع العملي المستمر، وإنما فقط أعادت تأكيد التدابير غير المكتوبة، كما منحها الاجتماع مع أردوغان ثقلاً إضافياً.

لاحقاً تلقت جونغار من زملائها رؤساء التحرير المديح على احتجاجها. تقول جونغار: ’ لكنهم خلال الاجتماع كانوا جميعاً ساكتين، خوفاً من الناشرين وأصحاب الجرائد التي يعملون بها، الذين كانوا حاضرين أيضاً. كان مالك جريدة (Taraf)، التي أعمل فيها، حاضراً أيضاً، لكن Taraf جريدة مستقلة ولا تتبع أي شركة كبرى، لذلك كان لدي فسحة أكبر من الحرية‘. لكن ذلك تلاشى أيضاً في نهاية المطاف: ففي كانون الأول ٢٠١٢ استقال كل من رئيس التحرير وصاحب الزاوية الافتتاحية أحمد آلتان و ياسمين جونغار من جريدة Taraf. كان العذر الذي قدمه آلتان هو العودة إلى كتابة الرواية، أما جونغار فقد التزمت الصمت في ذلك الوقت.

بعد عدة أشهر على عودتها إلى الجريدة قالت جونغار: ’كانت الضغوطات كبيرة جداً. لم يكن أحمد يستطيع كتابة ما يريد، وأنا لم أكن حرة في إعداد الصفحة الرئيسية. فقد أتى مرة مالك الجريدة بمقالات جاهزة وطلب مني نشرها كما هي دون أي مناقشة، لكنها لم

تكن مكتوبة من قبل صحفيين، الأمر الذي جعلني أرفض طلبه. لكنني كنتُ مقدرة موقفه. إذْ كان قد استثمر مبالغ ضخمة في الجريدة، والبنك سوف يرفض منحه القرض في حال احتاج إلى ذلك، كما أنه سيفقد الكثير من شركات الإعلانات. كل ذلك بسبب ضغط الحكومة الذي رفضنا أحمد وأنا الانصياع له، ولذلك تقدمنا باستقالتنا'.

الصورة الآن واضحة: لقد أُلقيت المسؤولية على الصحفيين. والصحفية التي أرسلت لي رسالة شخصية عبر التويتر، قبلت الحديث معي فقط بعد أن وعدتها بالسرية التامة، لذلك لن أذكر حتى الأحرف الأولى من اسمها. فقد قالت بأن 'الاتصالات الهاتفية الواردة من مكتب أردوغان أو من مكتب نائب رئيس الوزراء آرينج، كانت تدور حول شؤون الإعلام. فهم يعملون على مراقبة المحطات بشكل دائم. لقد تم تحذير رؤساء التحرير في الصباح الذي تلا القصف الذي وقع في أولوديري (*Uludere*): ممنوع بث أيّ صور أو التصريح بأرقام أو استخدام الشريط الأحمر الذي يُستخدم عادة عند الإعلان عن أخبار هامة وعاجلة. كما لم يُسمح بعرض الأخبار في الشريط الإخباري الذي يمر في أسفل الشاشة ولم يتم ذكرها على الموقع الالكتروني أيضاً'.

عملياً، تقول زميلتي: كان التويتر في ظرف كهذا هو الوسيلة الوحيدة التي يستطيع المرء بواسطتها إيصال هذه الأخبار إلى العالم. لكنها لم آثرت عدم المغامرة، إذ توضح: 'إذا استخدمت التويتر باسمك

الصريح، كما أفعل أنا، عليك الحذر. فأنا أعمل في محطة كبيرة.ٍ' في حال خالفت التعليمات، فإنها قد تفقد وظيفتها.

عند منتصف النهار، أي حوالى الساعة ٤٥ , ١١، تلقّت المحطات التلفزيونية الكبرى الإذن بالحديث عن المأساة. حيث بدأت ببث تصريح القيادة العليا للجيش عن القصف وقد تم إيجازه في ثماني نقاط.

تم في هذا التصريح التذكير قبل كل شيء بأن هذه الغارات الجوية تقع في إطار قرار البرلمان التركي في ١٧ تشرين الأول ٢٠٠٧ الذي يسمح بتنفيذ هذه الغارات لمدة سنة، والذي يتم تمديده كل سنة للقيام بعمليات على الأراضي العراقية. ثم أكد تصريح الجيش أن 'قيادة المنظمة الإرهابية' كانت تخطط لأعمال انتقامية للتعويض عن الخسائر السابقة وتقوم بتدعيم قواتها في منطقة سينات هافتانين (Sinat-Haftanin) في كردستان العراق. أظهرت المعلومات المتوافرة من مختلف المصادر والتحليل الفني أن المنظمة الإرهابية كانت تحضّر للهجوم على قاعدة عسكرية ومخفر شرطة على الحدود.

أفادت قيادة الجيش، بأن الأسلحة الثقيلة والذخيرة والمتفجرات التي استُخدمت في هجمات المنظمة الانفصالية الإرهابية، كان قد تم تهريبها من العراق على ظهور البغال. وفقاً للمعلومات المتواترة حول مخططات للمنظمة الانفصالية الإرهابية، تم تشديد المراقبة بتاريخ ٢٨

كانون الأول ٢٠١١ الساعة ١٨,٣٩ والتعرف إلى مجموعة متجهة من العراق صوب الحدود.

يقول بيان الجيش بأن المنطقة كانت تُستخدم من قبل الإرهابيين بشكل منتظم، لذلك تقرر قصفهم. كما اعتبر البيان المنطقة التي تم قصفها، منطقة سينات – حافتانين (Sinat-Haftanin)، منطقة تضم قواعد معسكرات المنظمة الانفصالية الإرهابية وهي خالية من المدنيين. وفي النهاية أعلن الجيش أن التحريات القانونية والإدارية عن الحادث مازالت جارية.

في الطريق إلى القرية: ماذا عن هؤلاء المهربين؟

قضيتُ الأيام الأخيرة من السنة متسمّرة أمام التلفزيون والتويتر ومتابعة الجرائد. لقد تركت صور الجنازات، التي تم تشييعها في ٣٠ كانون الأول، أثراً عميقاً في داخلي. جموع بشرية هائلة تتحرك باتجاه المقابر عبر الأراضي الوعرة حيث مناظرالطبيعة الجبلية المغطاة ببقع ثلجية متناثرة. ضمن هذه الحشود يمتد وشاحٌ من ٣٤ تابوتاً مغطىً بألوان العلم الكُردي الأحمر والأخضر والأصفر. تسعة عشر منهم في سن أقل من ثماني عشرة سنة، وستة عشر منهم ينتمون إلى عائلة إنجو الكبيرة.

استولى عليّ المشهد، لكن في الوقت نفسه لا أفهم إلا القليل مما يحدث. ماذا عن هؤلاء المهربين؟ ماذا كانوا يفعلون هناك على

الحدود مع العراق، حيث توجد معسكرات الـ PKK؟ لماذا قاموا بهذه المخاطرة؟ أولاد بعمر ١٢ و١٣ سنة يعملون في التهريب؟ ما الذي يحدث بالضبط؟

ثمة أمر آخر لم أستطع فهمه. هو انتماء الكثير من الضحايا إلى عائلات حراس القرية؛ قرويون يحملون السلاح و يتعاونون مع الجيش ويحمون قراهم من الـ PKK وقد يشاركون في القتال إلى جانب الجيش إذا طُلب إليهم ذلك. كل ذلك مقابل راتب شهري ثابت وبندقية كلاشنيكوف مقدمة من الدولة. طالما أنهم حراس قرى ويقبضون راتباً شهرياً، لماذا إذاً، يعملون في التهريب؟ وهل ما زال لأمثال هؤلاء من وجود في القرى إذا ما نظرنا إلى صور ما بعد القصف؟ وإذا كان الأمر كذلك، كيف يمكن ذلك؟! إذ إن الكثير من الكُرد ينظر إلى هؤلاء الحراس نظرة احتقار.

لكن في هذه الأثناء جال في رأسي سؤال آخر: هل كان هذا القصف مجرد حادث غير مقصود؟ وفقاً للإعلام الكُردي، كان المهربون على تواصل دائم مع النقاط العسكرية في المنطقة، التي تغض الطرف عن عمليات التهريب. إذ إن هذه النقاط كانت تقوم بنفسها بتحذير القرويين دائماً في حال وجود مخطط لعمليات عسكرية ضد الـ PKK، لكي يتم تأجيل التهريب بعض الوقت إلى حين انتهاء العمليات. هل هذا الأمر صحيح؟ وهل تم التحذير في هذه العملية؟ لمَ لا؟

خلال عدة أيام، وكما هو الحال دائماً في تركيا، بلغ الاستقطاب

ذروته: فالإعلام الكُردي يصرّح بقوة بأن مذبحة أولوديرى لم تكن حادثاً غير مقصود، بل قتلاً متعمداً يستهدف الشعب الكُردي. شعرتُ بالاستياء من هذا الخطاب المبالغ فيه؛ إذ كيف تسنّى لهم التوصل إلى هذه الاستنتاجات ولم تمر إلا بضعة أيام على الحدث؟

في هذه الأثناء وجد أردوغان «الصحافة الموحدة» في الموقع الذي أراده لها تماماً. فقد قامت الصحافة بتأطير الأمر على إنه مجرد حادث، وأن القرويين أصبحوا يلومون أنفسهم عما حدث: إنها منطقة تواجد الـ PKK، ما الذي أخذهم إلى هناك؟ كما أن بعض الصحف التركية كتبت بأنهم لم يكونوا مهربين، بل أعوان الـ PKK يساعدون على نقل الأسلحة. بعبارة أخرى: جنوا ثمار ما زرعوا.

بعد مرور حوالى خمسة أيام لم أعد أحتمل الموقف. كيف أستطيع معرفة الحقيقة وأنا في إسطنبول على بُعد ١٧٠٠ كم، فهذه أكبر عملية قتل نفذتها الدولة التركية ضد الكُرد خلال العقود الماضية؟ لذلك حزمت حقائبي واتصلت بمساعدتي بيدى: 'هل تذهبين معي إلى أولوديرى؟' في صباح اليوم التالي، عند الساعة ٥:٢٥ صباحاً، استقللنا أول رحلة إلى دياربكر.

***

لم أزر شرنك، المحافظة التي تضم قريتي أورتاسو وكول يازي، من قبل. تقع محافظتا شرنك وحكاري في أقصى الجنوب الشرقي. تشترك شرنك في الحدود مع العراق وسوريا، بينما تشترك حكاري في

حدودها مع العراق وإيران. تحد شرنك من الغرب محافظة ماردين وإلى الشمال تقع محافظة دياربكر. تحمل كل محافظات تركيا تقريباً اسم مركز المحافظة نفسه.

تعتبر دياربكر إلى حدٍ بعيد المدينة الأكبر في المنطقة الكُردية في تركيا. يبلغ عدد سكانها حوالى مليون نسمة، أما عدد سكان المحافظة فقد بلغ حوالى مليون ونصف المليون نسمة. وهي المركز السياسي والثقافي للمنطقة الكُردية. لكن ليس هناك ما يشير إلى ذلك عندما تصلها بالطائرة؛ مدرج واحد للإقلاع والهبوط. والطائرة تقف دائماً في المكان نفسه، ومن هناك تسير على ممر بيتوني يصل إلى صالة وصول صغيرة تحتوي على سير دوار وحيد توضع عليه حقائب الواصلين.

الطيران المدني في هذه المنطقة قليل الاستخدام. فالمطارهنا هو قاعدة عسكرية قبل أي شيء آخر. يُستخدم هذا المطار، المخصص للسرب الجوي الثامن التابع للقيادة الجوية الثانية، كقاعدة جوية لقتال الـ PKK. حيث تنطلق منه يومياً طائرات الـ F 16، التي تحلق بضجيجها الهائل فوق المدينة متجهة في كثير من الأحيان إلى شمال العراق كي تقصف معسكرات الـPKK هناك. إنه أمر مؤلم للزائر ناهيك عن سكان المدينة الذين لديهم أقارب يقاتلون مع الـ PKK.

يقع مطار دياربكر بجانب المدينة تماماً. وعلى مسافة شارع واحد منه يقع مركز حي باغلا، الحي الشعبي الكبير ذي الشوارع المكتظة دائماً مهما اختلفت الأحوال الجوية. باعة يدفعون عرباتهم

المحملة بالبضائع، وأكياس شاي يتم جرها، ومواد مفروشة على الرصيف، وماسحو أحذية يندفعون باتجاه المارة لإقناعهم بتلميع أحذيتهم. دياربكر تعبق بالروائح؛ رائحة الكستناء المنتفخة، ورائحة الخبز الطازج التي تفوح من المخابز والأفران، ورائحة شياط الحديد عند قصه، ورائحة الكينارا المقلية، ورائحة الفاكهة، ورائحة النار التي تشعلها النساء في الخارج لشي الخضار. وفي كثير من الأحيان رائحة الغازات المسيلة للدموع.

بعد وصولنا مباشرةً، استقللنا بيدى وأنا الباص إلى شرنك، التي تبعد حوالى ٢٠٠ كم شرقاً على خط النظر. تمرالرحلة عبر ماردين، المدينة العريقة في القدم والقابعة على هضبة، والتي سكنها من قبل على مدى قرون عديدة عرب ومسيحيون. لايمكن التجوال إلا مشياً على الأقدام في مركز المدينة القديم ذي الأدراج الكثيرة والإطلالة الرائعة على سهول ماردين، لكننا ونحن نغادر ماردين بقيت أحدق، وأنا مستديرة في الكرسي بشكل غير مريح، إلى هذه المدينة لكي أشبع نظري منها.

سرنا بعد ماردين باتجاه اليسار، عشرات الكيلومترات بمحاذاة الحدود مع سوريا حيث الهدوء رغم اضطراب العالم العربي في هذه الأوقات. هناك على طول الطريق لوحات تحذر من مواقع الألغام. وفقاً للجنة التركية لنزع الألغام، التابعة لوزارة الدفاع، هناك حوالى ٦١٤ ألف لغم على الحدود مع سوريا. جزء منها زرع في الفترة ١٩٥٦ - ١٩٥٩ في زمن الحرب الباردة عندما ازداد التوتر بين

سوريا (المدعومة من قبل الاتحاد السوفياتي) وتركيا العضو في الناتو. والجزء الأكبر زرع بعد ١٩٨٤، أي السنة التي بدأ فيها الـPKK كفاحه المسلح. توقفت تركيا عن زرع ألغام جديدة منذ عام ١٩٩٩ بعد بدء تطبيق معاهدة الألغام الدولية رغم أنها لم تصبح جزءاً من المعاهدة إلا في عام ٢٠٠٣.

بالنسبة إلى PKK لم تكن هذه الحدود يوماً ما معبراً للدخول إلى الأراضي التركية. فالمنطقة هنا منبسطة ولا تصلح للتواري أو الاختباء كما هو الحال في الجبال على الحدود مع العراق. منذ مغادرة الـPKK، بمن فيهم الزعيم أوجلان، إلى سوريا بعد الانقلاب العسكري في تركيا عام ١٩٨٠، بدأت علاقاته مع الحكومة السورية، إلا أن الهجمات لم تبدأ حتى عام ١٩٨٤ وذلك عندما بدأ الكفاح المسلح بشكل فعلي من الأراضي العراقية في الغالب.

كانت جيزرة هي المحطة الأولى في محافظة شرنك. عند دخولها تبدو كأي بلدة عادية. الجو بارد، والثلوج مختلطة بالوحول، والرجال يرتدون المعاطف الغامقة، بعضهم بكوفية مخططة بالأبيض والأسود أو الأرجواني؛ إنهم يحددون سمات الشارع. في هذا الكراج الصغير، يمكن للمرء شراء سندويشات بلحم الدجاج أو العجل، أو رقائق الشيبس أو علب بسكويت وما شابه. استراحة مدتها ١٠ دقائق. الرجال يترجلون لتدخين سيجارة ويشربون معها الشاي، وهو ما يقوم به الكُرد كلما امتلكوا دقيقة فائضة. كما أن نظافة مراحيض الكراج مقبولة.

لكن في اللحظة التي غطست في مقعدي من جديد، لم أستطع النوم بسبب الهمهمة الرتيبة للدواليب، وكنا قد وصلنا إلى إطلالة مدهشة على واحد من الشريانين الحيويين: دجلة. جزء صغير لكن الطريق يسير بموازة النهرالعريض خلف الجبال الصخرية الجرداء. جمال أخاذ، ولاسيما رصانة النهر، واسع ومهيب ومندفع بشكل غير مخيف، والناس أيضاً تركته على هذه الحالة. لا مقاهي، ولا أماكن ترفيهية. لا قوارب ولا هدايا تذكارية. لا شيء سوى هذا النهر.

استغرقت رحلتنا البالغ طولها ٢٨٥ كلم خمس ساعات. لم يكن كراج باصات شرنك سوى محطة توقف، ينتظرنا فيه شابان،هما صديقا بيدى. أو الأحرى أحدهما هو أخو صديقة بيدى، ما يعني أنها صديقة للعائلة وبالتالي ستؤمن لنا الإقامة. لقد بدأت أدرك بأن لا شيء يسعد الكُرد بقدر استقبالهم الضيف في بيوتهم. ستباتون ليلة واحدة فقط؟إذاً، في طريق العودة تباتون ليلة أخرى؟ أعتقد أنكم تشعرون بالجوع؟ تفضلوا الشاي.

شخصياً لا شيء يسعدني خلال الإقامة عند مستضيفين كهؤلاء أكثر من الفراش الكُردي التقليدي. هناك في كل بيت كُردي عدد من فرش النوم مكدسة في إحدى الغرف ومغطاة بشرشف كبير. تُفرش في المساء للكل حيث لا وجود لغرف نوم بأسرّة ثابتة. يضعون أولاً فراشاً قاسياً من الأسفل بسماكة سنتيمتر أو أكثر مصنوعاً من قطن سميك خام ومحشواً بالصوف، يغطى أحياناً بشرشف ومن ثم اللحاف الذي هو

متين أيضاً بالكاد تستطيع رفعه بيد واحدة، وهو محشو أيضاً بالصوف لكنه غير مغطى بقطن خام إنما بقماش طري لماع بألوان فاقعة. لحاف وزنه ١٠ كغ يغطي جسمك لابد أنها نومة هنية.

***

التهريب بعلم الجيش

في صباح اليوم التالي ركبنا الباص الصغير باتجاه قرية كول يازي. انضمّ إلينا عزيز، الذي كنا قد التقيناه مصادفةً في يوم سابق في شرنك: فهو صديق العائلة التي بتنا عندها وكان حاضراً تلك الليلة. يعمل عزيز في المكتب الإعلامي الكُردي دجلة، وهو أحد الذين أرسلوا خلال الأيام الماضية تقارير من كول يازي وأورتاسو. فهو يستطيع بسهولة، كما يقول، أن يساعدنا على الالتقاء مع الناس.

الطريق إلى كلتا القريتين ملتوٍ والطبيعة مقفرة. مخافر الجيش منتشرة في كل مكان هنا؛ على طول الطريق وعلى سفوح الجبال. على طول المسارهناك نقطتا تفتيش تابعتان للشرطة العسكرية. كنا نتناقش فيما إذا كنا بحاجة 'استراتيجية' معينة في حال طُرحتْ علينا أسئلة، لكنني لم أكن من مؤيدي الفكرة. لأنه مكتوبٌ على تصريح إقامتي، التي عادة ما تطلبها نقاط التفتيش، بالأحرف الكبيرة BASIN (صحافة)، لذلك فإن الادعاء بأنني «مسافرة» أو حتى «سائحة» ليس له أي معنى.

وبالفعل تعرضنا مرتين للتفتيش. ونحن نبتسم صرحنا بالحقيقة عندما سُئُلنا عن وجهتنا (فهذا الطريق له وجهات محدودة) فلوّح إلينا العسكر بمتابعة المسير. لم أفاجأ بذلك: ففي السنوات التي عملت في تركيا كأجنبية وكصحفية معتمدة رسمياً لم أتعرّض قط لعرقلة أثناء تأدية عملي.

كلما تقدمنا بالمسير بدت الجبال أكثر جمالاً؛ متسقةً وصخرية وبالكاد مغطاة بالخضرة. تم باستخدام السياج اقتطاع أجزاء كبيرة من الأراضي وتحويلها إلى: منطقة عسكرية، ممنوع الدخول. أثناء مسيرنا نصادف أحياناً رعاة وقطعاناً من الغنم. سابقاً كانت القطعان أكبر بكثير، لكن بسبب تحويل المروج، منذ سنوات كثيرة إلى مناطق محظورة، تناقصت مساحة الأراضي الخصبة، وبالتالي أصبحت تربية الأغنام قليلة المردود.

يلف النهر، من الجهة الأخرى للطريق، قرية أورتاسو بالتوازي مع الطريق، وينحدر أحياناً بشكل عميق في الوادي بحيث يختفي عن النظر. وعند نهاية المنعطف، يلوح في الأفق جدار ضخم: سد قيد الإنشاء. لقد دمرت الشاحنات والآليات الثقيلة المستخدمة في العمل، الطريق بحيث بالكاد يستطيع الباص الصغير متابعة طريقه ببطء وبترنح عنيف. لم يجلب هذا السد، كغيره من السدود التي أُنشئت في المنطقة، أي زيادة في فرص العمل لسكان المنطقة. فالشركات التي تبني هذه المنشآت الضخمة، تجلب عمالها معها من مناطق أخرى من تركيا.

بعد حوالى ساعة ونصف الساعة وعلى بُعد منعطف واحد من قرية أورتاسو، طلب عزيز من السائق أن ينزلنا. فقد وصلنا إلى قرية كول يازي. هناك خلفنا على بعد ٥٠ متراً محطة محروقات، وأمامنا على اليسار خيمة بيضاء كبيرة. وعلى يسار الطريق أيضاً: مقهى أنترنيت، ودكانان صغيران. والنهر الصغيرأورتاسو، الذي يرتفع هنا إلى مستوى أعلى، يتدفق عبر قرية كول يازي ومن ثم يتابع إلى أسفل الطريق بانعطافة واسعة منطلقاً إلى الطبيعة. بيوت ذات طابق واحد مبنية بجانب النهر وقبالة الهضبة، سقوفها مغطاة بقطعة نيلون زرقاء اللون لحمايتها من الثلوج والأمطار.

مشينا يساراً خلف الخيمة البيضاء، التي تبدو كصالة رياضية نصف مفتوحة، على الطريق المعبّد الوحيد الذي يمر في القرية. لكنه مليء بالحفر بسبب الصيانة السيئة، وفي كل خطوة نخطوها تلتصق أحذيتنا بمزيج الطين والثلج. في الزاوية بجانب الجامع ينعطف الطريق يساراً. يتملكني الحزن كلما وقعت عيناي على لافتة كبيرة معلقة على السور تضم صور ضحايا القصف. ٣٤ وجهاً لرجال وأولاد يحدقون إلينا. مكتوب على اللافتة: «طلقات أردوغان الـ ٣٣. ديرسيم، زيلان، آغري، اليوم قيلابان. القاتل أردوغان».

ترمز الطلقات الـ ٣٣ إلى مقتل ٣٣ مهرباً كُردياً على الحدود مع إيران بإيعاز من قيادة الجيش في عام ١٩٤٣، المجزة الشنيعة في التاريخ الكُردي. وفي عشرينيات وثلاثينيات القرن الماضي اندلعت

في ديرسيم وزيلان وآغري حركات تمرد كُردية قُمعت بقسوة شديدة من قبل جيش الجمهورية التركية، سقط بنتيجتها ضحايا كثُر. أما قيلابان فهي التسمية الكُردية لـ أولوديرى(المنطقة التي وقعت فيها المذبحة الحالية).

ليس لدينا الكثير من الوقت. إنها العاشرة ونريد العودة قبل حلول الظلام بالباص الصغير. في الحقيقة لا أحبذ العمل الصحفي المستعجل عند التعامل مع حدث كهذا. لكن هناك واجبات أخرى عليّ إتمامها؛ فهذه الرحلة لم تكن في الحسبان، كما يجب على عزيز العودة إلى عمله الآخر في بلدية شرنك. في كل الأحوال أريد خلال هذه الساعات كتابة تقريرين. واحد لوكالة الأنباء الهولندية (ANP) يتضمن أخباراً قيّمة آمل أن أصادفها في رحلتي، وآخر لجريدة ٧ أيام الشبابية حول المهربين القُصّر.

مازالت وجوه الضحايا المطبوعة على اللافتة، والتي أغلبها وجوه فتية، مسيطرة عليّ، بينما قام عزيز بجمع بعض الرجال حولنا. ’مع من تودين الحديث؟‘ قال أحدهم. يبدو أنهم اعتادوا صحفيين يجب عليهم إنجاز أقله رواية واحدة في زمن قياسي.

قلت: الأقارب، الأولاد الذين يعملون في التهريب، الناجون من المجزرة إذا كان ذلك ممكناً. ’بمن تفضلين البدء؟‘ يبدو أن الجميع مستعد للحديث. أجبتُ ’غير مهم‘. الكل معاً إذاً، في بيت دافئ جداً ومكتظ، حيث خلعتُ حذائي عند عتبة الباب.

بدأ ثروت إنجو، الذي نجا من المجزرة والبالغ من العمر ٣٥ سنة، القول بأنهم يعملون في التهريب في هذه المنطقة منذ تمّ رسم الحدود بين العراق وتركيا في عام ١٩٢٦. فالتهريب في هذه المنطقة هو أحد المصادر القليلة لتأمين الدخل. خصوصاً الوقود النفطي الذي يوفر دخلاً جيداً، لأن الضرائب في تركيا عالية قياساً على ما هي عليه الحال في العراق التي تكاد تكون معدومة. كما تعتبرالسجائر والشاي تجارة رابحة. أما مصادر الدخل الأخرى فهي غير متوافرة هنا، هذا كان رأيه ورأي من حوله.

روى لي القرويون ما كنت قد قرأته أيضاً في بعض وسائل الإعلام: بأن التهريب يحدث بمعرفة الجيش. تدرك قيادة الجيش في المنطقة أن مصادر الدخل هنا قليلة جداً لذلك يغض الجيش الطرف عن هذه التجارة غير القانونية. يقول ثروت إنجو: 'اتفقنا مع مخافر الجيش حول هذا الموضوع. وهم يعلموننا في حال وجود خطة لعملية ما ضد الـ PKK، بحيث نقوم بتأجيل التهريب عدة أيام. هكذا هو الحال منذ سنوات، لكننا هذه المرة لم نتلق أيَّ إشارة بوجود أيِّ مخطط لهجوم أوعملية لذلك ذهبنا كالعادة للقيام بالتهريب'. كما يروي بأنهم سمعوا صوت طائرات الاستطلاع المسيرة بدون طيار والمعروفة باسم درون، 'لكن ذلك ليس بالأمر الغريب، فهذه الطائرات موجودة بشكل كبير في المنطقة'.

صادفت خلال رحلاتي عبر جنوب شرقي تركيا الكثير من

الدلائل على هذه البضائع المهربة بشكل شبه قانوني. ففي جيزرة على سبيل المثال، في اليوم الذي سبق وصولنا إلى هنا، توقف باصنا عند محطة تقع في منطقة خالية من السكان حيث عنابر مجهزة بأبواب سحاب حديدية، وجاء بعض الرجال وفتحوا بوابة العنبر السحاب الذي أحدث ضجيجاً عالياً وأخرجوا تجهيزات التعبئة. بتعقب مسار الخرطوم ترى بأنه ينتهي إلى خزان في العنبر، وهكذا تمت تعبئة الباص بالوقود المهرّب. الكل يعرف أماكن البيع الثابتة هذه، ولا أحد يقوم بأيّ إجراء ضدها.

نتيجة لذلك قلما تبيع محطات المحروقات البنزين، ببساطة لأن الطلب عليها قليل. وقد لمست ذلك بنفسي، فعندما استأجرت بعد عدة أشهر سيارة في شرنك وفرغت من وقودها لم أتمكن من تعبئتها إلا بعد المرورعلى ثلاث محطات محروقات. فالمحطة الأولى كانت عبارة عن دكان صغير ومغسل سيارات، وعندما قلت لعامل التعبئة، بعد أن ركنت السيارة بقرب المضخة بشكل جيد، ’الخزان بالكامل‘ رد قائلاً: ’آسف، نحن لا نبيع البنزين‘. في المحطة الثانية، التي تبدو كمغسل للسيارات والسجاد، اعتذروا وأخبروني بالمحطة التي تبيع الوقود في المدينة.

كانت شهادة الناجي من القصف، ثروت إنجو، مقنعة. فهذه المنطقة مليئة بالعسكر بحيث من الصعب على القرويين مزاولة التهريب دون علم الجيش. فهناك مخافر الشرطة فوق الجبال، بالإضافة إلى أن

طائرات الدرون تحوم بشكل دائم فوق منطقة الحدود سواء من جهة العراق أو تركيا: أميركية فوق الجبال على الجانب العراقي، وأخرى تركية، إسرائيلية المصدر، على الجانب التركي من الحدود. يتشارك الأميركان في المعلومات، التي تجمعها طائرات الدرون، مع تركيا، حيث يقوم خبراء من الجيش التركي بتحليل الصور وتقويمها بشكل مستمر.

فلا يُعقل أن لا تكون السلطات التركية قد لاحظت، طوال هذه السنين، قيام مجموعة مكونة من ٢٠ إلى ٥٠ مهرباً والعدد نفسه من البغال تقريباً وبمعدل ٨ إلى ١٢ مرة في الشهر وفي التوقيت نفسه تقريباً وعلى المسار نفسه من تركيا إلى العراق، بالدخول إلى العراق والعودة بعد قليل. هذا يعني أن ثروت معه حق في ما ذكره: المهربون مكشوفون دائماً ولا يتم التعرّض لهم.

شعرت بالحرج قليلاً وأنا أسأل ثروت فيما إذا كان يعمل حارساً للقرية. أجاب ثروت بأنه لم يعمل قط حارساً للقرية، 'لكن هناك في القرية كثيرين آخرين يقومون بذلك. هل شاهدتِ معامل في مسار رحلتك إلى هنا؟ لا. ليس هناك عمل غير التهريب والحراسة'. يقبض القرويون شهرياً ٧٠٠ ليرة تركية (حوالى ٣١٥ يورو) مقابل حمل السلاح المسلم لهم من قبل الدولة ومساعدتها على محاربة الـ PKK.

يعود نظام حراسة القرية في تركيا إلى حوالى قرن من الزمن. فقد تم إقراره مع بداية تشكل الجمهورية أي عام ١٩٢٣ وذلك من أجل

حماية الحدود الجديدة لتركيا. وتم إلغاؤه في ستينيات القرن الماضي لاعتباره إجراءً غير ديمقراطي.

وأُعيد تفعيله بعد الهجمات الأولى للـ PKK، في آب ١٩٨٤، وبلغ عدد حراس القرى في نهاية ١٩٨٥ حوالى ١٣ ألف حارس. قسم منهم كان مُكرهاً على ذلك، والذي رفض الأوامر تم طرده أو تصفيته. لكن البعض الآخر حمل سلاح الدولة طواعيةً. وهم بشكل أساسي من الكُرد الذين ينتمون إلى النخبة التي كانت تمتلك السلطة في المجتمع التقليدي الكُردي الإقطاعي. كانت محاربتهم للـ PKK الحامل للفكر الشيوعي والمكافح الشرس ضد الإقطاعية هي بدافع الحفاظ على سلطتهم الخاصة. راوح عدد حراس القرى في تسعينيات القرن الماضي بين ٥٠ – ٩٠ ألفاً.

بحسب ما فهمت يحتقر بقية الكُرد هؤلاء الحراس، وكثيراً ما يخشونهم أيضاً، بسبب ولائهم للدولة. مع ذلك أظهرت صور الحداد والجنازة في كول يازي التي شاهدتها عبر التلفزيون ومن خلال اللقاءات مع الناس، وجود وحدة وتضامن كبيرين.

لكن كيف يمكن تفسير هذا؟ أليس هذا انقساماً في القرية، أم أنهم يضعون هذا الأمر جانباً في زمن المآسي التي بهذا الحجم؟ يرى ثروت: ليس العمل حارس قرية هو بالأمر المهم في هذه الأوقات ولا أحد يُدان على ذلك. فهي مجرد وسيلة لكسب المال. هل هناك حل آخر أمامنا؟

كيف تحوّل القرويون إلى العمل حراس قرى

لم أسمع بالقصة الكاملة للطريقة التي تحوّل فيها سكان قريتي أورتاسو وكول يازي إلى حراس قرى إلا بعد عدة أشهر، وعندئذ فهمت مغزى كلام ثروت بشكل أفضل. والقصة تقول بأن كلتا القريتين كانتا صغيرتين جداً في تسعينيات القرن الماضي، وأن قسماً كبيراً من سكانهما الحاليين كان قد أتى من قرية زيفيه، التي تسمى بالتركية تارله باشي، التي هي قرية صغيرة على الحدود مع العراق.

مازالت قدرية إنجو التي تبلغ من العمر ٥٥ سنة تتذكر جيداً ذلك اليوم من نيسان ١٩٩٣ حين اقتحم العسكرهذه القرية: «حدث ذلك في الصباح الباكر، وجهوا أسلحتهم صوبنا لإجبارنا على العمل حراس قرى، لكننا رفضنا القيام بذلك بالمطلق تماماً كرفضنا له سابقاً. لذلك طردنا من القرية وبالكاد استطعنا أخذ بعض الحاجات».

تمكنت قدرية وزوجها من إخراج أولادهما الخمسة من البيت وحملا معهما فراشاً واحداً وغطاءً وحيداً، هذا كل ما استطاعوا أخذه. وأثناء قيامهم بمغادرة القرية، مع بقية الناس، أضرم العسكر النار بالقرية. تتذكر قدرية: عندما رأينا القرية تحترق أحسسنا وكأننا نحن الذين نحترق، كان الحريق يلتهمنا من داخلنا.

لاحقاً شاهدوا وسمعوا عن الكثير من القرى التي تعرضت للمعاملة نفسها، تقول قدرية: أعتقد أن زيفيه كانت من أوائل القرى

المجاورة التي تعرضت للحرق. سنوات والعسكر يضغطون علينا بشدة لأنهم يتهموننا بمساعدة الـ PKK.

مازالت قدرية تتذكر كيف أنها صادفت المقاتلين مرةً عندما كانت تسوق الماشية للراعي في المروج العليا. تسمي مقاتلي الـPKK بـ هفال، وأحياناً تستخدم كلمة كاركر: (هفال بالكُردية تعني صديق، وكاركر تعني عامل، بالقياس على مختصر معنى PKK: پارتيه كاركرين كُردستان، أي حزب العمال الكُردستاني). تقول بأن ’الهفال شرح لنا من هم وماذا يفعلون، لكننا لم نفهم ذلك بشكل جيد‘.

تضحك وهي تقول بأنها كانت خائفة في المرات الأولى التي قابلت فيها مقاتلي الـPKK: ’ظننت أن عزرائيل، ملاك الموت، قد أتى لكي يأخذنا. لكن الهفال يتكلمون الكُردية؛ إنهم شبابنا، وهكذا شعرنا بالأمان بوجودهم في جوارنا‘.

يتضح من رواية قدرية، وغيرها من روايات القرويين الذين تعود جذورهم إلى قرية زيفيه، أنهم كانوا دائماً بين فكي كماشة؛ الـPKK والجيش التركي. تروي قدرية: ’كان مقاتلو الـ PKK يأتون في المساء طلباً للطعام وفي النهار يأتي الجيش، وكنا نعطي الاثنين. كان الـPKK يغضب عندما يعلم بأننا أعطينا طعاماً للجيش، والجيش بدوره يضغط علينا حتى لا نساعد الـPKK. ما العمل في هذه الحالة؟ لايجوز أن نرد جائعاً دون طعام، حتى لو كان ذلك الرغيف هو آخر رغيف في البيت فإننا نعطيهم إياه، حتى للجيش، الذي كان قد عاملنا بطريقة سيئة‘.

دامت هذه المعاملة السيئة سنوات عديدة. تتذكر قدرية ونساء أخريات بأن الجيش كثيراً ما كان يقوم بحملات تفتيش في الصباح الباكر. حيث كان يتم تجميع الناس في ساحة القرية ويُجبرون على البقاء في مكانهم ريثما ينتهي العسكر من قلب البيت رأساً على عقب. تقول قدرية: 'كانوا يأخذون كل الأغراض التي يشكون بأننا نستخدمها في مساعدة الـ PKK. هكذا كنا نفقد أجهزة الراديو وآلات الخياطة'.

يروي العديد من أهل القرية قصصاً كثيرة حول الهجوم بقذائف المورتر (الهاون) على قرية زيفيه قبل أن يتم جرفها. كان الهجوم يستمر طوال الليل، والسكان يختبئون في المغاور القريبة من مقابر القرية. لم يكن هناك ضحايا من الناس وإنما فقط من الماشية. وفي اليوم التالي يأتي العسكر ومعهم معاول لتجهيز المقابر، لكنهم كانوا يصابون بالدهشة عندما يكتشفون بأن الناس لم يصابوا بأذى. فقد أتوا لكي يدفنوا الموتى.

بالمناسبة لم يكن الجيش والـPKK هما الوحيدين اللذين كانا يطرقان الباب طلباً للطعام والمعونات الأخرى، بل أيضاً البيشمركا، جنود كُرد من شمال العراق. كانوا يهربون من صدام حسين ويبحثون عن مخبأ، وهو ما كان يوفره لهم سكان القرية. 'ساعدنا الجميع، لكن لم يساعدنا أحد' بهذه العبارة لخّصت قدرية الحالة.

بدأ الجيش التركي مع نهاية ثمانينيات القرن الماضي بجرف القرى. معتمداً على قانون الطوارئ المفروض حينذاك على المنطقة،

والذي يمنح حاكم المنطقة سلطة إصدار أوامر بإخلاء القرى دون إعلام السكان مسبقاً.

لم يكن جرف القرى وتدميرها موجهاً ضد السكان بالدرجة الأولى بل ضد الـ PKK. كان أول هجوم في عام ١٩٨٤ قامت به مجموعة الكريللا، التي تأسست عام ١٩٧٨. كانت قرى الجنوب الشرقي مناطق حيوية بالنسبة إلى المنظمة: كان القرويون يقدمون الطعام وبعض الملابس للمقاتلين، طواعيةً أو مجبرين، كما كانوا مصدراً مهماً للمعلومات. لذلك شكّل جرف القرى وتسويتها بالأرض وترهيب السكان، ضربة قوية للـ PKK.

أدت عملية الجرف تلك، وفقاً للصحفية الأميركية آليزا ماركوس، صاحبة كتاب *Blood and Belief* الذي يدور حول تاريخ الـ PKK، إلى تحويل المناطق الواقعة ما بين المدن والجبال إلى مناطق شبه خالية في النصف الثاني من تسعينيات القرن الماضي. حتى العناصر الجديدة التي أرادت الالتحاق بالـ PKK، لم تستطع الوصول إلى معسكرات الـ PKK إلا بشق الأنفس، وأحياناً تعذرعليهم الوصول.

وفقاً لمنظمات دولية تعمل في مجال حقوق الإنسان مثل منظمة العفو الدولية (*Amnesty International*) ومنظمة حقوق الإنسان (*Human Rights Watch*)، تم تدميرحوالى ٣٠٠٠ قرية. أما تعداد الناس الذين تم تهجيرهم من بيوتهم فهو غيرمعروف بدقة، لكن تقديرات منظمات حقوق الإنسان سواء التركية أو الدولية، تراوح بين ٢٧٥ ألفاً ومليوني نسمة.

نتيجة لذلك، هامَ آلاف مؤلفة من القرويين على وجوهم، أغلبها باتجاه المدن الكبيرة في المنطقة الكُردية أو ما حولها، ما أدى إلى حدوث انفجارسكاني في مدن مثل دياربكر وباطمان نتيجة هذا التدفق، كما كان لكل مراكز محافظات الجنوب الشرقي نصيب من هذا التدفق، حيث كان على اللاجئين العيش أحياناً مدة طويلة في خيام، حتى في أشهر الشتاء القارس.

فضلاً عن ذلك، ازداد النزوح إلى مناطق أخرى من تركيا في تلك السنوات: فقد غادر الناس بيوتهم نتيجة العنف والوضع الاقتصادي البائس في الجنوب الشرقي. منذئذ يعيش في مدن مثل إزمير في الغرب، وأضنه وميرسين في الجنوب عشرات الآلاف من السكان الكُرد، أما في إسطنبول وحدها فيعيش ملايين الكُرد.

كانت الصحافة أيضاً في تلك الفترة غير حرة؛ نتيجة للقمع الذي مارسه الجيش كان هناك صمت مطلق في الإعلام التركي عما يجري في الجنوب الشرقي من البلاد. لم يكن الأتراك يعلمون شيئاً عن تعرّض آلاف القرى في الجنوب للتدمير، ولم ينظروا إلى المهاجرين الكُرد على أنهم لاجئون، بل نازحون اقتصاديون. لقد تسببت حياة المدينة بمعاناة الكثيرين الفقر المدقع. أولاً، لأن عملية حصول هؤلاء الناس على فرص عمل كانت عملية شاقة جداً، ثانياً، أصبحت تكاليف المعيشة بين ليلة وضحاها أغلى بكثير. ففيما يعتمد الناس في القرى بشكل كبير على الزراعة والمواشي ويعيشون في بيوتهم الخاصة بهم؛

فقد بات عليهم في المدينة شراء كل حاجاتهم بالإضافة إلى دفع بدل إيجار.

أما حال المهجّرين من قرية زيفيه فقد كان مختلفاً. فقسم صغير منهم هرب مباشرة وعبر الحدود إلى الطرف الثاني والتجأ إلى مدينة زاخو العراقية الحدودية. أما المتبقون والبالغ عددهم حوالى ٤٠٠ شخص، فقد قام الجيش باعتقال أعيان سبع عوائل منهم، هذا ما رواه القرويون الذين كانوا حاضرين الحدث، وتم استخدام هؤلاء المعتقلين كرهائن: إذا كانت القرية ترغب في إطلاق زعمائها، فيجب على كل عائلة أن تقدم أحد أفرادها للعمل حارس قرية. رضخ القرويون لهذا الأمر من أجل إنقاذ رجالهم من السجون التركية. ومنذ ذلك الوقت أصبحوا حراس قرى.

حرم هذا الالتزام الجديد مع الدولة، القرويين من حرية تحديد مستقبلهم. فالسفر إلى المدن الكبيرة للبحث عن عمل آخر هو أمر غير ممكن، لكونهم يعملون الآن مع الجيش. لقد عاشوا في السنة الأولى بعد جرف القرية في بيوت بسيطة آيلة للسقوط مبنية من الخشب وأغصان الشجر بالقرب من قرية أورتاسو على ضفة الجدول. ثم قام الجيش بنقل حوالى ٤٠٠ قروي إلى ثكنة خالية كانت تابعة للشرطة العسكرية، حيث مكثوا فيها قرابة السنة. تتذكر قدرية: 'بالكاد كانت هناك شبابيك ولم تكن هناك غرف كافية للجميع. كنا نتكدس بعضنا فوق بعض، أحياناً ٣ عائلات في غرفة واحدة'.

بعد سنتين من تدمير قرية زيفيه كان المستقر النهائي هو قرية كول يازي. لم يكن الجزء الواقع على طرف الطريق الرئيسة الذي يعيش فيه الناس الآن والذي رأيته في زيارتي الأولى، قد تشكّل بعد في تسعينيات القرن الماضي. لقد فقدت قدرية إنجو في هذه الحادثة (قصف أولوديري) ابنها حمزة، الذي كانت قد أنقذته مع أطفالها الآخرين من ألسنة اللهب في عام ١٩٩٣ عندما كان عمرها ٣٦ سنة.

زيفيّه: القرية المدمّرة

قررت في صباح أحد أيام ربيع ٢٠١٣ القيام بزيارة قرية زيفيه، فركبتُ السيارة برفقة رجلين مسنين يرتديان لباساً أخضر تقليدياً وكوفية مبرقعة بالأبيض والأسود ملفوفة على رأسيهما، بالإضافة إلى شابين من عائلة إنجو، منطلقين من قرية كول يازي إلى قرية زيفيه. في الحقيقة تمنيتُ أن ترافقنا قدرية في هذه الرحلة لكن يبدو أن ذلك غير ممكن، فهي تذهب كل صباح مع بقية النساء إلى حقل كبير في الجوار لحلب الماعز. هناك الكثير من الرجال الذين يذهبون صباحاً إلى زيفيه، فكان من المنطقي أن نرافقهم في رحلتنا. سرنا أولاً باتجاه قرية أورتاسو واستدرنا يساراً ووصلنا إلى المنطقة التي عاش فيها القرويون السنة الأولى بعد تدمير قرية زيفيه. بعد برهة من وصولنا إلى منطقة خالية، نزل أحد الرجال: إنها أرضه. في الحقول وعلى طول الطريق

نساء منشغلات بجمع الأعشاب ووضعها في حمالات ظهرية كبيرة ومتينة يتم تعليقها على الكتفين.

وصل الطريق المعبّد، بعد حوالى ٥ كيلومترات، إلى مفترق وركنّا السيارة جانباً. أشار فاروق إنجو، ٢١ سنة، إلى الطريق المتجه يساراً والذي يختفي بين الجبال. 'هذا الطريق يقود إلى زاخو، لكن هناك على الطريق ألغاماً ومخفراً للجيش، أي إننا لا نستطيع الوصول إلى هناك'. لذلك سلكنا الطريق المتجه يميناً والذي سرعان ما أصبح غير معبد. نظرت خلفي بعد بضع مئات من الأمتارفلم أر الرجل العجوز الآخر. لقد اختفى بين الزرع الأخضر؛ يسير صوب أرضه. على الجهة اليسرى من الطريق هناك آثار بيت. لايزال جزء من الواجهة قائماً وجزء من الجدار الشمالي أيضاً. 'كان هذا منزل عائلتي' يقول فاروق. تسلقنا الأطلال وهو يشرح لنا ما نشاهد.

ثمة قوس، يبدو أنه كان الجزء العلوي للباب الخارجي. لكن بسبب تراكم الأنقاض بعلو أكثر من متر، لا يظهر منه إلا جزء بسيط. وفي الأعلى هناك في الجدران ثقوب على مسافات متساوية بعضها من بعض: إنها أماكن استناد العوارض التي تحمل سقف المنزل. في الطابق العلوي كانت تعيش عائلة ثانية. ثمة شجرة جوز كبيرة أمام البيت مثمرة جداً بحيث كانوا يبيعون قسماً من ثمرها منها أحياناً.

يقع مركز القرية بالقرب من هذا المكان. هناك عدد من خلايا زرقاء للنحل عند أنقاض البيت الأول الذي رأيناه. نعم مازالت تعمل، فعسل قرية كول يازي مصدره هذه المناحل. وعلى رقعة أرض على

يسار البيت ألمح رجلاً يرتدي الزي التقليدي وكوفية مبرقعة بالأسود والأبيض، 'إنه شفيق إنجو (٥٧ سنة) الذي يأتي إلى هنا كل يوم، كما يقول، وكثيراً ما يقطع المسافة بين كول يازي وزيفيه مشياً على الأقدام. وهو يقوم الآن بزرع البندورة، في أرض مرتفعة نوعاً ما'.

صعدنا وراءه. تقع الأرض التي يزرع فيه خضاره تماماً بجانب البيت الذي كان يعيش فيه سابقاً. اليوم يقوم بزرع البندورة ولاحقاً خلال الأسبوع الباذنجان والفليفلة. انتظروا لحظة، يقول شفيق، سأحضر بعض الماء. لقد توقعت بأنه سيعود بعد قليل بدلوٍ مليء بالماء، لكن يبدو أن الأمر هنا ليس بهذه الصورة. إذ أراه يفتح بالرفش مناطق محددة من الأرض ليتدفق الجدول الذي يمر من القرية بأخدود جميل إلى أرضه. جك جك جك، وتيار الماء يتدفق بين أخاديد الأرض بدقة متجهاً نحو النباتات التي زرعها.

أعطى الرفش لفاروق، الذي شق الأرض ببعض الضربات الفعالة ففتح أخدوداً آخر باتجاه الأرض المنحفضة نسبياً. وقام شفيق باستخدام عصا حادة من أحد طرفيها، بفتح أنساق من الحفر في الأرض وغرز فيها الشتلات ثم ردم هذه الحفر فأصبحت جاهزة؛ بعد شهرين ستثمر البندورة.

يقول شفيق إنجو: 'سابقاً لم نكن مضطرين لشراء أي شيء للأكل. كنا نزرع العنب والجوز والبندورة والباذنجان هنا، ونأخذها إلى زاخو في الجهة المقابلة من الحدود ونقايضها مقابل سكر وشاي وأرز. لم نكن نحتاج إلى النقود إلا من أجل شراء الملابس وأغراض البيت.

وهو ما كنا نحصل عليه من خلال بيع اللحوم والصوف وبيع مواد التهريب. كان يتم استخدام النقود في زاخو من أجل شراء الملابس وأغراض للمنازل'.

كانوا يدفعون، بشكل أو بآخر، ضريبة عن الأشياء التي يقومون بتهريبها، يقول شفيق: 'عندما نقوم بتهريب ٥٠ كغ سكر، فإننا في طريق العودة كنا أحياناً نعطي جزءاً منه، حوالى ٢٠ كغ، للعسكر. إنها ليست ضريبة قانونية لكنها في النهاية كانت تُدفع'.

مع ذلك يعترض كل سكان قرية كول يازي على استخدام كلمة «تهريب»؛ فهم لا ينظرون إليها بهذا الشكل. التهريب يستلزم وجود حدود، على الرغم من إدراكهم وجودها رسمياً، لكن مقاربتهم لها تستند إلى تجربتهم الخاصة. يقول ثروت إنجو، الذي نجا من القصف: «في المكان الذي تعرضنا فيه للقصف هناك لوحة حجرية على الحدود رقمها ١٥، مكتوب على أحد وجهيها تركيا وعلى الوجه الآخر العراق. لم تكن هذه اللوحة موجودة في السابق، أي عندما بدأنا بالتهريب. الناس الذين نتعامل معهم، هم أهلنا. إنهم يعيشون رسمياً على الجهة المقابلة من الحدود، لكن بالنسبة إلينا هي كلها أرض واحدة، أرضنا التي نعيش عليها منذ قرون عديدة. إنها كلها كُردستان».

خريطة كُردستان

تعتبر كلمة كُردستان من الكلمات القليلة في تركيا التي تثير مشاعر قوية كهذه. في السنوات الماضية تحداني الكثير من الأتراك بأن أحدد

كُردستان على الخريطة. 'لايمكنك ذلك!' يقولونها بلهجة المنتصر. 'لأنه لا توجد كُردستان على الإطلاق'.

عندما لفظ الرئيس عبدالله غول هذه الكلمة في آذار٢٠٠٩، غضب الشعب التركي. الكلمة ك! ومن قبل الرئيس! غول نفسه كان هادئاً. ذكر هذه الكلمة بحضور صحفيين خلال زيارته للعراق؛ أول زيارة لرئيس تركي منذ ٣٣ عاماً. تسمى المنطقة الشمالية شبه المستقلة من العراق رسمياً «إقليم كُردستان» وهكذا استخدمها الرئيس أيضاً. لكن ماهي «كُردستان» بالضبط؟ أهي مجرد أسطورة تدور في مخيلة الكُرد؟ كلا، بالتأكيد لا. فمن المعروف أن أتاتورك نفسه استخدم المصطلح قبل قيام الجمهورية. كما أنه في مرحلة الإمبراطورية العثمانية، كانت كُردستان هي الاسم الشائع للمناطق الكُردية التي كانت تقع، عدا الجزء الإيراني، ضمن حدود الإمبراطورية. وفي منتصف القرن التاسع عشر، كانت كُردستان هي الأسم الرسمي لمحافظة دياربكر الحالية.

هناك خرائط لكُردستان التي لم يتم الاعترف بوجودها رسمياً. على الرغم من عدم استخدام الجميع المعايير نفسها في رسم الحدود، إلا أنها خرائط اعتمدت في العموم على عدد السكان. المعيار المنطقي هو اختيار المناطق ذات الأكثرية الكُردية. أما في حال رسم حدود تضم المناطق التي يسكنها أقله ٣٠٪ كُرد فإنه سيتم بذلك إضافة حوالى ١٠٠ ألف كم^2 إلى الخريطة. في تركيا هذا يعني أن المدن المختلطة مثل سيفاس وملاطية وغازي عنتاب ستقع ضمن كُردستان.

إن الذين يستخدمون قاعدة الـ ٣٠٪ يستندون إلى أن: كُردستان التي يعبرون عنها لها معبر على البحر من خلال المحافظة الجنوبية هاتاي. كُردستان الأصغر والمتعارف عليها لا تمتلك شاطئاً أو ميناء.

لكن المياه متوافرة، حيث هناك عدد لا يُحصى من الينابيع الجبلية والأنهر الصغيرة التي تتدفق في الطبيعة، التي تتفرع أو تصب في الفرات وأكثر منها في دجلة، النهر الذي يخط مساره ببطء عبر الأراضي الكُردية المنخفضة وخلال الوديان في المناطق الجبلية. إنها هذه المياه ما يجعل من هذه الأرض حكاية أسطورية، مفعمة بالحياة. دون هذه المياه المتلألئة، كانت ستبقى كُردستان أرضاً وعرة وصعبة وجافة وصخرية.

تبلغ مساحة كُردستان حوالى ٤١٠ آلاف كم^{2}، أكبر حوالى ١١ مرة من هولندا. يقع الجزء الأكبر منها في تركيا؛ حوالى ١٩٥ ألف كم^{2}، أو ما يعادل حوالى ربع مساحة تركيا. أما الجزء الواقع في إيران فيبلغ حوالى ١٢٥ ألف كم^{2}، أو حوالى ١٣ بالمئة من إيران.

تبلغ مساحة كُردستان العراق ٧٢ ألف كم^{2}، أي سدس مساحة العراق. (بالمناسبة هذه المساحة هي أكبر من إقليم كُردستان شبه المستقل الذي تبلغ مساحته حوالى ٤٠ ألف كم^{2} وتشكل عُشر مساحة العراق). أما الجزء الأصغر من كُردستان فهو في سوريا حيث تبلغ مساحته ١٨ ألف كم^{2}، أي حوالى عُشر مساحة سوريا.

يبلغ العدد الكلي للسكان الكُرد في هذه الجغرافيا حوالى ٣٠

مليون نسمة: حوالى ١٨ مليوناً في تركيا، و٥ ملايين في العراق، و٦ ملايين في إيران، وحوالى مليون في سوريا. كما يعيش حوالى نصف مليون كُردي في أرمينيا وآذربيجان، وحوالى مليون في أوروبا، في ألمانيا على وجه الخصوص.

بالمناسبة، لا يعيش كل الكُرد، في تركيا على وجه الخصوص، في المناطق الكُردية الأصلية، كما أن دياربكر ليست هي المدينة التي يعيش فيها أكبر عدد من الكُرد بل إسطنبول. كما يعيش عشرات الآلاف من الكُرد في المدن الجنوبية والغربية من تركيا مثل إزمير وآضنه وميرسين. ثمة أمر هام آخر، لا يعيش في كُردستان كُرد فقط بل شعوب أخرى مثل السريان الأرثوذكس والعرب والأرمن وشعوب أصغر عدداً مثل اليزيديين.

لكن هذه الجغرافيا وهذه الأعداد والمساحات لا تعطي انطباعاً حقيقياً عن كُردستان. برأيي هذا الانطباع يقدم نفسه بشكل أفضل على نحو مغاير: كُردستان وعرة وجميلة، ثقيلة وخفيفة، مليئة بالألم ومليئة بالسلوى، فخورة ومتواضعة، مغبّرة ولكن مرصعة باللؤلؤ.

وهذه الأخيرة هي النساء، والفساتين التقليدية التي يلبسونها يومياً أو تلك التي يلبسونها في المناسبات الخاصة. فستان طويل يصل حتى الكاحل، ذو أكمام طويلة، وبقبة عالية، لكن بتزهيرات على الخصر والصدر؛ تُلبس فوق تنورة عريضة جداً. وهو مصنوع من قماش بألوان زاهية – وردي وأخضر وأزرق وأحمر!– ومزينة بآلاف من اللآلئ

الفضية. لكثرة إعجابي بها لا يمكنني إزاحة نظري عن هذه الفساتين وهاتيك النسوة. العيون مليئة بالثقة بالنفس، والأجسام مستقيمة؛ هذا هو العز. ابتسامتهن، الخالية من الغرور، تبرز تواضعهن.

معاهدة سيفر والثورة الكمالية

ظهرت كُردستان المتصوّرة بحدود معينة على الخريطة في عام ١٩٢٠. وعلى وجه الدقة من خلال معاهدة سيفر للسلام التي وُقّعت بين الإمبراطورية العثمانية والمنتصرين في الحرب العالمية الأولى. تم في تلك المعاهدة تقسيم جزء كبير من تركيا الحالية بين إيطاليا وفرنسا وبريطانيا، التي كانت تحتل الأراضي العثمانية منذ نهاية الحرب في عام ١٩١٨. أما ما تبقى لتركيا وفق المعاهدة فهي بعض المناطق في وسط الأناضول وشماله. كما تم منح اليونان منطقة تراقيا (الواقعة في غرب إسطنبول) وجزءاً من الساحل الغربي، وحصل الأرمن على جزء من المناطق الشرقية. ووُضعت المنطقة المحيطة بإسطنبول تحت الإشراف الدولي. أما في الجنوب الشرقي فقد خطط الحلفاء لإنشاء كُردستان، لكنهم لم يتخذوا أيّ قرارات فيما يتعلق برسم الحدود الدقيقة.

لكن هل كانت كُردستان تلك قد نضجت في ذلك الوقت في مخيلة الكُرد أنفسهم؟ طرحت هذا السؤال على هوورد إيسينستات، أستاذ تاريخ الشرق الأوسط في جامعة سان لورانس في كانتن في

الولايات المتحدة، فأجاب بنعم ولكن فقط بين مجموعة صغيرة من المثقفين، في إسطنبول بالدرجة الأولى، وليس في الأوساط الشعبية. يقول إيسينستات: « أنا أعرّف النزعة القومية على أنها حركة شعبية تطالب بحق أيّ أمة في تكوين دولتها الخاصة بها. مرت أوروبا في هذه المرحلة، وفي عشرينيات القرن الماضي انتقلت إلى الشرق الأوسط. قبل ذلك، في منتصف القرن التاسع عشر، كان المثقفون الكُرد قد بدأوا التركيز على هويتهم ككُرد، كباقي مثقفي الشعوب الأخرى. وفي نهاية القرن التاسع عشر بدأت هذه النخبة بالتفكير في وطن قومي خاص بها. لكن لم يكن هناك أي حراك شعبي».

ذكّرني هذه الكلام،برسالة غاضبة تلقيتها مرة من أحد القوميين الأتراك، إذ رأى بأن الكُرد أضاعوا حقهم في وطن خاص عندما لم يقاتلوا من أجله. جاء فيها: «على الأقل قاتل الأتراك من أجل وطنهم، الكُرد لم يفعلوا ذلك، وقد فات الأوان. إنها غلطتهم».

لم أفاجأ برأي إيسينستات الذي اعتبر هذا الطرح تبسيطاً مبالغاً للقضية. فهو يقوّم الوضع الذي وُجد فيه الكُرد في لحظات انهيار الإمبراطورية العثمانية. بقوله: ’كانت الإمبراطورية العثمانية تعاني في سنواتها الأخيرة فوضى عارمة. كان الأرمن أهم منافسي الكُرد في تلك المنطقة. فقد طالبوا بجزء من المنطقة نفسها التي يطالب بها الكُرد‘.

وهذا واضح على الخريطة التي رسمتها الاتفاقيات التي وُقعت

في معاهدة سيفر؛ جزء كبير من الأراضي التي تعتبر اليوم منطقة كُردية، مثل محافظات بيتليس وموش وآغري وفان، كانت جزءاً من أرمينيا، يقول إيسينستات: «إن البقاء ضمن الإمبراطورية العثمانية الإسلامية منح الكُرد فرصة أكبر للاحتفاظ ببعض السلطة التي يتمتعون بها في مناطقهم».

يتابع إيسينستات: «تصوّر لو أنهم لم يدعموا القوميين؟ كان العثمانيون في ذلك الوقت لا يزالون يملكون جيشاً مثل روسيا التي دعمت الأرمن. صحيح أن تعداد الكُرد بلغ حينذاك حوالى ٢٠ مليوناً، إلا أنهم كانوا بدون قوة سياسية وعسكرية. لذلك اختاروا أفضل الخيارات المتوافرة في ذلك الوقت: الانضمام إلى الكماليين».

لقد حارب الكُرد معهم في الحرب العالمية الأولى بكل تفانٍ. فقد روّجت الإمبراطورية العثمانية بأن هذه الحرب هي حرب إسلامية مقدسة، وإقناع الكُرد المتدينين بذلك لم يتطلب جهداً كبيراً من قبل زعمائهم الدينيين. لقد كانوا يبجّلون السلطان والخلافة؛ فضلاً عن ذلك كانت العلاقة بين زعماء قبائل الكُرد ومشايخ الدين الكُرد، والسلطنة في إسطنبول جيدة على العموم.

لقد رأى الكُرد بأن المنطق يحتم أن يشاركوا في حرب الاستقلال، بقيادة الجنرال مصطفى كمال، بين عامي ١٩١٩ – ١٩٢٣. تلك الحرب التي قامت من أجل طرد القوى الأجنبية من الأناضول وبالتالي إلغاء معاهدة سيفر. بهذا الشكل ربما تخلى الكُرد عن الوطن الذي وُعدوا

به في معاهدة سيفر، لكن كما نعلم، لم تكن فكرة الوطن الخاص في قائمة أولوياتهم. كان الدفاع عن الخليفة العثماني ضرورياً فهو يؤمن الحفاظ على الحرية النسبية التي يتمتعون بها في مناطقهم.

يشير هوورد إيسينستات إلى أن القومية التركية، التي أصبحت فيما بعد المعيار للجمهورية التركية، لم تكن في ذلك الوقت جزءاً من خطابات أتباع مصطفى كمال، أو من يسمى بالكماليين. كانت الهوية المتداولة في تلك السنوات هي «العثماني المسلم». يقول إيسينستات: ’قلما كان يدور الحديث خلال حرب الاستقلال عن القومية التركية. ففي الاجتماعات في الأناضول الغربية كان يتم تداول مصطلحي «تركي» و«مسلم» بشكل تبادلي وتم اعتبارهما متساويين، لكن الكماليين في شرق الأناضول كانوا أكثرحذراً. كذلك كان الحال في مؤتمر أرضروم‘.

خلال ذلك المؤتمر الهام الذي عُقد في عام ١٩١٩ تحت قيادة مصطفى كمال (الذي لاحقاً تم تكريمه، في عام ١٩٣٤، بلقب أبي الوطن تحت اسم أتاتورك، أي أبي الأتراك)، اقترح مندوبو الولايات الست الشرقية التي كانت في ذلك الوقت تحت سيطرة الحلفاء، بأن يبقوا ضمن الإمبراطورية العثمانية وعدم الاستمرار في البقاء تحت الانتداب الفرنسي والبريطاني والإيطالي. وقد وجد في هذا المؤتمر مندوبون من الولايات الكُردية بيتليس وفان وأرضروم. وكان أهم قرار اتُخذ في ذلك المؤتمر هو المحافظة على وحدة البلاد ورفض التقسيم.

لقد افترض الكُرد أنهم يحاربون على قدم المساواة مع الكماليين، وأنهم يقاتلون شراكة في حرب الاستقلال وأنهم بعدها سيشكلون معاً بلداً جديداً على قاعدة القيم والمبادئ العثمانية الإسلامية الموثوق بها؛ لقد اعتبروا ذلك بمثابة عقد شراكة غير مكتوب. يقول إيسنيستات: 'لم يتوقع الكُرد بأن الكماليين بعد حرب الاستقلال لن يلتزموا بهذا «العقد»، وبأنهم سيحرمون الكُرد من سلطاتهم في مناطقهم وبأنهم سيحظرون لغتهم وثقافتهم فيها'.

لا يعتقد إيسينستات بأن الكماليين امتلكوا حينذاك أي مخطط لشكل الدولة التركية في المستقبل. 'لكنهم كانوا يعرفون في العموم ما هي وجهتهم. وقد اعتمدوا في تحديد ذلك على اقتناع بأنهم يمثلون التحضّر، على العكس من سكان شرق البلاد، أي الكُرد. لذلك اتجهوا إلى المركزية وإلغاء الامتيازات التي كانت شعوب الإمبراطورية لاتزال تملكها في مناطقها. بحيث تصبح التركية هي اللغة القومية، وعلى سكان شرق البلاد أن يندمجوا في هذا الكيان الأكبر'.

بعد انتهاء حرب الاستقلال، بدأت الثورة الكمالية بهدف تحويل تركيا إلى دولة عصرية على النمط الغربي. وفي عام ١٩٢٣ تم إنشاء الجمهورية التركية، القائمة على العلمانية وبقيادة مركزية للدولة من العاصمة الجديدة أنقرة. فشكّل ذلك نهاية للحرية النسبية التي تمتّع الكُرد بها سابقاً في تنظيم شؤونهم الخاصة، كباقي الشعوب التي عاشت ضمن حدود الإمبراطورية العثمانية.

فضلاً عن ذلك، تطلبت عملية نقل تركيا إلى دولة مركزية أحادية، كما يهدف مصطفى كمال، التخلّص من الهوية القديمة «العثماني المسلم». فقد وجب على الكل ضمن القومية الجديدة أن يكون تركياً، حتى وإن لم يكن تركياً. فقد بشّر مصطفى كمال بالمناقب الأصيلة للمدنية التركية، وأشار إلى السلطة التي تمتع بها هؤلاء الشيوخ، الذين يشكلون جزءاً من النخبة الكُردية، بقوله: 'لن تكون الجمهورية التركية بلداً للشيوخ والدراويش والأتباع والمختلين عقلياً، بل الأفضل والأسمى في الترتيب الحضاري'.

وقد تجلى ذلك في عبارته الشهيرة التي ألقاها في العام ١٩٣٣، ذكرى مرور ١٠ أعوام على قيام الجمهورية حيث قال: « سعيدٌ من قال أنا تركي».

لقد تلازم التفاخر بالهوية التركية الجديدة مع عملية قمع مورست ضد كل من ليس تركياً. فكان الكُرد هم المجموعة غير التركية الأكبر التي عانت هذا القمع. حيث تم منع اللغة الكُردية في المدارس وإغلاق المدارس الدينية. الأمر الذي يعني عملياً حرمان الكُرد من التعليم لعدم وجود مدارس أخرى في تلك المناطق. أما الجيل الجديد من الكُرد الذي تمكّن من دخول المدراس، فقد تم تحويلهم منذ اليوم الأول إلى أتراك. كما تم منع اللغة الكُردية في المحاكم، ما جعل الكُرد غير قادرين على الدفاع عن أنفسهم.

هكذا أصبح الأتــراك، منذ تلك اللحظة، هم المسؤولين

الحكوميين الجدد في المناطق الكُردية. فالمتقدم للحصول على مجرد وظيفة عادية كان يخضع أيضاً لإجراءات تدقيق صارمة: يتم رفض المتقدم لمجرد الشك في تعاطفه مع القومية الكُردية. كما تم التلاعب بترشيحات الكُرد في الانتخابات البرلمانية لعام ١٩٢٣. وتم حذف مصطلح كُردستان من جميع الكتب والمراسلات الحكومية وبدأت عملية تغيير أسماء الجغرافيا الكُردية.

ثورة الشيخ سعيد

لم تمض سوى سنوات قليلة حتى تلاشت معظم الأسباب التي امتلكها الكُرد يوماً ما للقتال جنباً إلى جنب مع الكماليين في حرب الاستقلال. لكن إلغاء الخلافة في عام ١٩٢٤ وبداية العلمانية كان أقسى من كل الإجراءات المعادية للكُرد، إذ إنه وجه ضربة قاصمة للرابط الإيديولوجي بين الكُرد والأتراك. وتسبب،على الأقل، باندلاع أول انتفاضة في وجه الكمالية الجديدة في عام ١٩٢٥ في شكل انتفاضة شعبية إلى حدٍ ما.

كانت هذه الانتفاضة تحت قيادة رجل الدين الشيخ سعيد. رغم الحكم عليه بالإعدام بعد عدة أشهر على بدء الانتفاضة بتهمة المطالبة بإقامة كُردستان المستقلة، إلا أنه لم يكن يطالب بدولة مستقلة للكُرد. فقد كان الشيخ سعيد رجلاً متديناً للغاية. واعتبر إلغاء الخلافة هجوماً مباشراً ضد الإسلام، فأقسم على مقاومة علمانية تركيا.

كان المخطط الأصلي للانتفاضة يهدف إلى تحقيق كُردستان

مستقلة، لكن الشيخ سعيد لم يكن هو العقل المدبّر لها، بل مجموعة من المثقفين الكُرد، بمن فيهم ضباط كُرد كانوا قد نظموا أنفسهم في حركة سرية سُميت آزادي (حرية)، لمقاومة التدابير المعادية للكُرد المتخذة من قبل حكومة مصطفى كمال الجديدة. فطلبوا المساعدة، بهدف توسيع القاعدة الشعبية للانتفاضة، من عدد من الشيوخ المتنفذين الذين كانت لهم السلطة والهيبة، اللتان لا يتمتع بهما المثقفون، بين الناس العاديين.

أحست حكومة أنقرة بخطط حركة آزادي، فتم اعتقال معظم القادة العسكريين للحركة، الأمر الذي دفع الآخرين إلى التراجع. وبالتالي بقي الشيوخ هم أهم القادة والأكثر تحمساً. لم تكن مشاركتهم منذ البداية نضالاً من أجل كُردستان مستقلة بل من أجل «إنقاذ الدين». وبهذا عرف الشيخ سعيد ورجاله كيف يحفّزون جموعاً هائلة من الكُرد للانضمام إلى الانتفاضة: فالكُرد كانوا يبجلون الخلافة دائماً ويعتبرون السلطان كخليفة للنبي محمد.

إذاً، كانت الانتفاضة الشعبية الكُردية حقيقة. لم يكن حجم الدافع الديني الذي من أجله ثار الشيوخ وبقية المنتفضين، الفلاحين على وجه الخصوص، واضحاً في الخطابات الحماسية التي كان يلقيها الشيوخ قبل بدء الانتفاضة فحسب، بل أيضاً في الرموز التي استخدمها المنتفضون خلال التمرد؛ فقد كانوا يلوحون بالقرآن ويحملون الأعلام الإسلامية ويطلقون الشعارات الدينية.

على الرغم من الوعود الكثيرة التي حملتها انطلاقة انتفاضة

شباط ١٩٢٥، إلا أنها انتهت بسرعة: فقد قام الجيش التركي بقمع هذه الانتفاضة في آذار ١٩٢٥، باستخدام ليس القوات البرية فقط، بل أيضاً بالقصف الجوي. لقد بدا بأن الكثير من المقاتلين الكُرد قد أُصيبوا بصدمة عنيفة عند مشاهدتهم الطائرات، لأنهم لم يكونوا قد سمعوا بها قط من قبل. وهكذا تم القبض على الشيخ سعيد في منتصف نيسان وفي نهاية حزيران ١٩٢٥ تم إعدامه مع عدد من قادة الانتفاضة في دياربكر على مرأى ومسمع من الناس.

لا يعتقد البروفيسور هوورد إيسينستات بأن الشيخ سعيد وأنصاره كانوا يتوقعون أبداً أن يكون رد فعل الحكومة التركية الجديدة بهذه الصورة العنيفة. إذ إنه في العهد العثماني، أي عندما كانت المنطقة الكُردية محكومة من قبل زعماء القبائل والإقطاعيين المحليين، كان العنف يشكل غالباً عتبة نحوعلاقات سياسية جديدة أو تحالفات تقوم على قاعدة الاحترام المتبادل. 'لكن تلك الأيام ولّت إلى غير رجعة' بحسب تعبير إيسينستات.

لقد أضحى النهج الجديد واضحاً ليس فقط من خلال القمع الشديد للانتفاضة، بل أيضاً، من خلال الإجراءات التي اتخذتها الحكومة لاحقاً لوأد أي تمرد جديد في مهده. فقد حظرت الحكومة كل التشكيلات الصوفية الدينية التي كان ينتمي إليها الشيخ سعيد وأنصاره، بالإضافة إلى أيّ نشاطات لها صلة بالثقافة الكُردية. لقد تم استثمار انتفاضة الشيخ سعيد، من قبل أول رئيس لتركيا يمضي باتجاه الدكتاتورية مصطفى كمال، في تعويم العلمانية والقومية التركية.

وهكذا خسر الكُرد خلال خمس أو ست سنوات ليس فقط الوطن القومي الكامن، بل أيضاً الحق في الإفصاح عن هويتهم الكُردية على أرضهم التي يعيشون عليها.

لكن هذه الحقيقة السياسية لا تعني على الإطلاق أن كُردستان غير موجودة. بالنسبة إلى الناس الذين يعيشون هنا، كُردستان هي حقيقة مستمرة عبر أجيال مديدة. إذا تابعت المسألة الكُردية عن بُعد، وعلى الخصوص الأخبار السياسية وأخبار العنف، سيبدو لك بأن كُردستان هي عبارة عن فكرة مشحونة، يدور حولها صراع سياسي مستمر ذو حساسية دائمة. لكنَّ من يزُر البلاد يُلاحظ بأن الأمر مختلف تماماً.

لنأخذ، على سبيل المثال، سكان قريتَي كول يازي وأورتاسو الذين يعانون بشدة سياسة القمع التي تمارسها الدولة التركية؛ كل ما يطالبون به هو العدل والعيش بسلام وسكينة، لكنهم في الوقت نفسه منشغلون بالعناية بعوائلهم وليس بنشاطات أخرى. كُردستان هي جزء طبيعي من حياتهم اليومية. فهي المجال الذي يقومون فيه بأعمالهم ويزورون عوائلهم، وسابقاً كانوا يقومون بالتسوق في الطرف الآخر من الجبال الذي سمي مصادفةً بالعراق.

إن تقسيم أرضهم على مر التاريخ بين أربع دول، لا يغير في حقيقة إن الكُرد مازالوا يعيشون هنا. كما أن تغيير أسماء قراهم ومدنهم إلى التركية لا يعني أنهم لم يعودوا موجودين فيها. كما لا يعني تعذّر الوصول إلى الكثير من المراعي الصيفية في أعالي الجبال، بأن تاريخهم

لم يعش في هذه الحقول.

كُردستان بالنسبة إلى الكُرد، كسكان قريتي كول يازي وأورتاسو، ليست مجرد تعبير، أوسياسة، بل حقيقة ثابتة. لا تتركز اهتماماتهم على رسم الحدود الرسمية لوطنهم. صحيح أن هذا التوق موجود فهو يظهر في العيون التي تشع عند السؤال عن هذا الموضوع، فلا يوجد كُردي واحد لا يفرح بشدة بهذا الإنجاز، لكن الدولة المستقلة بالنسبة إليهم ليست هي ما تدور حوله كل الأمور. فالمهم بالنسبة إليهم هو السعي للاعتراف بأن الكُرد موجودون منذ زمن بعيد، وأنهم وثقافتهم ولغتهم جزء لا يتجزأ من وطنهم.

في وداع القرية

زرت في اليوم الأول لوجودي في قرية كول يازي المقبرة أيضاً. ذهبنا إلى هناك مع مجموعة من الناس بواسطة باص صغير. يمكننا القيام بذلك مشياً على الأقدام أيضاً لكن الطريق يتحول صعوداً، بالإضافة إلى أننا في الشتاء وبالتالي لن يكون المشي سهلاً في ظروفٍ كهذه. عند منتصف النهار أرسلتُ تقريراً إخبارياً إلى وكالة الأنباء الهولندية (ANP) في لاهاي: أقارب ضحايا القصف يرفضون التعويض الذي عرضته الحكومة. جاء في التقرير (يختلف قليلاً عن الأصلي):

أقارب الضحايا الكُرد يرفضون التعويض

كول يازي – لا يفكر أقارب الـ ٣٤ ولداً ورجلاً الذين قُتلوا الأسبوع الماضي في القصف الذي قام به الجيش التركي، في قبول أي تعويض من الحكومة. فقد كان رئيس الوزراء أردوغان قد أعلن يوم الثلاثاء قرار الحكومة بأنها ستقوم خلال أيام معدودة بتعويض عائلات الذين قُتلوا نتيجة القصف أثناء القيام بالتهريب على الحدود مع العراق. تقول زاهدة إينجو، والدة أصلان ابن الـ ١٥ ربيعاً الذي قُتل أثناء القصف: 'قطّعون ابني أشلاء ومن ثم تأتون بالنقود؟ نحن لا نريد مالاً، نريد قبل كل شيء معرفة الحقيقة'.

لم ينتهِ الحداد بعد في قرية كول يازي؛ القرية التي ينتمي إليها ٢٥ ضحية من أصل ٣٤. التسعة الباقون هم من أبناء قرية أورتاسو التي تقع على مقربة منها وكلتا القريتين تقعان في منطقة أولوديري.

تريد وزارة الداخلية التركية دفع تعويض مقداره ٢٠ ألف ليرة تركية عن كل ضحية، أي ما يعادل ٨٠٠٠ يورو. يقول ثروت إينجو الذي نجا من القصف: 'تعلم الحكومة بأن الناس هنا فقراء، لذلك تعتقد بأنها بالتعويض المالي تستطيع تسوية كل شيء، لكن هذا الحل ليس فعالاً. أفضّل أكل العشب على أن أقبل هذا التعويض من الحكومة'. لدى زاهدة (٤٥ سنة) ستة أولاد، اثنان منهم ذكور. الأكبر يبلغ من العمر ٢٦ سنة، انفجر به لغم أرضي قبل ثماني سنوات عندما كان ذاهباً لجمع الحطب ومنذ ذلك الوقت لم يعد قادراً على إعالة العائلة. أما الابن الأصغر، أصلان، فقد قُتل أثناء القصف. 'من أين نستطيع العيش؟ لا أدري. لكن لا، لم أتوان ثانية واحدة في رفض عرض أردوغان بشأن

التعويض. أنا أثق بأن الله سيساعدنا'.

يقول القرويون بأنهم لا يثقون بأي لجنة تحقيق تركية ويطالبون بأن تقوم لجنة حقوق الإنسان التابعة للاتحاد الأوروبي بتولي التحقيق. لكن الكثيرين يخشون أن لا تسمح السلطات التركية بتحقيق مستقل كهذا.

ما حدث بالضبط في الأسبوع الماضي يبقى لغزاً. فالحكومة التركية متشبثة في الوقت الحالي بأنه 'حادث غير مقصود' وتعد بتحقيق جذري، لكن القرويين لا يثقون بذلك. يقول ثروت إنجو، الناجي من القصف: 'الكل يعرف بأننا نعمل في التهريب، بمن فيهم الشرطة وقوات الأمن. إلى درجة أن مختار القرية كان يتلقى اتصالاً من الجيش في حال وجود خطة لعملية جوية أو برية في منطقة التهريب، لكي يحذرنا من الذهاب في ذلك اليوم. كانت الحالة في الأشهر الأخيرة هادئة على الطرقات بحيث كنا نذهب مجموعات أكبر مع عدد أكبر من البغال. فجأة ونحن عائدون أصبحت كل الطرق مسدودة وتم قصفنا'.

تكسب العائلة الواحدة من التهريب حوالى ٦٠٠ إلى ٧٠٠ ليرة في الشهر. وهو مبلغ كاف للمعيشة في القرية. فرص العمل الأخرى هنا شبه معدومة: أجزاء كبيرة من المحافظة هي منطقة عسكرية محظورة أو مليئة بالألغام بحيث يستحيل رعي الأغنام فيها. ليست هناك أية مصانع. يساعد الأولاد 'حالما يقوى عودهم' على كسب لقمة عيش العائلة – لذلك تجد أيضاً أولاداً في سن ١٣ أو ١٤ يشاركون في

التهريب.

كم هي مفارقة مثيرة للسخرية أن ينخفض العمر الذي يبدأ به الأولاد بالتهريب. إذ إن الطفل سنان (٨ سنوات) سيشارك الأسبوع المقبل، عندما ينتهي الحداد، لأول مرة بأخذ مكان أخيه الذي توفي، سيفان(١٣سنة). ساعتان للوصول إلى الحدود ومثلهما للعودة. هل يستطيع تحمّل ذلك؟يقول سنان: 'في طريق الذهاب أستطيع الركوب على أحد البغال'. (وكالة الأنباء *ANP*، ٤ كانون الثاني ٢٠١٢)

كانت سميرة (١٧ سنة) وشقيقها سيفان معنا عندما ذهبنا إلى المقبرة. تأثرت كثيراً بقصتهما، لأنهما كانا ساكتين في ذلك اليوم، ففي الوقت الذي كان البقية لايؤجلون سرد قصتهم. كانت سميرة وسيفان جالسين وحدهما. وعندما كنتُ أوجه إليهما سؤالاً، كانا يجيبان همساً وقبل أن تكمل الشابة كلامها كان الكبار يقاطعونها ويستلمون الحديث.

في المقبرة اقتربت مني سميرة وصرنا نمشي معاً. شعرتُ بالرغبة في ضمها بقوة، فقد بدت كحمامة مكسورة الجناحين. لكني احتفظت بهذا الشعور في داخلي لأنني لست متأكدة فيما إذا كان هذا التصرف مقبولاً في هذه المنطقة أو لا. لذلك مسدت كتفها، ووضعت يدي على خدها وصرت أحدق إلى وجهها. في المقبرة جلست سميرة ساكتة بجانب قبر شقيقها. وبدأت تدندن ببعض سور القرآن التي تساعدها على تحمّل عزاء الفقيد.

أربع وثلاثون كومة ترابية على سفح تلة. أشرقت الشمس على الجبال المحيطة بنا والمكسوة بطبقة رقيقة من الثلوج. قدماي بين

القبور ونظري مشدودٌ باتجاه المنطقة التي شهدت سقوط هؤلاء الضحايا. على كل قبر هناك حجر مكتوب عليه اسم الضحية بلون أسود نازف. وكل منها مسور بأحجار فضية ومزين بورود صناعية من مختلف الألوان، أبيض، أصفر لماع، وردي، أحمر، برتقالي. الكثير من حجارة القبورملفوف بكوفية منسوجة من ألوان كُردية، أحمر وأخضر وأصفر. بجانب بعض القبور توجد رسائل، كما هو الحال عند قبر بلال إينجو (١٥ سنة): ’ ذهب من أجل كومبيوتر‘.

إنها واحدة من قصص التهريب اليومية. كان بلال يعمل في التهريب من أجل شراء كومبيوتر. لاحقاً سمعت قصصاً مماثلة. جمال إينجو، على سبيل مثال، عمل في التهريب من أجل توفيربعض النقود لتسديد قسط مطعم المدرسة البالغ حوالى ١٦ ليرة (٧يورو). أما سيرهات إينجو(١٧ سنة) فقد عمل في التهريب لكي يوفر بعض النقود ويشتري بها حجراً يضعه على قبرأمه التي توفيت قبل سنتين. كانوا في كل رحلة تهريب، كما أخبروني، يربحون ما بين ٥٠ – ٨٠ ليرة أي حوالى ٢٠ – ٣٠ يورو. هذا يعني أن شراء كومبيوتر يحتاج إلى ١٠ – ١٥ سفرة. أما شراء حذاء جديد أو معطف شتوي فيحتاج إلى أقل من ذلك؛ كل هذه الأشياء تعتبر هنا «كماليات». بعضهم يقوم بالتهريب من أجل ذلك، والبعض الآخر من أجل تأمين لقمة العيش اليومية.

في المقبرة تحدثت مع أوزر آوريك (١٩ سنة) الذي ترعرع في قرية كول يازي وهو الآن طالب سياحة في أنطاليا (جنوب تركيا). يقول أوزر: ’أنا أيضاً عملت في التهريب، خصوصاً عندما كنت في سن

١٣ – ١٦. بعدها لم يعد لدي وقت كافٍ، فقد كان عليّ التحضير لامتحان القبول في الجامعة. منذ أن بدأت الدراسة في الجامعة، كنت أقوم بالتهريب فقط عند حضوري إلى القرية، وذلك من أجل توفير بعض المال الذي أحتاج إليه في دراستي. كنت مضطراً للقيام بذلك لأن أهلي غير قادرين على دفع مصاريف الجامعة'.

مازال أوزر يجد في الرحلة ما يثيره. حيث يقول:'نحن معرضون لإطلاق نار من قبل العساكر، فهم يعلمون تماماً بالتهريب الذي يجري ويسمحون بذلك لأنهم يعرفون بأننا لا نملك مصدر دخل آخر، لكنهم أحياناً يطلقون علينا النار، من حسن حظي لم أصب قط'.

يقول ثروت إينجو، الناجي من القصف، بأن عددهم في تلك الرحلة كان قليلاً نسبياً. 'في الأشهر الأخيرة لم تكن هناك مشكلات تُذكر مع العساكر، لذلك كنا نذهب أكثر وبأعداد أكبر. أحياناً ٥٠ – ٦٠ شخصاً مع العدد نفسه من البغال'. مع الوقت يتضح لي أكثر كيف أن عمل الأولاد في التهريب في هذا الجزء من تركيا هو أمر عادي جداً. ففي الوقت الذي يقوم الأولاد في هولندا بتوزيع الجرائد، يعمل الأولاد في هذا الجزء من تركيا في التهريب. إنه عمل شاق وخطر وغير قانوني، لكنه الوحيد المتوافر.

أضف إلى ذلك أن الأولاد هنا يتحولون إلى بالغين بسرعة غير عادية: فبالنسبة إليهم تنتهي مرحلة الطفولة عند وصولهم إلى سن الـ١٢. حيث بعدها يحملون مع الأهل أعباء العائلة، الذكور يحملون العبء المالي، والإناث الأعباء المنزلية. هكذا تجري الأمور هنا منذ

قرون، فالعادات هنا متجذرة، وهي تحوّل البالغين أيضاً إلى عُجّز بسرعة هائلة. وجوه متجعدة وأجساد صلبة تجعلهم يبدون أكبر من أعمارهم الحقيقية بعشر سنوات. الأجيال تتقدم بسرعة. فعلى سبيل المثال، قد تجد هنا أباً في الثلاثينيات ولديه ولد في العشرين، وجدة في الأربعينيات من العمر.

أنا الآن في بيت ثروت إنجو وقد قارب حلول المغرب، منشغلة في كتابة قصة الأولاد الذين يعملون في التهريب لكي أرسلها إلى الجريدة الشبابية ٧ أيام. يحول ضعف شبكة الانترنيت التي أستخدمها دون إرسالها، لذلك أحضر لي أحدهم لابتوب أسرع يعمل على شبكة أقوى. الغرفة حارة ومكتظة، بشكل رئيس بالنساء اللواتي قدمن خصوصاً من محافظة حكاري المجاورة للقيام بواجب التعزية. فهذا القصف لم يصب فقط عوائل الضحايا أو القرى، وإنما كامل المجتمع الكُردي.

ألا تشعرين بالجوع؟ سألتني سيدة المنزل وأنا منهمكة بالكتابة. ’تفضلي، هذه كأس شاي‘ ثم وضعت بجانبه صحناً من الطعام، أرز مع حمّص ودجاج.

شعرتُ كأنني مثل ’صحفي رحال‘عندما أعلنّا في الساعة الرابعة والنصف أننا يجب أن ننطلق مباشرة إذا ما أردنا الوصول إلى شرنك هذه الليلة. هذا الصحفي هو من النوع الذي يسافر إلى تلك الأماكن، فقط من أجل كتابة عدة قصص سريعة (مثل الانتخابات أو الكوارث)، ولا يعرف الوضع على أرض الواقع، لكنه لا يعتبر ذلك عائقاً أمام

مهمته. ميزة هذا النوع من العمل الصحفي هو أنه يتعرف إلى الحقائق، لكن بشكل سطحي، وبالتالي لا تغوص القصص التي يقدمها هذا الصحفي إلى أبعد من الظاهر.

تشاورت مع بيدة التي توجهت بدورها إلى ثروت إنجو وسألته: هل يمكنها العودة إلى هنا في وقت لاحق من السنة والبقاء فترة أطول؟ هل هناك من لديه استعداد لاستقبالها في القرية؟ لست مضطراً للرد الآن، أضافت بيدة، فكّر في الأمر وسوف نتواصل لاحقاً. لكن ثروت قاطعها مباشرة: أنا على استعداد لاستقبالها دائماً، ما أحتاج إليه هو معرفة توقيت وصولها، وبيتي مفتوح لها دائماً.

تبادلنا أرقام التلفونات وقمنا، بيدة وعزيز وأنا، بوداع أهل القرية. حيث صافحنا الرجال بحرارة، أما النساء فلم يكتفين بتقبيلنا من الوجنتين بل قمن بضمنا أيضاً. لقد حذرونا بأنه في هذا الوقت ليست هناك باصات تسير من القرية إلى شرنك، لكننا مع ذلك غامرنا بأننا لا بد أن نجد وسيلة نقل عابرة على الطريق العام. انتعلنا أحذيتنا من جديد وسرنا عبر الوحول الممتزجة بالثلوج باتجاه الطريق العام.

لم يخطر ببالي حينذاك، بأنني سوف أعود مرة أخرى إلى هذه المنطقة، لمقابلة هؤلاء الناس؛ وبأن مأساة القصف لن تفارقني طالما لم أتوصل إلى معرفة ماذا حدث بالضبط، وقبل كل شيء دافع القصف. لم أتصور حينذاك بأنها شدتني بشكل محكم إلى قراءة التاريخ الكُردي، بحثاً عن المقاربات والخلفيات. وكيف أن رحلة البحث دفعتني إلى التفكير في نفسي ومهنتي: لماذا أقوم بذلك وكيف سأقوم بذلك

كصحفية؟ كما أنني لم أدرك أن الحادثة ستكون موضوعاً لكتاب، لأن القصف في أولوديري يجسد في الواقع القضية الكُردية ضمن كيلومتر مربع واحد.

لا أدري بالضبط كم استغرقت رحلة العودة إلى شرنك؛ حيث بقينا ننتظر على الطريق لكن لم يمر أيّ باص، فقررنا أن نستخدم أسلوب الأوتوستوب. كان الظلام قد حل عندما توقفت أول شاحنة. بذلنا جهداً كبيراً لإقناع الرجال الثلاثة الجالسين في الشاحنة لكي يقبلوا نقلنا معهم. ولم نجد الأمر مزعجاً أن نصعد في المقطورة الخلفية. لدينا قبعات ومعاطف دافئة وكوفيات. فنحن مصرون على العودة إلى شرنك في تلك الليلة، وهي ليست بعيدة كثيراً على ما أعتقد؟ بابتسامة وهزة رأس تسلقنا المقطورة.

جلسنا محشورين في زاوية المقطورة، وتقاسمنا الكوفيات والقبعات والكفوف المتوافرة بحيث نشعر كلنا بالدفء الممكن ونحتمي من الريح الشديدة والمطبات على الطريق. ثلاث ساعات من معاناة الاهتزاز والمنعطفات خلال الليل. الجبال سوداء كالفحم، لكن في الأفق البعيد تضيء القمم الثلجية الواضحة في السماء المرصعة بالنجوم. هناك على الجبال أضواء المخافر العسكرية.

أردت سؤال عزيز عن موقع العراق وسوريا من الطريق، لكنني فضّلت السكوت لأن الوقت غير مناسب. نحن في قلب كُردستان.

الفصل الثالث

الناس

'بنج' قالتها سيدة متوسطة في العمر تجلس بجانبي، وهي ترفع يدها عالياً مفردة أصابعها. مسحت دموعها بطرف منديلها الأبيض وهي تتمايل بجذعها إلى الأمام والخلف. بنج بالكُردية يعني خمسة. وهي تشير بذلك إلى الأولاد الخمسة لأوصمان قبلان (٣٤ سنة) الذي فقد حياته في عملية القصف في أولوديري.

لا أعرف بالضبط حتى الآن من تكون هذه المرأة ذات الشعر الطويل والجسم النحيل والعينين البنيتين الفاتحتين. لكن هذا ليس أمراً مهماً في هذه اللحظات. فهي حزينة جداً لذلك أمسكت بيدها. بجانبها تجلس بكيزا (٢٨ سنة) أرملة عصمان. تبدو منهارة تماماً وهي تقدم الشاي.

نحن الآن في نهاية شهر نيسان ٢٠١٢ وأنا عدتُ من جديد إلى قرية كول يازي. خلال الأشهر الماضية كنت قد تواصلت مع ثروت إينجو، الذي كان مهتماً بتأمين إقامتي في القرية عدة أسابيع في هذه الزيارة. لكن قبل ثلاثة أسابيع من مجيئي فقدت التواصل معه؛ تلفونه خارج الخدمة. لكن سرعان ما اتضح السبب: فقد أفادت منظمة حقوق

الإنسان (MazlumDer) بأنه غادر مع عائلته إلى إقليم كُردستان في شمال العراق.

يبدو أن السبب وراء مغادرته هو شعوره بالخطر: فقد تكلّم بشكل علني عن القصف فقامت السلطات بترهيبه لإجباره على السكوت. شخصياً لا أستطيع التحقق من صحة هذا الأمرعن بُعد، لكن موضوع فراره هو حقيقة وأصدقه دون تردد. وإلا فلماذا إذاً، لا يرد على المكالمات طوال هذه الأيام؟ أضف إلى ذلك الصدقية العالية التي تتمتع بها منظمة (MazlumDer)، حيث كانت من أوائل الذين وصلوا إلى القرية في صبيحة اليوم التالي للقصف لمعاينة الظروف، بالإضافة إلى علاقاتها الواسعة مع السكان المحليين.

كان هذا الانقطاع في التواصل مع ثروت سبباً في إعادة التفكير في مسألة عودتي إلى كول يازي. إذ لا يمكنني زيارة القرية والبقاء فيها عدة أسابيع دون تأمين ذلك مسبقاً. صحيح أنه بإمكاني التواصل مع أناس آخرين من القرية، لكن هل يا ترى يصح أن أطلب بنفسي الإقامة عند هذه العائلة أو تلك؟ أشعر بأن ذلك نوع من التطفّل.

بصراحة كنت محتارة قليلاً حول الهدف من زيارتي. لماذا أريد الذهاب إلى هناك؟ ما الذي أرغب في اكتشافه؟ هل يخدم ذلك في شيء؟ ثم إن هذا الكتاب لم يكن مخططاً له، كما أن خلفية هذه الدراما لا تهم كثيراً قرّاء الصحافة الهولندية – أي إنها بعيدة عن اهتماماتهم. هل أقوم بذلك إرضاءً لفضولي؟ هل هذه أسباب كافية لاقتحام الحياة الخاصة لأهل القرية؟

العودة إلى كول يازي

ومع ذلك قررت الذهاب إلى هناك. ببساطة لأن هذه المجزرة لم تغادر تفكيري؛ فالروح الصحفية التي تسكنني شدتني إلى كول يازي. الكل في الساحة السياسية في تركيا يتكلم عن الحدث، لكن نادراً ما استمع أحد إلى صوت أهالي الضحايا وسكان القرية. ربما لن أستطيع إيصال مقالاتي حول هذا الموضوع إلى مواقع كثيرة، لكن أستطيع الكتابة حول هذه المأساة على موقعي الالكتروني، الذي يستقطب عدداً معقولاً من القراء. في هذه الأثناء تمت ترجمة بعض كتاباتي في هذه المدونة إلى اللغة التركية، وهي طريقة ربما أستطيع من خلالها المساعدة على تصويب الأخبارغير الدقيقة.

وقد اتضح مدى الحاجة إلى هذا العمل خلال زيارتي الأولى، بعد القصف مباشرة. إذ إن أكثر قصة كانت قد شدت انتباهي في الصحافة قبل زيارتي للقرية هو هجوم سكان القرية على قائممقام منطقة أولوديري نايف يافوس. فقد كان القائممقام، المعيّن من قبل حكومة حزب العدالة والتنمية المنتمي إليه، قد جاء لتقديم تعازيه لأقارب الضحايا، لكنه كاد يُقتل على يد مجموعة من أهل القرية.

ثمة مقطع فيديو متوافر على الانترنيت يُظهر العراك العنيف. حيث الشارع العام وإلى جانبه النهر المنحدر، والقائممقام وهو يركض بجانب الطريق ويحاول حماية نفسه من رجال يدفعونه ويشدونه، محاولين ضربه وهم يصرخون بوجهه. إنهم يدفعون يافوس بشكل

قوي بحيث لم يعد أمامه إلا الخروج عن الطريق والركض في الأوحال والهرب إلى الأسفل باتجاه النهر. ثم تبعه إلى الأسفل بعض الرجال الغاضبين. لكن المقطع المصور ينتهي قبل أن يتم بطريقة أو بأخرى إنقاذه. فقد تبين لاحقاً بأنه نقُل في سيارة الإسعاف إلى المستشفى، لإصابته بجروح في الرأس والوجه.

على أثر ذلك بدأت الجرائد التركية تنفث عبارات النار والدم، وهي تشير بحزم إلى رجل واحد : حسيب قبلان، عضو البرلمان عن حزب BDP المناصر للكُرد؛ إذ تم تفسير تحذير قبلان لأعضاء حزب العدالة والتنمية بعدم الذهاب إلى قريتي كول يازي وأورتاسو، على أنه تحريض على الانتقام. قامت وكالة الأناضول للأنباء، التي تديرها الدولة، بزيارة القائممقام في المشفى وأجرت معه لقاءً، نشره (العديد) من الصحف التركية. قال فيها يافوس بأن من اعتدوا عليه لم يكونوا من أهل القرية، بل 'محرضين' استقدموا إلى القرية خصوصاً من أجل التحريض على الانتقام.

بإضافة هذا التصريح إلى تحذير قبلان، تصبح القصة بالنسبة إلى الصحافة التركية كاملة على هذا النحو: أتى القائممقام لتعزية الأقارب، لكن حسيب قبلان دعا – رغم كونها دعوة غير مباشرة– إلى الانتقام، والحركة الكُردية أرسلت مجموعات بلطجية من خارج القرية.

خلال زيارتي الأولى إلى كول يازي دار نقاش حول حادث الاعتداء على يافوس. فعندما كنا واقفين بجانب الطريق العام، قال أحد

شباب القرية وهو يشير إلى السفح النازل باتجاه النهر، موجهاً سؤاله إلي: ’هل شاهدتِ مقطع الفيديو الخاص بالقائممقام؟‘ استرجعت مشاهد الفيلم وتذكرت السفح وأجبته:’ نعم شاهدت الفيلم‘. وسألته ’هل هذا هو المكان؟ هل كنتَ هنا؟ فأجاب بأنه كان موجوداً حينذاك وشرح كيف حدث ذلك: انظري، من هناك جاء القائممقام وفي ذلك الاتجاه ركض. قلت له: ’لقد قرأت مقابلة القائممقام التي قال فيها بأن من اعتدى عليه هم أناس من خارج القرية‘. عند سماع الشاب هذا الكلام رفع يديه في الهواء مستغرباً وقال: ’من خارج القرية؟ حقاً!. لقد كنا نحن، أنا كنت واحداً منهم. ثم كيف له أن يميّز سكان القرية وهو لم يقم بزيارة القرية قط ولا يقدم لها أي شيء؟ ويأتي بعد عدة أيام على المجزرة، بناءً على طلب حزبه، ليقدم انطباعاً جيداً؟! فليغرب عن وجهنا!

من يجب عليّ أن أصدق، هذا الشاب أم القائممقام؟ لماذا سيعترف الشاب بأنه شارك في الهجوم العنيف على القائممقام إذا لم يكن مشاركاً؟ لقد سألت بعض أهالي القرية عن سبب ادعاء القائممقام بأن الناس الذين تهجموا عليه كانوا من خارج القرية. فكان جوابهم واحداً وثابتاً: «لو قام القائممقام بالتشهير بأناس من منطقته، فإنه لن يتمكن من الآن فصاعداً من زيارة القرية».

سألت بعض الشباب، كيف استطاع القائممقام النجاة. فقد عاينتُ الآن المكان على أرض الواقع ورأيتُ مدى صعوبة النجاة من الهجوم.

’يعود الفضل في ذلك إلى حسيب قبلان‘ قال الشاب الذي اعترف لي سابقاً باشتراكه في الهجوم، والذي طلب عدم ذكر اسمه. شخصياً لم أكن أعلم أن قبلان كان هنا حينذاك. وأردف الشاب وهو يشير إلى منطقة لم تظهر في مقطع الفيديو ’كان قبلان واقفاً هناك ويحمل مكبّر صوت وصرخ بوجوب التوقف عن ذلك‘. يحظى أعضاء حزب BDP بالاحترام الكبير هنا، خصوصاً قبلان السياسي المخضرم الذي يمثل ولاية شرنك التي تضم منطقة أولوديري، في البرلمان.

بعد عدة أشهر أخبرني فاروق إنجو، الذي لم يبلغ العشرين من العمر: ’كنتُ حينذاك أحمل بيدي زجاجة بنزين ومتأهباً لإشعالها ورميها على القائممقام. وفي اللحظة التي أخرجتُ الشعالة من جيبي، فجأة أمسك حسيب بيدي بشدة، وبفضله لم أرم الزجاجة. لو تم ذلك لكان عملاً أهوج، لكن الحزن الشديد كان قد أفقدني السيطرة على نفسي‘.

بعد يومين على حادثة الهجوم على يافوس، كتبت بعض الجرائد عن الحادثة مرة أخرى: تم القبض على ستة شباب من قرية كول يازي بتهمة الاعتداء على القائممقام. خمسة منهم ينحدرون من عائلة إنجو(من ضمنهم فاروق)، وقد فقدوا ٣ أولاد أعمام في القصف. إذن لا صحة لمقولة ’محرضين من الخارج‘. كما أن الجرائد لم تذكر بأن حسيب قبلان هو من أنقذ القائممقام.

إقامتي عند بكيزا، الأم والأرملة ذات الـ (٢٨ عاماً)

إنني عائدة إلى كول يازي لمتابعة الكتابة، لكن أيضاً لكي أعرف المزيد عن خلفية القرية وعملية القصف؛ فالكثير مما أقرأه وأسمعه في الإعلام، لا أستطيع تقويمه وهذا ما لا أقدر على تحمّله. لذلك سأذهب إلى هناك، هذه المرة وحدي. الشخص الوحيد الذي أخبرته بقدومي هو عرفان، رجل أعمال وعضو في حزب الـ BDP، في الأربعين من عمره، طويل القامة ويرتدي لباساً عصرياً. ’أخبريني عند وصولك إلى هنا وأنا أتكفل باستقبالك‘ هذا ما كان قد قاله لي.

إنها نهاية نيسان وقد لبست الوديان، التي أصادفها في طريقي، ثوباً أخضر، والأنهار والجداول تتدفق بغزارة أكبر نتيجة ذوبان الثلوج على الجبال. عندما نزلت من الباص الصغير في كول يازي، ومع خفوت صوت الباص المغادر، لم أعد أسمع شيئاً سوى صوت خرير الجداول اللطيف المتناهي من قرية أورتاسو. هناك بعض الأولاد الذين يلعبون في الساحة بين بقالتين. اتصلت بعرفان فأرسل أحدهم لاصطحابي.

دخلنا القرية عبر الطريق الذي يمر خلف صالة الرياضة، بمحاذاة الجامع، بانعطافة نحو اليسار وباتجاه الأعلى. عبرنا القرية بسرعة. مررنا بجانب المقبرة، التي لا يمكن رؤيتها من الطريق لكن ذلك واضح على لوحة مكتوبة. يصعد الطريق ملتوياً إلى الأعلى، حيث يقع الجزء الثاني من كول يازي. المنظر خلاب: في الأسفل الوادي بلونه الربيعي

الأخضر، وفي الأعلى الجبال بحلتها الخضراءالمزينة ببقع بيضاء من الثلج المتناثرة على السفوح.

إنها المرة الأولى التي ألحظ وجود موقع عسكري على الجهة الأخرى من الوادي؛ على اليمين بمواجهة القرية قبالة سفح الجبل. يضم هذا الموقع منصة طائرات هيليكوبتر؛ وقد انطلقت تواً طائرة باتجاه الحدود العراقية.

بدأت المنطقة السكنية تظهر أمامنا من جديد؛ البيوت أولاً ثم ساحة صغيرة تضم مقهى انترنيت ودكاناً صغيراً. تابعنا سيرنا باتجاه الأعلى على طريق نصف معبّدة لنصل إلى مقربة من مجموعة بيوت حيث ركنا السيارة جانباً. ثم انعطفنا مشياً على الأقدام إلى اليمين، حيث ينتظرنا عرفان أمام بيته الجديد. فرحب بي: ’أهلاً وسهلاً، هل أنتِ جائعة؟ تفضلي أولاً هذه كأس من الشاي‘.

لم تمر ساعة من الوقت حتى أدركتُ أن هناك سوء فهم قد حصل خلال تواصلنا. جلستُ على الأرض في ضيافة عرفان وثلاثة رجال. يتحدثون في السياسة أو الأحرى في التاريخ باللغة التركية وبلكنة كُردية سريعة يصعب اللحاق بها؛ كانت بمثابة حلقة دراسية مكثفة عن التاريخ السياسي الكُردي ونحن نستمتع بتناول الغداء التي أعدته زوجة عرفان. ’أهلاً وسهلاً بكِ، يمكنك البقاء قدر ما ترغبين‘ يقول عرفان.

يبدو أن عرفان يعتقد أنني أنا التي طلبتُ الإقامة في منزله، وأنني أود الإقامة في واحد من أفخم بيوت القرية لمعاينة الحياة اليومية فيها، وأنني أفضّل التحدث إلى رجال مهمّين. ضحكتُ بشدة في أعماقي،

وفي الوقت نفسه أجهد نفسي بمحاولات لم تجدِ نفعاً في متابعة الحوار. أحياناً أتفوه ببعض الجمل الصغيرة التي لا معنى لها أخمّن أنها تمت بصلة إلى ما يتحدث عنه الرجال، من قبيل: ' لم أكن أعرف ذلك'. 'يا إلهي، أمر مثير للاهتمام'. 'معك حق تماماً'.

بعد الانتهاء من شرب الشاي، ومغادرة الرجال، وضّحتُ لعرفان بأنني لم أحضر إلى هنا للإقامة عند عائلته. وبأن الاتفاق كان أن أقيم عند ثروت إنجو، لكنه لم يعد في القرية. لذلك تمنيت عليه أن يساعدني، باعتباره يعمل في السياسة ويعرف مجتمع القرية جيداً، على تأمين إقامتي في مكان آخر. قلتُ له: 'أود أن أرى كيف غيّر القصف حياة المتضررين منه'، شرحت له بأن ما أقصده هو'عامة الناس في هذه القرية'.

فكّر عرفان في الأمر بضع دقائق وأجرى اتصالاً ثم خرجنا إلى الطريق. عند الساحة الصغيرة للقرية التي تضم مقهى انترنيت ودكاناً صغيراً، مشينا صعوداً نحو اليمين وسرنا باتجاه الأعلى بين البيوت على طريق صغير زلق. بدأ الناس، الذين يقومون بنشر الغسيل أو يشربون الشاي على أسطح منازلهم، برصدنا بشكل فضولي. هناك دجاجات في الجوار، وماعزعلى أحد الأسطح. بدأ الطريق بالانعطاف باتجاه اليمين وانتهى عند منزلٍ تبين فيما بعد أنه المقصود.

هناك رجلٌ يعمل بجانب المنزل قام بالترحيب بنا. يبدو في نهاية الثلاثين من عمره، أشقر ويرتدي لباساً أخضر مرقطاً، عادة ما يلبسه حراس القرية؛ معلومة سمعت بها لاحقاً. صعدنا إلى الشرفة

البيتونية للبيت، عرّف بنفسه بأنه يدعى محمد، وأحضر بعض الكراسي البلاستيكية. هناك أطفال يلعبون حولنا لكن دون أي ازعاج وينظرون إليّ ويبتسمون خجلاً. تقدمت سيدة من داخل المنزل وقدمت الشاي وهي تقول: ‘هل تناولتم طعاماً أم ليس بعد؟‘.

تركت عرفان يتحدث، وأسمعه يكلمهم عني، وبأنني كنت سابقاً قد زرت القرية، وعن دوافع الزيارة. لقد تبين أن لمحمد زوجة أخ فقدت زوجها في القصف تدعى بكيزا، تبلغ من العمر ٢٨ عاماً وهي أم لخمسة أطفال. وزوجها أوصمان قبلان، الذي هو الأخ الصغير لمحمد، كان في الرابعة والثلاثين عندما توفي نتيجة القصف. يقع بيت بكيزا على مسافة بيتين من هذا المكان. أشار محمد إلى ممر ضيق بجانب بيته. هناك على الجهة اليسرى منزل، حيث تعيش فيه عائلة أيضاً، وفي الجهة الخلفية منه، عند النهاية الأخرى للممر، هناك منزل آخر، حيث تعيش فيه بكيزا. قرر محمد بأنه يمكنني الإقامة عندها.

هكذا انطلقنا إلى هناك مباشرة. سحبت خلفي حقيبتي ذات الدواليب وأنا أشعر بعدم الارتياح، إذ إن الرجال هم من قرروا ذلك دون أخذ رأي بكيزا. هل لديها استعداد لاستقبال ضيف؟ أليس الوقت غير مناسب، حيث لم يمض على وفاة زوجها سوى ٤ أشهر؟ لكن بكيزا لم تنزعج من تصرف محمد وعرفان في إحضارهما ضيفاً غريباً. رحبت بي بخجل، أو الأحرى بابتسامة متواضعة. وأزاحت جانباً

الستارة البيضاء التي في المدخل لكي تفسح لي الطريق للدخول إلى المنزل. كان عليّ الانحناء قليلاً حتى لا يصطدم رأسي بالعارضة.

هناك في مدخل منزل بكيزا بعض الأدوات المنزلية: براد كبير، وبجانبه موقد غاز وغسالة فوقها قطعة قماش أرجوانية لماعة. إلى اليسار غرفة المعيشة ذات باب خشبي متهرئ ودهان أزرق متقفع. وعلى حافته العلوية هناك علاقة معدنية بسيطة للملابس. وعلى موقد الحطب ثمة إبريق شاي يغلي، وعلى الأرض وسائد مسطحة بمحاذاة الجدران ووسائد متينة ومدورة تستخدم مساند للظهر. في الزاوية خزانة صغيرة مع تلفزيون، لكنه معطّل. ويوجد في الغرفة «مأخذ» وحيد للكهرباء وهو محترق ومسود اللون ومعطل أيضاً.

لا تقع المرافق الصحية (المطبخ والمرحاض والحمام) ضمن المنزل، بل في الممر بين البيوت التي مررنا بها، إذ كنت قد رأيت ثلاثة أبواب خشبية. خلف الباب الأول ثمة خزان ماء كبير كما في الكثير من البيوت التركية، رُكبت عليه حنفية وتوصيلة: الماء الحار هنا متوافر بشكل دائم تقريباً. بجانب الخزان هناك قطعة صابون وحوض معدني، وخرطوم ماء موصول إلى الماء البارد. إذا أردت الاستحمام، عليك خلط ماء الخزان مع الماء البارد في الحوض ومن ثم صبه على جسمك.

الباب المجاور هو المرحاض؛ من الطراز التقليدي الشرقي، وهو المستخدم هنا. يحتوي على خرطوم أصفر موصول إلى حنفية الماء من أجل الاغتسال والتنظيف. بجانب ذلك هناك حيز آخر يتضمن

خزان ماء حار وخرطوماً للماء البارد: إنه المطبخ. تستخدم عائلتان هذه المرافق.

كل أرضيات هذه المرافق الصحية وجدرانها مبنية من بيتون خام، وهناك بعض المسامير المثبتة على الحائط تُستخدم لتعليق الأغراض. في كل من هذه المرافق هناك لمبة كهربائية مدلاة من السقف ومثبتة بطريقة عشوائية. وعلى خزان الماء في المطبخ هناك معجون أسنان ومشط، ولا وجود لمرآة. وليس هناك توصيل إلى شبكة المياه العامة: الحنفيات متصلة بشبكة مياه مصدرها نبع في أعلى القرية. وهو نظيف وصالح للشرب، على الأقل هذا ما أراه يستعملونه هنا، وهذا ما أقوم به أيضاً، وأتمنى أن يكون كذلك.

دخل ولد أشقر إلى البيت ونظر إلي بشكل غير أليف. فقلت له «هويي» بالهولندية، ضحك وخرج راكضاً. إنه محمود (٥سنوات) الولد الأصغر لبكيزا وأوصمان. في ظهيرة هذا اليوم تعرفت إلى بقية الأولاد. أوزكان (١١ سنة) وهو الأكبر: وهو أشقر غامق وينظر إلي وهو غارق في التفكير. إسرى (١٠ سنوات): شعرها أسود طويل وله تسريحة جديلة الحصان، ذات نظرات ذكية. سينام (٩ سنوات): شعرها طويل مجعد وبجديلة. ذات إطلالة ناعمة وخجولة نوعاً ما. هوليا (٧سنوات): شعرها كثيف ومربوط على شكل غابة وذات عينين جارحتين.

وفي اليوم نفسه أطلقت على الصغيرمحمود لقب سعدان: فهو يقفز في أرجاء البيت ويتسلق كل مكان، وله وجه صغير صفيق وشعر

مشذب. نتيجة لعدم وجود ألعاب، يتعربش على باب غرفة الجلوس ويحدث حفيفاً جيئة وذهاباً، وفي الخارج يتسلق الشجر ويصعد أكتاف الناس، ويحاول تسلق الدعامات الخشبية التي تحمل الشرفة. وعندما يمر بجانبي أمسك به بقوة وانظر إليه وأقول: 'هاي، سعدان'. فينظر إلي ويرد: 'سع– دان'. يبدو أنه سحرني.

هناك في الكومودينا التي تحت التلفاز صورة لأوصمان بجانب باقة من زهور صناعية وردية وصفراء. يبدو فيها أوصمان بشعر قصير أشقر فاتح ومجعد، ووجه صغير وبشوش، وبيده الرفش. الصورة مأخوذة عندما كان يعمل بجانب الجدول حيث كانت العائلة حينذاك تزرع الخضار. يظهر في الصورة وهو ينظر إلى الأعلى باتجاه الكاميرا.

لجنة التحقيق البرلمانية

بعد أيام قليلة على القصف، وبالتحديد في ١١ كانون الثاني ٢٠١٢، قام البرلمان التركي بتشكيل لجنة للتحقيق في الحادث. وهي مجموعة فرعية من لجنة برلمانية ثابتة مختصة بحقوق الإنسان. ضمت اللجنة ثمانية أعضاء: إحسان شينار(رئيساً)، ومحمد كريم يلدز، وحمزة داغ، وعبدالرحيم آكداغ، وكولسن آورهان (الخمسة من الحزب الحاكم)، وليفينت كوك (من الحزب الجمهوري المعارض CHP) وإرطغرل كوركجو(من حزب BDP المناصر للكُرد) وآنيلا كايا (من الحزب القومي المتطرف MHP).

إن لجنة مؤلفة من ٥ أعضاء من الحزب الحاكم و٣ من المعارضة، أمر لا يبشر بالخير. فقد اتفقت اللجنة على اتباع مبدأ الأكثرية في ممارسة عملها وكذلك في إقرار التقرير النهائي.

تم في هذه الأثناء ختم العديد من الوثائق الحاسمة بـ«سري» ما يعني أن اللجنة لن تتمكن من الاطلاع عليها. كما تم استثناء صنّاع القرار السياسي والعسكري في المراتب العليا من مقابلة اللجنة.

كل هذه الإجراءات تشير إلى أن مهمة اللجنة هي إخراج رئيس الوزراء أردوغان والقادة العسكريين من دائرة الحدث، أكثر من سعيها إلى كشف الحقيقة. إن الخشية والقلق يكمنان في الثقل الكبير للحزب الحاكم في 'لجنة أولوديري' وفي كون رئيس اللجنة من الحزب نفسه.

لكن ما هي الأسئلة التي أثارها القصف؟ هذا ما يقدمه بشكل كافٍ تقرير مشترك لمنظمتين مستقلتين تعملان في مجال حقوق الانسان (MazlumDer وIHD). فقد قامتا بزيارة ميدانية واستكشفتا مكان القصف بعد يوم من وقوعه. في تقريرهما الذي قدمتاه بتاريخ ٣ كانون الثاني ٢٠١٢، طرحتا أسئلة عديدة تهدف إلى الوصول إلى حقيقة الأسباب التي تقف وراء القصف.

لماذا لم يتم إخبار أهل القرية بالعملية الوشيكة ضد الـ PKK كما يحدث عادة؟ هل قدمت طائرات الاستطلاع بدون طيار(درون) معلومات عن نوع الحمولة التي تقوم المجموعة بنقلها وفيما إذا كان أفرادها مدنيين أم لا؟ لماذا لم يتم، بشهادة العديد من الشهود، تقديم

المساعدة الطبية مباشرة بعد القصف بحيث كان ممكناً تقليل عدد الضحايا؟

يتطلب التحقيق الفعال، حسب منظمات حقوق الإنسان، تجميد عمل كل المسؤولين العسكريين والمدنيين إلى حين الانتهاء من التحقيقات. و يجب، بحسب رأيهم، إجراء التحقيق من قبل لجنة حقوق الإنسان في البرلمان. ومن ثم يجب إحضار المتهمين إلى المحاكمة.

تقول منظمتا (IHD) و(MazlumDer) بأنه يجب على الحكومة تحمّل المسؤولية السياسية: يجب على وزير الداخلية تقديم الاستقالة كما تجب إقالة القائد العام للجيش وقادة القوات البرية والجوية. كما تطالب المنظمتان الدولة بالاعتراف بأن ما حدث، هو مجزرة تستوجب تقديم الاعتذار وتعويض أهالي الضحايا.

إن رفض أهالي الضحايا قبول أي تعويض هو أمر له علاقة بطريقة العرض. فقد اعتبروه ثمناً للسكوت أكثر من كونه تعويضاً عن ضرر. لا شك بأن التعويض المادي المتعارف عليه يشمل هذا النوع من الأحداث، لكن يجب أن يترافق مع بعض الشروط: بأن يُظهر الجاني الأسف العميق عن الفعل ويقدم الاعتذار، وبعدها يمكن الحديث عن التعويض المادي. وهذا ما لم يتحقق في هذه الحادثة. ما هو مهم بالنسبة إلى أهالي قريتي كول يازي وأورتاسو، هو كشف ملابسات القصف، بحيث يتم تجنب تكراره. وما يريدونه في نهاية المطاف هو معرفة من الذي أعطى أمر القصف.

لم تطرح لجنة أولو ديري البرلمانية على نفسها أسئلة معينة تخص البحث، بل مجرد هدف هو 'التحقق من الادعاء بمقتل ٣٤ مدنياً'. فقد قام أعضاء اللجنة بزيارة القرية وتحدثوا إلى الناجين والأقارب، وزاروا المواقع العسكرية في المنطقة للتحدث مع القادة المحليين ومحاولة الحصول على معلومات رسمية. لكن لم ينجحوا في هذه الأخيرة لأن كل الوثائق الحاسمة تم ختمها بـ «سري».

في منتصف شهر شباط قامت اللجنة، بعيداً عن الأنظار وفي غرف مغلقة، بمشاهدة الصور التي التقطتها طائرات الاستطلاع بدون طيار (درون) في ليلة الحادث. إذ يحق للطيران التركي التحليق لمسافة ٥ كم داخل الأراضي العراقية الحدودية. أراد أرطغرل كوركجو، عضو اللجنة، مشاهدة الصور الملتقطة من قبل الأميركان، لكن طلبه قوبل بالرفض من قبل الأكثرية، والسبب المقدم هو: ربما قامت القوى الأجنبية بالتلاعب بالصور، الأمر الذي قد يقود إلى تضليل في المعلومات. وصف أرطغرل لاحقاً، عملية مشاهدة الصور التي التقطتها طائرات الاستطلاع بالتجربة المؤلمة. حيث قال: 'من خلال الصور يتبين بوضوح أنها ليست تحركات مسلحين، بل مجموعة أشخاص غير منظمين، ليس هناك أي انضباط عسكري، بل عبارة عن قافلة'.

كانت الصورمأخوذة بواسطة كاميرات حرارية، أي لا تتضمن تفاصيل، لكن يمكن للمرء أن يتبين الأشياء من بعضها: أي يمكن تمييز الناس من الحيوانات، كما يمكن رؤية الحمولات التي على ظهر

البغال. يقول كوركجو: ’بالإضافة إلى وجود أعضاء اللجنة كان هناك عدد من الخبراء لمساعدتنا على تفسير الصور، لكن وجودهم لم يكن ضرورياً، فالصور واضحة بشكل كافٍ‘.

إن المعلومات التي قدمتها طائرات الاستطلاع تُضعف على أقل تقدير رواية الحكومة القائمة على أن المجزرة عبارة عن حادث غير مقصود. لسبب أولي وهو ذهاب وعودة المجموعة مع بغالهم من تركيا إلى العراق في المسار نفسه، ما يعني أنها ليست مناورة منطقية تقوم بها عادة مجموعة تمرد مقاتلة، وهو أمر لا بد أن يكون معروفاً للجيش من خلال خبرة ٣٠ عاماً من القتال ضد الـ PKK.

تم نقل البضاعة في العراق من الشاحنات إلى ظهور عشرات البغال. يقول كوركجو: ’الحمولة كانت بيضاء، أي باردة، ولم يكن لها شكل الأسلحة، بل صناديق مستطيلة‘. صحيح أن الـ PKK ينقل أسلحته أحياناً على ظهور البغال، لكن ليس بهذه الكميات الكبيرة دفعة واحدة. فضلاً عن ذلك لايتم التحميل والنقل على مستوى مرتفع ومرئي لطائرات الاستطلاع.

لم يستطع كوركجو نسيان مشاهد مقطع الفيديو الخاص بأول قذيفة، وبالنسبة إليّ أيضاً استقرت في شبكية العين، رغم أنني لم أرها قط، حيث يصف كوركجو ذلك: ’لو كانت المجموعة من عناصر الكريللا، لكانوا انتشروا في المكان وبحثوا عن مخابئ للتقليل من الخسائر البشرية. أما ما قامت به هذه المجموعة فهو العكس: زحفوا

بعضهم باتجاه بعض، وأمسكوا بعضهم بعضاً بقوة، ولم يختبئوا. كانوا خائفين. كان أغلبهم أولاداً'.

في مطلع نيسان ٢٠١٢ أعلن رئيس اللجنة إحسان شينار بأن التقرير سيكون جاهزاً في نهاية الشهر. فقد صرّح للصحافة التركية: 'نحن فقط بانتظار تقرير وزارة الداخلية'. أما نائب رئيس الوزراء، بولينت آريج، فإنه لم ينتظر انتهاء التحقيقات، فقد كان أعلن في ١ آذار بأن ما حدث في أولوديري 'لم يكن عملاً مقصوداً'.

الثلاثينيات: مجازر ديرسيم

لكن ماذا لو كان القصف مقصوداً؟ إن المعلومات التي جمعتها حتى الآن، تجعل ادعاء الحكومة بأنه حادث غير مقصود، رواية فاقدة للصدقية. لكنني وجدت بأن إعلان ذلك هو فكرة غير صحيحة، إذ لا أستطيع تصوّر قيام الدولة بقتل مدنيين دون دافع. إذاً، أية أسباب تكمن وراء هذا الفعل؟

عندما أطرح هذا السؤال على سكان كول يازي، غالباً ما أسمع الجواب التالي: 'لأننا كُرد'.

لا يقدم هذا الجواب تفسيراً دقيقاً لما حدث في تلك الليلة. لكنني أتفهم هذا الرد جيداً. 'لأننا كُرد' كدافع وحيد للقتل، هو ليس جواب أهل كول يازي فقط بل جواب الكثير من الكُرد الذين قمت بسؤالهم أيضاً، في أماكن أخرى من المنطقة . وعندما أتبع ذلك بأسئلة من

قبيل: لماذا تلك الليلة؟ لماذا هذه المنطقة؟ لماذا هؤلاء المهربون؟ فلا أسمع أي رد غير رفع الأكتاف. أو يقال بأنه يجب كشف الحقائق بشكل مفصل ودقيق، لكن الهوية الكُردية للضحايا هي جوهر المسألة. إنهم يعرفون الدولة بشكل كافٍ.

إن النص المكتوب على اللافتة التي رأيتها في زيارتي الأولى لقرية كول يازي، واضح للغاية في دلالته: فهو يشير إلى 'ديرسيم ١٩٣٨' التي تُعتبر أكبرعملية تدمير للكُرد في التاريخ التركي، كانت تلك هي المرة الأخيرة التي تمردت فيها العشائر الكُردية التقليدية والزعماء الدينيين ضد الدولة التركية.

يقول يقظان توركيلماز، الباحث في الأنثروبولوجيا والأستاذ الجامعي في جامعة دووك في مدينة دورهم في الولايات المتحدة الأميركية: 'ما عليكِ سوى الاستماع إلى الأغاني'. فقد أرسل لي بعض الروابط التي تتضمن أغاني قديمة من مدينة ديرسيم. 'أتينا بأسلحتنا وسلمناها وسلمنا أنفسنا.(...) فقاموا بجمعنا وأركعونا وذبحونا، وتركوا أجسادنا وجثثنا في العراء تحت الشمس. لماذا حياتنا في كيرمانجي رخيصة إلى هذا الحد؟' كيرمانجي هي الاسم المحلي للمنطقة.

يضيف يقظان: 'لستُ بحاجة للأرشيف لمعرفة ماذا حصل في ديرسيم، ما حدث هناك هو الآتي: لقد حاول الناس بكل الوسائل تجنب المجازر، لكن لم يكن هناك مفر من ذلك'. بالمناسبة يجب أن

لا نعتقد بأنه يعتمد في تقويمه على الأغاني فقط: تورك يلماز يتحدث التركية والكُردية والأرمنية، ويستطيع قراءة اللغة العثمانية والفرنسية. فقد قام ببحوث كثيرة في الأرشيف عن كيفية تحوّل الأناضول إلى تركيّة في السنوات الأخيرة من عمر الإمبراطورية العثمانية والعقود الأولى من الجمهورية، حتى عام ١٩٣٨، أي السنة التي انتهت فيها عمليات ديرسيم. فهو يسمي مذابح ديرسيم إبادة بكل صراحة. والأغاني التي تروي تلك القصة، واقعية وأصيلة.

تقوم الرواية التركية الرسمية على أن ديرسيم كانت بحاجة إلى «المدنيّة». والمقصود هنا طبعاً هو الحضارة التركية، التي لم تكن وفقاً للمبادئ الكمالية متوافرة في ديرسيم، لأن المنطقة كانت تُدار عادة من قبل زعماء تقليديين: شيوخ القبائل ومن يُسمون بالـ 'بيرس'، أي حكماء لهم مواقع حيادية بين القبائل.

إن عدم خضوع ديرسيم للحكومة المركزية هو حقيقة وحالة كان مستمراً منذ قرون. كانت المناطق الكُردية، وكذلك ديرسيم، منذ القرن السادس عشر تابعة للإمبراطورية العثمانية، لكن معظمها كان له وضع خاص معترف به رسمياً: كانوا يتمتعون بحكم ذاتي. كانت هذه الاستقلالية توفر لهم حقوقاً أكثر من مجرد تلك الحرية النسبية والمحدودة التي كانت تتمتع بها بقية المجتمعات الموجودة ضمن الإمبراطورية في مقابل الأكثرية المسلمة السنية: فالكُرد كانوا يديرون

شؤونهم بأنفسهم، لم يكونوا يدفعون الضريبة، ولم يكونوا يرسلون أولادهم للخدمة في الجيش العثماني. إنه اتفاق يصب في مصلحة السلطان أيضاً، فالمتاعب ستكون أكبر بكثير في حال الاحتفاظ بكل هذه القبائل والعشائر المختلفة التي تتبدل ولاءاتها بشكل مستمر ومتناقض.

بدأت العلاقة بين الإمبراطورية والمناطق الكُردية بالتغيّر بدءاً من منتصف القرن التاسع عشر. إذ إن الإمبراطورية كانت حينذاك قد فقدت العديد من المناطق وفي محاولة لإيقاف هذا التدهور، تقرّر تطبيق مبدأ مركزية الحكم. أراد السلطان وضع حد للحرية النسبية التي تتمتع بها المجتمعات غير المسلمة التي كانت تمتلك، على سبيل المثال، حق تطبيق نظامها القضائي الخاص بكل منها، وكذلك إخضاع المناطق الكُردية بشكل كامل للسلطة المركزية.

فبدأت في عام ١٨٣٠ حملات عسكرية في المنطقة الكُردية، وتم بالتدريج وباستخدام العنف وضع منطقة تلو الأخرى تحت السيطرة. كانت آخرها منطقة حكاري التي سقطت بين ١٨٥٠ – ١٨٦٠. لكن بقيت ديرسيم ومناطق أخرى أصغرعصيّة على السيطرة. ربما بسبب الصعوبة في مواجهة العدد الكبير للعشائر المختلفة. فالمنطقة ذات كثافة سكانية عالية وموزّعة على عدد لا يُحصى من القرى الموجودة في منطقة وعرة، ما جعل العمليات العسكرية في ذلك الوقت معقدة

جداً. أو ربما لأن هذه المناطق كانت أقل أهمية: إذ إن ديرسيم تقع في الوسط وليست على الحدود الضعيفة للإمبراطورية، مثل حكاري.

منذ ذلك الوقت وحتى تاريخ تأسيس الجمهورية التركية في عام ١٩٢٣، تم القيام بعدد من العمليات العسكرية ضد ديرسيم من أجل وضعها تحت السيطرة، لكن جميعها باءت بالفشل. بعد عام ١٩٢٣، كان إخضاع مناطق في الشرق والجنوب الشرقي هو الأولوية: منذ هذا التاريخ وحتى الأربعينيات من القرن الماضي كانت الحروب مستمرة في هذه المناطق. ووقعت الكثيرمن الانتفاضات و«الهجمات الحضارية»، مثل كوجغري وهازرو وزيلان وآرارات، التي بقيت غيرمعروفة تقريباً، إلى درجة أن بعضها لم يتم التحقيق فيها قط. كانت القوة العسكرية للجيش دائماً كبيرة للغاية وكانت الخسائر والعواقب على الطرف الكُردي مأسوية.

كانت منطقة ديرسيم هي واحدة من المناطق الكبيرة المتبقية التي لا تزال السلطة فيها في أيدي القبائل الكُردية، والتي لم تكن تدفع الضريبة للدولة وترفض إرسال شبابها للخدمة العسكرية. في هذا السياق، يقول يقطان تورك يلماز: ’ربما كانت جغرافية ديرسيم تجعلها صعبة الوصول، لكن سكانها سمعوا بما حدث في أماكن أخرى من البلاد- وبالذي جرى للأرمن. فشعروا بشكل كافٍ بأن الدور قد أتى عليهم‘.

استسلام سيد رضا

وفقاً لوثائق قامت بنشرها جريدة راديكال في نهاية تشرين ٢٠١١، والتي كانت سرية حينذاك، بدأت التحضيرات للقيام بعملية عسكرية في ١٩٣٣، وهي عبارة عن خطة عمل وُضعت من قبل القيادة العليا للشرطة العسكرية، حيث تضمنت مقترحات لإنهاء حالة «الطاعة الناقصة» لديرسيم.

تبع ذلك اتخاذ خطوات تدريجية لوضع إطار قانوني يشرّعن ويبررالتدخل في ديرسيم.

تم البدء بذلك في عام ١٩٣٤ بـسن «قانون إعادة التوطين»، الذي طُبق على كامل تركيا. والذي نص على توزيع الكُرد- الذين تم وصفهم بدقة بـ«شعب يتطلب صهره في الثقافة التركية»- على مختلف أرجاء البلاد. كما تجب إعادة توطين الناس من ذوي الثقافة التركية، في مناطق يقل وجودهم فيها. بعبارة أخرى: يجب نقل الأتراك إلى المناطق الكُردية، وترحيل الكُرد من مناطقهم الأصلية. بالإضافة إلى ذلك تم إعلان بعض المناطق على أنها غير صالحة للسكن، وبالتالي تم إخلاؤها من الناس.

كما نص القانون على إسقاط حقوق ملكية الأملاك غير المنقولة لزعماء العشائر و القادة الدينيين. بعد نزع الملكية يكون هؤلاء الزعماء أول من يجب عليهم مغادرة مناطقهم الأصلية. وهي إشارة واضحة بأن الخطة هنا هي لقطع التواصل بين الزعماء ومجتمعاتهم، بحيث

لن يعودوا قادرين على استخدام سلطتهم في تعبئة رعاياهم للانتفاض ضد الجمهورية. أخيراً، نص القانون على حظر أيّ رابطة أو مجموعة، بما فيها النقابات والنوادي الثقافية، لا تتكلم الأكثرية فيها اللغة التركية.

تبع ذلك بعد سنة صدور «قانون تونجالي» الذي صوّر المنطقة بأنها «منطقة مريضة تحتاج إلى عملية». فتم تغيير اسم ديرسيم إلى تونجالي وفرضت عليها الأحكام العرفية. فقد مُنح الحاكم العسكري صلاحيات اعتقال الناس وترحيلهم. وبدأت تدابير تحضير القوات في المنطقة، بالإضافة إلى بناء الطرق والجسور اللازمة للتحركات العسكرية. في عام ١٩٣٦ صرّح أتاتورك في البرلمان بأن ديرسيم كانت «أكبر مشكلة داخلية في تركيا».

يقول يقطان تورك يلماز: 'قام زعماء القبائل البارزون، مثل سيد رضا، بفعل كل شيء من أجل تجنب المصير المميت، إلى درجة تسليم أسلحتهم، وأنفسهم أيضاً. لكن كل ذلك لم يجد نفعاً، فقد واجهوا ذلك المصير'.

نفذ الجيش الاقتحام. حيث تم إخلاء القرى وتسويتها بالأرض، لم يكن الرجال والنساء والأطفال، الكبار والصغار، بمأمن من سفك الدماء. تنوعت طرائق «إدخال المدنيّة إلى ديرسيم» بين القتل والغرق والحرق حياً والاختناق في المغاور والقصف من الجو. بالمناسبة شارك في القصف أول امرأة تقود طائرة مقاتلة في العالم، هي صبيحة كوكتشان(ابنة أتاتورك بالتبني). لاحقاً سُمي المطار الثاني في إسطنبول

باسمها. بالمناسبة، وأنا أدخل أرض هذا المطار وأرى صورتها وصورة أتاتورك، لم أستطع الهروب من تذكّر ديرسيم.

في تشرين الأول ١٩٣٧، استسلم سبعة من قادة الكُرد، وكان بينهم سيد رضا. تم الحكم على سيد رضا بالموت وتم إعدامه بتاريخ ١٥ تشرين الثاني ١٩٣٧، كما كلف استسلام بقية القادة أيضاً حياتهم. كانت بمثابة حملة تنظيف، قبل زيارة أتاتورك للمنطقة بتاريخ ١٧ تشرين الثاني لمعاينة تطورات 'الهجوم الحضاري'.

بعد انقضاء الشتاء، حيث كانت المنطقة مغلقة تقريباً، استمرت العملية العسكرية بكل طاقتها. حتى القبائل التي كانت موالية للدولة أو التي استسلمت كان عليها دعم العملية. من جديد تم قتل رجال ونساء وأطفال وكبار السن بالعشرات وأحياناً بالمئات. كان الجيش يكتب التقارير بكل فخر عن عدد 'العصابات' التي تمت 'تصفيتها'.

كان عدد سكان ديرسيم في ذلك الوقت يراوح بين ٦٥- ٧٠ ألف نسمة، والتقديرات تفيد بسقوط ما بين ٢٠ - ٣٠ ألف ضحية جراء العمليات العسكرية. كما تم إكراه الناجين على النزوح إلى مناطق أخرى من تركيا.

يقول تورك يلماز في معرض رده على الكثير ممن يقتنعون بأن عمليات ديرسيم كانت رد فعل على تمرد: 'لم يكن هناك أي تمرد. بل على العكس، قام الزعماء بفعل كل شيء يُثبت خضوعهم للدولة في سبيل إنقاذ المدنيين. كانوا يعرفون بأن الجمهورية لا تقبل

التفاوض. عندما بدأ العنف، قاوموا بكل ما يملكون من قوة، قاتلوا دفاعاً عن النفس. لكن فرصهم كانت معدومة وسرعان ما أيقنوا ذلك'.
يعتبرالكُرد سيد رضا بطل ديرسيم. فهو قائد تمرد أسطوري استحق تمثالاً في مدينة ديرسيم. لكن سيد رضا لم يكن قائد تمرد، بل قائد مقاومة.

قامت جريدة راديكال بإجراء بحث عميق في أرشيف البرلمان التركي للاطلاع على رد فعل قادة الدولة حينذاك على هذه العملية.

بتاريخ ١ تشرين الثاني ١٩٣٨، أي قبل تسعة أيام من وفاة مصطفى كمال أتاتورك، قرأ رئيس الوزراء جلال بيار كلمة أمام البرلمان نيابة عن أتاتورك، الذي كان مريضاً ولم يتمكن من الحضور، قال فيها:'إن انتشارعمليات القرصنة على نطاق واسع في تونجالي، واستمرارها سنوات وتطورها مع الزمن بنسب مخيفة، قد تمت تصفيتها في وقت قياسي من خلال جهود مبذولة ضمن إطار برنامج محدد، بطريقة دخلت التاريخ بأن أحداثاً كهذه لن تتكرر في المنطقة أبداً'. تذكر التقارير أن هذا الكلام قوبل بصيحات البرافو والتصفيق في البرلمان.

أما رئيس الوزراء عصمت إينونو فقد كان قد تحدث في البرلمان في أيلول ١٩٣٧، بعد أول عملية في ديرسيم، عن ٦ عشائر كانت حسب رأيه هي التي كانت تقاوم 'التطوير وإعادة التأهيل' التي تقوم بها الجمهورية: 'اليوم تم القضاء بشكل تام على إمكانية قيام زعماء هذه العشائر ورجالهم بأي فعل مهما بلغ عددهم'.

كان أعضاء البرلمان يقاطعون كلامه بالتصفيق بشكل متكرر. تابع إينونو: ’تعامل عناصر الجيش والدرك الذين جابهوا المتمردين بالسلاح، بالرغم من تسلحهم الفعال جداً واستعدادهم لاستخدام أسلحتهم، برحمة كبيرة للغاية من شأنها الحفاظ على حياة الكل وحمايتهم‘.

بقيت ديرسيم حتى عام ١٩٤٧ مغلقة وخاضعة للأحكام العرفية. كما كانت كل تركيا حتى شرق ملاطية منطقة محظورة على الأجانب.

تعلم اللغة الكُردية

أمضيتُ ظهيرة يومي الأول في كول يازي مع هوليا وسينام وإسرى. أما أوزكان فقد ذهب إلى مقهى الانترنيت، ومحمود يلعب في الخارج. البنات الثلاث يذهبن إلى المدرسة، لكن نظراً إلى كون عدد الأطفال كبيراً للغاية ولقلة المدرسين والصفوف، كما هو الحال في الكثير من مناطق تركيا وكذلك في حي أوسكودار الذي أسكنه في إسطنبول، فإن الأطفال يذهبون فقط في الصباح إلى المدرسة، أي وفق نظام الورديات.

أرتني البنات كتبهن المدرسية. إنها السنة الأولى لـ هوليا في المدرسة وهي تتعلم القراءة. اقتربت وجلست بجانبي وفتحت كتابها وقرأت لي أربع قصص وهي تمرر إصبعها على الكلمات. لا تعير

المضمون والتجويد أي أهمية، مادامت أن قراءة الكلمات صحيحة. تقوم بذلك بشكل ممتاز، وفي حال تعثرها، أتدخل لمساعدتها.

أما إسرى، التي تدرس في الصف الرابع، فلديها وظيفة في مادة اللغة الإنكليزية. تقوم بحل الوظيفة وهي في وضعية نصف جالسة ونصف مستلقية، وعند الحاجة أقوم بمساعدتها أو شرح أمر ما. وهي بذلك تعتقد بأنني أعرف الكثير من الكلمات الإنكليزية. طلبتْ مني ورقة من مفكرتي، رسمت عليها خطاً شاقولياً وسألتني وهي تنظر حولها: 'ما هو... الباب بالإنكليزية؟' وكتبت كلمة باب بالتركية على يسار الخط وأعطتني القلم والورقة فكتبت إلى اليمين كلمة باب بالإنكليزية. هكذا أنشأنا قائمة طويلة من الأشياء اليومية. تنورة، كتاب، شعر، مدرسة، فتاة، ولد، بندورة، خيار، ورق، باذنجان، ملح، مكنسة، بساط، مخدات، شباك، أذن، أنف، فم، وجه. شكل ذلك تحدياً لي بأنها فرصة رائعة لزيادة معرفتي المحدودة بالمفردات الكُردية. وكذلك لإجراء اختبار: كم هو التوافق بين المفردات الكُردية المستخدمة هنا مع ما تعلمته في إسطنبول؟

قد يعتقد المرء أن جميع الكُرد يتكلمون اللغة الكُردية نفسها، لكن الأمر ليس بهذه البساطة. هناك أربع لهجات كُردية: الكرمانجي، والصوراني، والزازائي، والكوراني. يتكلم معظم الكُرد تقريباً في تركيا (وفي جزء غير صغير من العراق) الكرمانجي. أما الزازائية فهي مستخدمة في جزء صغير، خصوصاً المحافظات الشمالية: ديرسيم/ تونجالي وإلـزاه. والصورانية مستخدمة في العراق. والكورانية

مستخدمة على نطاق ضيق، في الجزء الجنوبي لكُردستان، خصوصاً من قبل كُرد إيران.

فضلاً عن ذلك، فقد تطورت الكرمانجية بحد ذاتها في كل منطقة بشكل مختلف. الاختلافات ليست كبيرة، وهي واضحة أكثر في اللكنة، وبشكل أقل في الكلمات (ففي دياربكر يلفظون أربعة 'جار'، أما في المحافظة المجاورة فيلفظونها 'جور') وفي بعض الحالات بشكل مختلف تماماً.

إن الكرمانجية التي أتعلمها في إسطبنول، والتي سوف أسميها للسهولة بالكُردية مثلما يسميها الكل هنا، هي 'الكُردية الأكاديمية'. وهي الكُردية في شكلها الصافي قدر المستطاع أي التي تمّت تنقيتها من التأثير الكبير للتركية في القرن الماضي. الملاحظ هنا: هو أن الكُردية الأكاديمية في حالة اضمحلال نتيجة سياسة الصهر التي طبقتها تركيا على الحياة اليومية. إذاً، السؤال هو: هل يكفي تعلم اللغة بهذا الشكل في التواصل مع الناس في القرى والمدن في الجنوب الشرقي؟ لتعلم اللغة الأصلية بشكل جيد والتمكن من التحدث مع عامة الكُرد، يحتاج المرء إلى دراسة كل من النسخة الأكاديمية وكذلك تمييز الاختلافات المناطقية بالإضافة إلى تحديد القواعد والمفردات التركية الدخيلة عليها. لكن القول أسهل من الفعل!

في أول درس لي لتعلّم اللغة طمأنني المدرس عبد الرحمن (آبو)، الخمسيني ذو الشارب والشعر الفضي والعينين الأليفتين والذي يرتدي دائماً البنطال الجينز والحذاء الرياضي، قائلاً: اللغة الكُردية

كاللغة الهولندية من اللغات الهندوأوروبية، أما التركية فهي غير ذلك، ما يعني أن تعلم الكُردية بالنسبة لي هو أمر أسهل من تعلم التركية.

مع ذلك كنت قد استعددت للأسوأ. تعلم اللغة من قبل شخص قليل الصبر مثلي قد يؤدي إلى اليأس، هذا ما تعلمته من تجربة سبع سنوات تقريباً حتى تمكنتُ من التحدث بالتركية. ما زاد الأمر صعوبة هو أن الدروس تُعطى باللغة التركية بالإضافة إلى كوني الأجنبية الوحيدة في مجموعة مكونة من ٦ أشخاص.

أما الآخرون فقد كانوا شباباً كُرداً، كان آباؤهم أو أجدادهم قد هاجروا من جنوب شرقي تركيا إلى إسطنبول ولم يتعلموا لغتهم الأم بشكل جيد في مدينة كبيرة مثل إسطنبول. مع انبعاث الوعي الكُردي خلال السنوات الماضية شعروا بالحاجة إلى إتقان لغتهم الأم، المحظورة لأمد طويل، بشكل أفضل.

كانت الدروس تتم في ظهيرة أيام السبت في الطابق السابع من مبنى قديم ليس فيه مصعد، يقع بالقرب من ساحة تقسيم المركزية، وعلى أطراف حي طرابلسي الفقير والقديم، حيث يعيش الكثير من الكُرد منذ تسعينيات القرن الماضي.

كان آبو، مدرس الجغرافيا المتقاعد الذي عمل طوال حياته في المدارس الحكومية، هو من ينظم هذه الدروس. إنها مساهمته في المحافظة على لغته من الزوال. أما قاعة التدريس فهي عبارة عن صالة مقدمة مجاناً من إحدى الجمعيات الكُردية. وتكلفة منهاج المبتدئين هي مبلغ تافه: ما يعادل ١٢٥ يورو ثمناً لـ ١٢ درساً مدة كل منها ٣ ساعات.

بعد الأشهر الثلاثة الأولى أعدت التسجيل في المنهاج نفسه. لم أكن أرى في الدروس إلا الجانب المحزن منها، وكنت أشعر بعدم جاهزيتي للانتقال إلى المنهاج الثاني. المشكلة هي أنني بعد الدرس الرابع سوف أغادر إلى كول يازي وبالتالي لن أتمكن من إنهاء المنهاج. لكن آبو وجد ذلك فرصة ممتازة، وما يقوله صحيح: هناك أستطيع تطبيق ما تعلمته بشكل عملي.

معنى كلمة 'ملح'

قلتُ لإسرى 'بندورة'. وأخذنا ورقة أخرى من مفكرتي ورسمنا عليها خطاً شاقولياً. كان لدي فضول لمعرفة كيف تكتب الكلمات الكُردية. كانت إسرى، حتى تاريخ التحاقها بالمدرسة، تتحدث الكُردية فقط، لكنها لم تتعلم هذه اللغة كتابةً. ففي المدرسة يتم منذ اليوم الأول تلقين التلاميذ اللغة التركية، أما الكُردية فهي ممنوعة. هكذا لا يتعلم الأطفال مثل إسرى الأحرف التي تخص لغتهم وغير الموجودة في اللغة التركية، مثل x, w, q, î, ê, û.

فكّرت إسرى قليلاً ثم كتبت: *bocosehrik*. حسناً، إنها بداية جيدة: فهي لا تشبه أبداً كلمة firingî التي تعلمتها. أما كلمة خيار، فقد كتبتها Gihor. والصحيح هو xiyar، لكنها تلفظها giejar: حرف الـ x في الكُردية يقابله حرف G بالهولندية. كما أنها استبدلت حرف

a بـ o، وهو ما يقوم به الكثير من الكُرد – كثيراً ما يلفظون كُردستان، كُردستون.

الأمر الآخر اللافت هنا هو كتابة كلمة ملح. إسرى أطالت التفكير، فهي لا تعرف كيف تقوم بذلك. أخيراً كتبت gug، لكنها رفعت كتفيها دليلاً على عدم اليقين. لذلك طلبتُ منها أن تلفظها. فكان لفظها مطابقاً للكلمة التي أعرفها: xwê. يستحيل عليها الكتابة باللغة التي تتعلم أحرفها إذ لا تحتوي على أحرف لكتابة هذه الكلمة.

لذلك قررت أن أختار كلمة غير معقدة، كلمة سهلة الكتابة وكل كُردي يعرفها: roj. فهي تعني يوم وكذلك شمس. الشمس مرسومة على العلم الكُردي، وهو اسم القناة التلفزيونية RojTV، الكُردية التي تبث من منطقة بالقرب من بروكسل، والتي تشاهدها كل كُردستان. لذلك سألتُ: ما هي الشمس بالكُردية؟

لكني أُصبت بالدهشة حين صاحت هوليا وهي ترفع أصبعها في الهواء كما تفعل في المدرسة: 'كونيش، تماماً كما في التركية!' هزت إسرى وسينام رأسيهما إشارة على موافقتهما على الجواب. انشدهتُ وصحتُ:'لا، روج!' نظر الثلاثة إليّ باندهاش. سألتهن ألم تسمعن بـ روج؟ روج تي في؟. أعتقد أنكن تعرفن هذا الاسم؟ بالطبع يعرفن ذلك. 'حسناً، هذا هو معنى كلمة شمس!' هنا أدركت أنهم بحاجة إلى التلقين الآلي. صحتُ:'كونيش؟' وهن صرخن: 'روج!' ومع ترديد

كلمة روج كنا نحن الأربع نرفع قبضات أيدينا في الهواء، عشر مرات. وضحكن بفرح كبير، وأنا أنظر إليهن متظاهرة بالصرامة: 'تذكرنها!'

لم أتكلم مع بكيزا في اليوم الأول إلا قليلاً. فهي لم تذهب إلى المدرسة قط ولذلك لم تتعلم التركية. كان تواصلنا محدوداً ببعض الكلمات والجمل الصغيرة التي أعرفها. بعد وجبة الغداء المكونة من الدجاج والأرز والخبز وسلطة لبن مع خيار، أتى بعض الأهالي للتعرّف إليّ. كان الجو حزيناً، قدمت بكيزا الشاي وأنا أمسكت بيد إحدى العجائز التي بدأت تتمايل بجذعها حزناً وتمسح دموعها بطرف وشاح الرأس.

كانت هي أيضاً تتحدث الكُردية فقط، لكن ابنتها خديجة، التي كانت برفقتها تتحدث التركية، ساعدتنا على التواصل. تدعى هذه السيدة بلقيس، تبدو في الخمسينيات من عمرها، لكن لا أعلم بالضبط عمرها الحقيقي. تبين أنها كانت مسؤولة إلى حد كبيرعن تربية أوصمان ومحمد وإخوتهما الثلاثة. فقد كانت قد أخذت على عاتقها تربية الأولاد بعد وفاة والدهم- كان أوصمان حينذاك في الخامسة من عمره. كانت والدة أوصمان قد تزوجت، بعد أن ترملت، من والد بكيزا. فقد كانت الزوجة الثانية لوالد بكيزا، الذي تزوج للمرة الثانية لأنه لم يُرزق من زوجته الأولى إلا البنات. رُزق من أم أوصمان ستة أطفال. كانت رعاية أولاد قبلان كل تلك السنين هي من حصة عمتهم بلقيس. أوصمان ليس الابن الحقيقي لبلقيس، لكنها تشعر في قرارة نفسها أنها أمه.

خفتت بهجة الأطفال التي دامت طوال فترة الظهيرة. إسرى وسينام منشغلتان بالوظائف المدرسية، هوليا ومحمود جالسان متعبين وبوجهين بائسين. أما أوزكـان، الذي ذهب بعد الغداء إلى مقهى الانترنيت، فقد عاد عند المساء إلى البيت.

وعندما غفا الأولاد، جلبت بكيزا بعض فرش النوم من الغرفة الأخرى، ورصفتها على نسق واحد ووضعت الأولاد عليها. أما الأغطية – من النوع العادي غير الثقيل– فقد وضعتها بشكل عرضي لكي تغطي الكل؛ في هذه الحالة لم يلزمها إلا غطاءان. ثم في وقت متأخر من المساء وضعت بكيزا فراشها بجانبهم وتغطت بغطاء ثالث. كما كانت قد أعدت لي سريراً في الغرفة الثانية، على يمين الفسحة الملحقة بالمطبخ عند مدخل البيت. فـراشٌ بسيط غير سميك، وشرشف، وغطاء. كنت متعبة وسرعان ما غفوت.

من هو الكُردي؟

ضحكت بيلكين آياته عندما سألتها من هو في الحقيقة الكُردي. فهي باحثة في علم الاجتماع في جامعة برلين الحرة ومنشغلة (من ضمن مواضيع أخرى) منذ تسعينيات القرن الماضي بالكُرد والهوية. أجابت: 'من هو الكُردي؟ سؤال ليس لدي تعريف قاطع له'، ثم أردفت: 'أو ربما الكُردي هو من يعرّف نفسه على أنه كُردي'.

يُظهرهذا الجواب بدقة موقفها عندما يتم الحديث عن ' شعوب '،

و’أمم‘. فهي تعتبرها بنى اصطناعية. ’حتى ثمانينيات القرن الماضي كان تعريف الشعوب على أنها مجموعات من الناس تشترك في اللغة والثقافة والتاريخ والأسلاف. كان ظهور تعريفات كهذه مترافقاً مع تصاعد النزعة القومية‘. بمعنى آخر: عندما يقتنع المرء بأن شعباً ما يستحق أن تكون له دولته الخاصة، فإنه لن يستطيع التملص من تأطير الشعوب وتعريفها. لقد زادت النزعة القومية من أهمية مفهوم ’الهوية الإثنية‘.

تقول بيليكن بأن هذا التعريف لم يعد منذ أمد بعيد ينطبق على الكُرد. لنأخذ مثلاً اللغة: نتيجةً لسياسة الصهر التي اتبعتها تركيا، هناك الآن الآلاف من الكُرد الذين يتقنون التركية أكثر من لغتهم الأم؛ هل يصح هنا أن نقول بأنهم ليسوا كُرداً؟ التعريف غير كافٍ.

تُعتبرالهوية التركية هي أحد الأمثلة القوية على كيفية بناء الأمم. إذ إنه لم يكن واضحاً مدى التصوّر الذي يمتلكه مؤسس تركيا الحديثة مصطفى كمال لدولة تركيا عندما بدأ في عام ١٩١٩ حرب الاستقلال. لكن وقوع الخيار، بعد عدة سنوات، على تسمية الدولة باسم الجمهورية التركية، ذو دلالة كبيرة. لقد وضعت على الفور باقي المجموعات الإثنية في مكانها.

لتقوية الدولة، استلزم ذلك صوغ وحدة إثنية لم تكن موجودة. هذا الافتقار إلى الوحدة لا يزال واضحاً حتى الآن. أسأل أيّ تركي عن أسلافه. كثيراً ما أقوم بذلك وأتلقى إجابات غريبة. أحد معارفي أسلافه

ألبان ومصريون؛ أعرف فتاة تركيّة لها أصول بلغارية ويونانية ويهودية، هناك أتراك تعود جذورهم إلى جورجيا، سوريا، لبنان،.....الخ.

الأقليات في معاهدة لوزان

لم تكن الدولة في زمن الإمبراطورية العثمانية تهتم كثيراً بالانتماءات الإثنية العرقية، بل كان الدين هو المهم في تحديد الحقوق والواجبات. كان العثمانيون المسلمون هم الحكام وسكان مدن، أما الكُرد فلم يكونوا لا هذا ولا ذاك: كان أغلب الكُرد في ذلك الوقت يعيشون في القرى ولم تكن لهم مراكز قيادية. هذا ما اعتمد عليه أتاتورك عند 'تشكيل' الهوية التركيّة، كما قام بقطع الصلة مع الإسلام. وهو ما ترك الكُرد على الهامش.

منحت معاهدة لوزان ١٩٢٣، التي حلّت بعد حرب الاستقلال التركية محل معاهدة سيفر، الأقليات غير المسلمة، والمقصود بها عملياً اليونانيون والأرمن واليهود (في المعاهدة لم يُذكروا بهذه التسميات الصريحة) وغيرهم، حق إنشاء نظام تعليم خاص بها وحق تعليم أولادهم لغتهم الأم.

أصرت القوى الغربية، التي كانت طرفاً في المفاوضات، على مواد كهذه في المعاهدة، مدفوعة بما تختزنه ذاكرتها،على سبيل المثال، بما جرى للأرمن في الأيام الأخيرة للإمبراطورية العثمانية. كما طالبوا بحقوق باقي الأقليات العرقية واللغوية، لكن هذا الطلب قوبل بالرفض

من قبل الوفد التركي القومي، الذي رأى بأن وحدة سكان الدولة المسلمين هي العمود الفقري للدولة الجديدة.

أما الأقليات المسلمة، مثل الكُرد والعرب والعلويين، فلم يحصلوا على أي اعتراف وبالتالي لم ينالوا أية حقوق بخصوص لغتهم وثقافتهم وطقوسهم الدينية. لاتزال تركيا تطبق بنود الاستثناء المذكورة في المعاهدات الدولية والمتعلقة بحصول المجموعات العرقية واللغوية على حماية وهي بذلك تشير إلى صلاحية معاهدة لوزان.

إن الاطلاع على هذه المعلومات هو أمر مفيد عند الدخول في نقاش مع أيٍّ تركي حول مسألة الأقليات. عندما وصلت إلى تركيا، لم تكن لدي فكرة واضحة عن هذا الأمر، فدخلت في نقاش غير مفهوم مع صديق تركي. إذ إنه تبين فيما بعد بأن كلاً منا له تعريف خاص لـ'الأقلية'. فهو، كبقية الأتراك، قد تعلم حيثيات معاهدة لوزان من المدرسة، لذلك يدافع بشكل قوي بأن كل مسلم، بالتعريف، لا ينتمي إلى مفهوم الأقلية. فالأقليات حسب فهمه هم المسيحيون واليهود.

لقد اتضح بأن هذا الصديق متعصب جداً، ويزعم بأن منح مجتمعات مسلمة حقوق أقليات هو بمثابة تشجيع على اللامساواة. فهو يرى بأن كل مواطني الجمهورية متساوون أمام القانون، وبأن سن قوانين خاصة لمجموعات معينة هو بمثابة تقويض لهذا القانون. كما أنه يجد أن مفاهيم مثل 'أقلية عرقية' هي منتج غربي مستورد، لا يمكن

تطبيقه في تركيا. بل يذهب أبعد من ذلك بقوله: بدون القوى الغربية، التي كانت ولاتزال برأيه ورأي كثير من الأتراك تسعى لإضعاف تركيا وتقسيمها، لم يكن الكُرد قد وصلوا إلى فكرة مقاومة الدولة الموحدة.

بهذه الطريقة تم استثناء الجماعات غير المسلمة (وغير السنية) من الهوية التركية الجديدة والمبجّلة. كانت الإبادة الأرمنية في هذا السياق مقدمة له : تعاون المسلمون الكُرد والأتراك معاً على قتل المسيحيين الأرمن 'الخونة' وطردهم من الأناضول الشرقية.

وأنا أكتب هذه الجملة لم أجد مفراً من تذكّر مقابلة أجريتها قبل عدة سنوات مع المحامية الإسطنبولية فتحية جاتين، التي كتبت كتاباً عن جدتها، هايرانوش، التي نجت من الإبادة الأرمنية في عام ١٩١٥ بعد أن قام عريف في الجيش العثماني بانتزاعها من أمها عندما كان يتم تهجيرهم في قوافل الموت إلى سوريا.

فقد قام هذا العريف وزوجته بتبني هايرانوش وسمياها سهر وربوها تربية إسلامية. بعد الحرب العالمية الأولى بحثت العائلة عن ابنتها(كانت أمها قد نجت من مسيرة التهجير، وكان أبوها في زمن الإبادة في زيارة إلى الولايات المتحدة الأميركية) وعرفت مكان إقامتها، لكن العائلة لم تستطع لم شملها. فقد كانت هايرانوش/ سهر قد تزوجت ولم تسمح لها عائلتها الجديدة بزيارة أهلها في سوريا.

لقد أخفت هايرانوش، طوال حياتها، أصلها الأرمني. لكن عندما تجاوزت التسعين من العمر، ساءت صحتها واقتربت من نهاية حياتها. عندها وثقت بحفيدتها: فطلبت منها التواصل مع عائلتها في الولايات

المتحدة. حينئذ اندهشت فتحية ولم تفهم الأمر. عائلة في الولايات المتحدة؟! بعد حديث مطوّل مع جدتها، توصلت إلى الهوية الحقيقية للمرأة التي عرفها الجميع باسم سهر.

في تلك المقابلة مع فتحية، سألتها: لماذا تأخرت جدتها إلى هذا الحد في الحديث عن ماضيها. أجابت: 'أنا نفسي سألتها السؤال نفسه، لكنني لم أتلق جواباً واضحاً. ربما هذا له علاقة بالتابو الكبير الذي لايزال ماثلاً في هذه القضية. بعد الحرب مباشرة، أي حوالى عام ١٩٢٠، كان الكل يعرف ماذا حدث ومن هم هؤلاء الصبية والصبايا الذين يحملون أسماءً تركية وأصولاً أرمنية. لكن بعدها لم يجرؤ أحد على ذكر أي شيء في هذا الخصوص'. وهذا له صلة، برأي فتحية، بوجود تركيا الحالية. تقول: 'لم تكن الإمبراطورية العثمانية دولة موحدة بشعب واحد، وإنما أتاتورك هو من أراد جعل تركيا بهوية واحدة، لكن لم يكن للهوية التركيّة من وجود، بل كان المطلوب إنشاءها وتم ذلك برفع التركية إلى المقام الأعلى. والنتيجة كانت وضع غير التركي في خانة المحرمات؛ أن تكون أرمنياً فهذا شيء يجب أن تخجل منه'.

بالمناسبة نجحت فتحية في العثور على عائلة جدتها. لكن هايرانوش كانت حينذاك قد وهنت قواها ولم تقو على السفر إلى الولايات المتحدة. توفيت دون أن تتمكن من رؤية عائلتها.

وفي السياق نفسه من المفيد الإشارة إلى الضجة التي دارت حول تصريحات الرئيس غول في كانون الأول ٢٠٠٨. إذ قامت مجموعة

كبيرة من المثقفين الأتـراك بوضع عريضة على الانترنيت عبروا فيها عن أسفهم على المأساة التي وقعت للأرمن في عام ١٩١٥ في الأيام الأخيرة للإمبراطورية العثمانية، وأنهم يتقاسمون ذلك الألم مع الأرمن. تسببت هذه العريضة بنقاشات حادة، لم يكن آخرها النقاش حول وجوب وصف هؤلاء المنظمين لهذه العريضة بالخونة.

كان الصحفيون يترقبون بفضول رد فعل الرئيس غول، الذي لم تكن لديه إجابة محددة عن جوهر الموضوع وإنما أشار فقط إلى أن حرية التعبير في تركيا محترمة. مما دعا أحد أعضاء البرلمان من الحزب المعارض CHP (الذي أنشأه أتاتورك والذي لا تزال أفكاره ماثلة في هذا الحزب) إلى القول: لا بد أن دماءً أرمنية تجري في أوردة غول، وإلا لكان قد رفض العريضة مباشرةً.

كم كان رائعاً لو كان الرئيس قد ردَّ على ذلك بأن الأمر لا علاقة له بالدم الذي يجري في الأوردة، أو بكون عائلة غول من أصول أرمنية أو لا، فقد عاش في الإمبراطورية العثمانية الملايين منهم. لكن بدلاً من ذلك اختار غول التشديد على الجذور التركية الصافية لعائلة غول. فقد أقسم بأن أجداده كانوا جميعاً مسلمين وأتراكاً. المسألة كانت مؤلمة للغاية بالنسبة إلى المجتمع الأرمني في تركيا. إذ إنها لم تكن هذه هي المرة الأولى التي توجه إليهم إهانة كهذه: ليس هناك عار أكثر من الدم الأرمني.

’نحن كُردا!‘

إن الافتخار بالدم التركي هو أمر يتم تلقينه في تركيا للأولاد من الصغر. ففي عام ١٩٣٣ تم إدخال ’عهد الطلبة‘، الذي يجب على تلامذة كل المدارس ترديده كل صباح أمام تمثال أتاتورك في ساحة المدرسة قبل البدء بالدروس.

إسرى وسينام وهوليا يقمن بذلك أيضاً، رأيت ذلك بنفسي عندما رافقتهن في أحد الأيام إلى المدرسة. حيث وقفوا في الساحة باللباس الموحد الأزرق والأبيض:

أنا تركي، أنا صادق ومجدّ.

مبادئي: احترام الكبير والعطف على الصغير،

وأحب وطني وشعبي أكثر من ذاتي.

مثلي هو السموّ والتقدّم. فليكن وجودي فداءً للأمة التركية. نقسم يا أتاتورك العظيم، الذي خلق لنا هذه الحياة، أن نسير دائماً على الدرب الذي مهدته، في البلد الذي صنعته، ونمضي نحو الهدف الذي رسمته. ما أسعد من يستطيع القول: ’أنّا تركي‘.

(تمت إضافة الجملتين الأخيرتين في سبعينيات القرن الماضي. لكن في خريف ٢٠١٣ وبشكل مفاجئ ألغى رئيس الوزراء أردوغان الالتزام بأداء اليمين.)

هناك في داخل المدرسة الابتدائية في كول يازي، كما في كل مكان يتجمع فيه الأولاد، خطاب لأتاتورك بعنوان ’دعوة للشباب‘.

يحث فيه الشباب على فعل المستحيل من أجل الدفاع عن استقلال الجمهورية، التي يصفها بـ 'الأساس الوحيد لحاضرك ومستقبلك'، في وجه الأشرار من داخل تركيا وخارجها.

من هنا أتى التعبير التركي، بأن الصديق الوحيد للتركي هو التركي. والقوى الخارجية تهدف بشكل رئيس إلى إضعاف تركيا، أو تقسيمها أيضاً، كما فعلت القوى الغربية بعد الحرب العالمية الأولى. فضلاً عن ذلك استمرت عملية تغذية فكرة الاحتراس من غير الأتراك (مثل الأرمن واليونانيين) الذين وفق عقيدة الأتراك القوميين، لا يمكن أن يكونوا موالين تماماً للوطن. كل من هو تركي بحسب تعريف القوميين، والكل هنا لا تشمل المسيحيين، يجب أن يكون موالياً. كل من يدعي هوية أخرى، هو إما 'خائن' وإما 'انفصالي'.

أما ما عرفته عن الكُرد فإنه لا يتطابق مع هذه المقولة. إذا كان لا بد من وصف الكُرد في تركيا ببعض العبارات، فإنني أراهم: متواضعين، فخورين، واعين دينياً وسياسياً. والأخيرة واضحة في الحياة اليومية.

أتذكر مرة عندما كنت في دياربكر كيف كان رد فعل مجموعة أولاد في عمرعشرسنوات تقريباً، حين وجهتُ الكاميرا باتجاههم، فبمجرد أن رأوا العدسة، غطوا وجوههم بقمصانهم لكي يموهوا شخصياتهم ورفعوا أصابعهم على شكل إشارة النصر وصاحوا (باللغة التركية، وليس الكُردية) 'نحن كُرد!'. فالنضال السياسي من أجل

الاعتراف الكامل بوجودهم واضح في كل مكان، فحتى هؤلاء الأولاد والفتيات أيضاً يستطيعون بكل جدارة شرح المقصود من ذلك.

إنه واحد من الأسباب التي جعلتني مسرورة بوجودي هنا. لا أحب أن أكون في الأجواء التي تدور فيها أحاديث غير هادفة، فأنا لا أجيد الثرثرة، وفي كُردستان لا تحتاج إلى ذلك. فالحديث هنا يدور دائماً حول السياسة، والعائلات، وأبناء القرية أو الأصدقاء الذين التحقوا بالـ PKK، وحول الذين ماتوا في أثناء القتال أو المعتقلين السياسيين، وحول الذكريات عن القرى التي لم تعد موجودة بسبب سياسة الأرض المحروقة، وحول آخر التطورات في أنقرة وضمن الحزب الكُردي BDP، وحول جنازة الـ PKK التالية، والمقابر الجماعية المكتشفة، وعن آخر ولد قُتل على يد الشرطة، وحول التطورات في قضايا الدعاوى السياسية، وحول التصريحات الأخيرة لعبدالله أوجلان، وحول الذين تم القبض عليهم والذين أُخلي سبيلهم، وعن أحوال الكُرد في العراق وسوريا وإيران.

وهو أيضاً، كما قالت الباحثة الألمانية بيليكن آياته، جزء من الهوية المشكّلة أوعلى الأصح، جزء من الهوية المسيّسة. يعتبرالكُرد في هذا السياق مثالاً هاماً. فالهوية المسيّسة هنا هي نتاج 'هوية جمعية'، أي جماعة يشترك أفرادها بدرجات مختلفة في قناعات ومشاعر ومصير؛ عمال، نساء، مسيحيون، مسلمون، أميركان، هولنديون.

يمكن لهوية جمعية كهذه أن تُسيّس، وفقاً لما جاء في ويلي بلاك

ويل \انسكلوبيديا\ الحركات الاجتماعية والسياسية، إذا تشكّل وعي بـ'مظالم مشتركة' يتم وضع اللوم فيها على عدو خارجي. وهذا يشكل للمجموعة المسيّسة إطار عمل من خلاله يتم اعتبار المجموعات السياسية والاجتماعية الأخرى إما حلفاء وإما خصوماً. بقدر ما يكون أفراد المجموعة مسيّسين يكونون مستعدين للقيام بفعل جماعي يدفع،على سبيل المثال، الحكومة أو الجماهير إلى القيام بفعل ما أو اختيار طرف معين.

كل هوية معرّضة للتسييس وهذا لم يحدث مع الكُرد فقط، فقد حدث إلى حد ما مع المثليين، ومع السود في الولايات المتحدة ومع الحركات النسائية.

ثوار كُردستان والـ PKK

بالنسبة إلى الكُرد، بدأ تسييس هويتهم مع قدوم الـ PKK، وبدء الحرب بين الدولة والـ PKK في عام ١٩٨٤. كثيراً ما سمعت أثناء رحلاتي روايات مؤثرة عن كيفية تطور هذا الوعي. لا أنسى أبداً المقابلة المطوّلة التي أجريتها مع ياكوت يلماز، موزّع الصحف من دياربكر، الذي أمضى منذ مطلع التسعينيات ١٥ عاماً في توزيع الجرائد التي كانت ممنوعة من البداية، مثل *Özgür Gündem* والجريدة الوحيدة الصادرة باللغة الكُردية، *Azadiya Welat*. كان يقوم بذلك

في السنوات الأولى مع أخيه الأكبر نهاد، الذي سرعان ما ’رحل إلى الجبال‘ أو بعبارة أخرى: التحق بالـ PKK.

كان القمع الذي مورس ضد هاتين الجريدتين، اللتين كانتا الوسيلتين الوحيدتين لنشر أخبارالكُرد، قاسياً جداً في تلك السنوات. فقد بلغ عدد العاملين، صحفيين وموزعين، الذين تم قتلهم ٧٦ شخصاً. وفي عام ١٩٩٤ تعرّض مكتب جريدة Özgür Gündem في إسطنبول للتفجير من قبل الدولة، هذا ما أثبتته الوثائق المسربة أخيراً. كثيراً ما صدرت بحقهما أوامر الحظر، وتوقفتا عن الصدارعدة مرات بسبب الغرامات الكبيرة التي فُرضت عليهما.

كانت تلك الإجراءات بالنسبة إلى الموزعين أمثال ياكوت، الذي كان في ذلك الوقت قد تجاوز سن المراهقة، تعني الاعتقال عشرات المرات، بالإضافة إلى التعرّض للضرب في الشارع وفي مراكز الشرطة، وتعرض منازلهم للتفتيش، حيث تقلب الشرطة المنزل رأساً على عقب، وغالباً ما كانت تنجح في العثور على أكداس من الجرائد الممنوعة. أخبرني ياكوت عن والدته مولودة: ’لم تكن تفهم ما يدور حولها. ما الذي نقوم به حتى يستوجب انتباه الشرطة؟ لم تكن تعرف أي شيء عن السياسة، لم تكن تعرف أي شيء عن القمع الذي يتعرض له الشعب الكُردي، رغم كونها هي أيضاً ضحية من ضحاياه. لم تكن تعرف التحدث بالتركية كما أنها كانت أمية، وبالتالي لم تكن تستطيع قراءة جريدتي *Özgür Gündem* و*Azadiya Welat*‘.

كان أبناء مولودة يشرحون لها ما هو مكتوب في هذه الجرائد. بحيث أصبحت تدرك بأن الكثير من المآسي التي حدثت في حياتها، مثل التهجير من قريتها الصغيرة كولبوغا، التابعة لمحافظة دياربكر في تسعينيات القرن الماضي، هو جزء من النهج العدائي للدولة تجاه الكُرد. لم تكن تملك أي فكرة عما يحدث، مثل الكثيرات من جيلها.

لقد تحدثت مع مولودة أيضاً. فقالت: 'في البداية أردت منهما التوقف عن توزيع الجرائد، فقد كانت مخاطرة كبيرة. لكن بعد أن شرحا لي ماذا يفعلان ولماذا يقومان به، سمحت لهما بالاستمرار. كانا يعملان مع شعبنا، هذا ما جعلني مرتاحة البال، لابد أن يكون عملهما إيجابياً'.

لقد ساندت ولديها بكل طاقتها. كانت تعتني بجروحهما عندما يتم الاعتداء عليهما أو يتعرضان للتعذيب. وعندما كانا يغادران باب المنزل في الفجر لتوزيع الجرائد، كانت ترش خلفهما الماء: فهذا يحميهما من الشر.

لولا الـPKK لما كان لهاتين الجريدتين (*Özgür Gündem* و *Azadiya Welat*) أن توجدا مطلقاً. تأسس الـ PKK في سنة ١٩٧٨ وفي السنوات التي سبقتها كان فعالاً، لكن أقل ترابطاً، تحت اسم ثواركُردستان، لم يكن الـ PKK منشغلاً فقط بتدريباته ومعسكراته في لبنان وسوريا والعراق، بل كان يرسل عناصره أيضاً إلى داخل المجتمع الكُردي، لتجنيد مقاتلين جدد وتعليم الناس أسلوب الكفاح المسلح ومسوغاته، والهدف منه: كُردستان مستقلة وفق النهج الشيوعي.

لم يسمح ثواركُردستان والـPKK، والاثنان تحت قيادة أوجلان، بوجود معارضة. فالثورة، حسب النظرية، فعالة عندما تكون بقيادة حزب واحد، وعلى البقية أن يتبعوا هذا المسار. في السنوات الأولى، أي قبل القيام بأول هجوم في عام ١٩٨٤ ضد الدولة التركية، قام ثواركُردستان والـ PKK باستهداف المجموعات الكُردية الثورية المنافسة وكذلك الملاكين الكُرد الأغنياء. فقد تعامل أوجلان وأتباعه مع هؤلاء بالقبضة والسلاح.

كانت تركيا في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي تعج بالتجمعات السياسية وخصوصاً اليسار الذي كان له حضور كبير. في البداية أمل القوميون الكُرد أن تقوم المجموعات اليسارية بدعم الكُرد في نضالهم من أجل الاعتراف بحقوقهم السياسية والثقافية. لكن اليسار قرر عدم التدخل في هذا الشأن، وكذلك لإيمانه بأن الجميع، كُرداً وأتراكاً، سيتحررون تلقائياً حالما تتحقق الثورة الاشتراكية.

بدأ الكُرد بتشكيل منظماتهم (أغلبها غير قانوني) الخاصة بهم. وبشرت معظمها بالثورة الاشتراكية الكُردية، لكن ثواركُردستان والـ PKK كانا الوحيدين اللذين باشرا العمل المسلح بشكل عملي. وهو أحد أسباب الجاذبية التي حظيت بها هذه المجموعة، وهو ما يتضّح من المقابلات التي أجرتها آليزا ماركوس مع الكُرد الذين التحقوا في تلك السنوات بمجموعة أوجلان، والتي ذكرتها في كتابها (Blood *and Belief*) الذي يدور حول تاريخ الـ PKK.

يروي رمضان أوليك، أحد أعضاء الـ PKK، الذي كان طالباً عندما ألتقى أوجلان في عام ١٩٧٧: ’ كان كل شخص في قريتي له أقارب تعرضوا للاعتداء من قبل الجنود، فجاء الـ PKK وتصدى لهم. كما وقف الـ PKK ضد الملاكين الكُرد الأغنياء الذين كانوا يسرقون كل شيء من الناس، حتى الذهب من أعناق النسوة. هكذا بعد سنوات من القمع، ظهر أخيراً من يقاوم بشكل فعلي؛ فالتجأ الكل إلى الـPKK‘.

تغلغلت المجموعة ضمن كل شرائح المجتمع الكُردي إلى الحد الذي تمكنت من السيطرة الكاملة: إن من يرد تحويل وعيه الكُردي المُستعاد إلى نشاط سياسي وإعلامي أو ما شابه، يستطع القيام بذلك فقط بعد الموافقة الضمنية للـ PKK. سارت كل المجموعات التي نشأت في تلك الفترة وفق أفكار الـ PKK، سواء في مجال الصحافة أو التجمعات السياسية، أو المنظمات الثقافية أوالنوادي الشبابية.

مرحلة الثمانينيات: واقع عسكري

في هذه الأثناء لم تبق الدولة التركية مكتوفة الأيدي حيال هذه التطورات. إذ مازالت الإيديولوجيا الرسمية تصرّ على عدم وجود كُرد، ما يعني عدم وجود مسألة كُردية. وفق هذا المنطق لم يتم النظر إلى وجود الـPKK على أنه ناتج طبيعي للقمع الذي يتعرض له الكُرد، بل كمشكلة إرهابية تهدد وحدة الشعب التركي وسلامة كيان الدولة.

فكان استخدام القوة العسكرية هو الرد الوحيد الممكن على عنف الـ PKK.

لم تكن هذه المقاربة السياسية، أو الأحرى العسكرية في الثمانينيات والتسعينيات، غريبة على الإطلاق. ففي أيلول ١٩٨٠ قام الجيش التركي بانقلاب عسكري كان نذيراً بسنوات من القمع الشديد. فقد تم اعتقال حوالى ٦٥٠ ألف شخص (من اليسار والكُرد بشكل أساسي، لكن حتى اليمين لم ينج منه) وتقديمهم إلى محاكم عسكرية، فوصلت سمعة السجون التركية السيئة إلى مختلف أصقاع العالم بسبب أساليب التعذيب الخطيرة التي كلفت حياة حوالى ٣٠٠ شخص، كما تم تنفيذ حوالى ٥٠ حكماً بالإعدام، وحظرالنقابات والأحزاب السياسية والاتحادات. وفرض قانون الطوارئ على كامل البلاد.

لم تستمر الحكومة العسكرية الرسمية هذه طويلاً، ففي عام ١٩٨٢ تم وضع دستور جديد، وفي عام ١٩٨٣ جرت الانتخابات التي بموجبها تمّت إعادة السلطة إلى حكومة مدنية. لكن هذه الحكومة، برئاسة تورغوت أوزال، كانت تحت السيطرة المطلقة للجيش. فقد نص الدستور الجديد على توسيع سلطات مجلس الأمن القومي، الذي كان قد تم تأسيسه في الانقلاب العسكري الأول في تاريخ تركيا ١٩٦١، بحيث تكون الحكومة من الآن فصاعداً مجبرة على اتباع 'توصيات' هذا المجلس.

كانت الاجتماعات الشهرية لمجلس الأمن القومي في الفترة ما بين ١٩٨٣ - ١٩٨٩ تُعقد برئاسة الرئيس الجنرال كنعان إيفرين قائد الانقلاب العسكري. تألف المجلس من قائد الجيش أميناً عاماً للمجلس، وعضوية كل من قادة القوى البرية والجوية والبحرية وقائد الدرك. أما الحكومة فقد كانت ممثلة في المجلس برئيس الوزراء بالإضافة إلى وزراء الخارجية والداخلية والدفاع.

لم يقدم التوازن المدني- العسكري شيئاً يُذكرعلى الصعيد العملي: فالضباط كانوا يحددون جدول الأعمال وصوغ البيانات التي يتم اعتمادها والتي يتم إرسالها لاحقاً إلى الحكومة. كما كانت كل هذه البيانات، بما فيها تقارير تتضمن معلومات أساسية، تُحضّر مسبقاً من قبل أمانة مجلس الأمن القومي، التي تضم ٤٠٠ مشرف أو عسكري متقاعد يعملون تحت قيادة الأمين العام لمجلس الأمن القومي، أو الأحرى القائد العام للقوات المسلحة؛ لم يكن لوجود ممثلي الحكومة في المجلس أيُّ قيمة أو تأثير.

بالمناسبة، كان هذا المجلس هو نفسه الذي أعطى الأمر في عام ١٩٩٤ بتفجير مكتب جريدة *Özgür Gündem*: كانت الوثيقة قد وُقعت من قبل رئيسة الوزراء تانسو تشيللر قبل ٣ أيام من التفجير.

لم يكن مجلس الأمن القومي هو الهيئة الوحيدة التي تسلطت على الحياة السياسية، فقد كان هناك مجلسان آخران تشكّلا وفق دستور عام ١٩٨٢: *YÖK* (مجلس التعليم العالي) و*RTÜK* (المجلس الأعلى

للإذاعة والتلفزيون). مهمتهما ضمان سير الحياة الأكاديمية وكل المحطات الإذاعية والتلفزيون على المبادئ الأساسية للدولة، أي أن تكون جميعاً في خدمة الدولة العلمانية ووحدة البلد كما بناها أتاتورك. كان للجيش وجود مهيمن داخل كلا المجلسين.

في الصراع مع الـ PKK لم يتم بأيِّ شكل من الأشكال احترام حياة الشعب الكُردي. ففي غضون حوالى عشر سنوات من القتال بين الـ PKK والدولة تأثرت حياة أغلب العائلات الكُردية: قرى مهجورة ومدمرة، وتعذيب في السجون، واختفاء سياسيين ومثقفين وأناس عاديين، والتحاق العناصر الشابة للعائلات بالـ PKK الذين غالباً ما دفعوا حياتهم ثمناً لهذا الخيار.

لقد ساهمت الهوية التركية التي تم استحداثها والطريقة المتزمتة التي تشبثت الدولة بها، بشكل مثير للسخرية في بناء وتسييس الهوية التي حاولت تدميرها: الكُردية. فالحركة القومية الواسعة النطاق، التي لم تكن موجودة عندما تم توقيع معاهدتي سيفر ولوزان، والتي لم يمثلها الشيخ سعيد، والتي لم تكن فعالة في ديرسيم في الثلاثينيات، نشأت الآن فجأة وفي غضون بضع سنوات.

ومنذ ذلك الحين أصبح بالإمكان القول بأن: 'الكُردي هو ذلك الذي يُعرّف نفسه ككُردي'. لكن هذا التعريف لا ينصف التاريخ؛ إذ كيف سيكون الحال مع النساء أمثال مولودة، والدة موزع الجرائد

ياكوت، التي عاشت جزءاً كبيراً من حياتها دون أن تُعرّف نفسها ككُردية؟ كيف سيكون الحال مع الملاكين الأغنياء وشيوخ القبائل الذين صنفوا أنفسهم مع النخبة أكثر من ارتباطهم بالخلفية العرقية؟ كيف سيكون الحال مع مجموعة صغيرة من المثقفين الكُرد من أبناء المدن أيام الإمبراطورية العثمانية الذين قدّموا أنفسهم بناءًعلى هويتهم كـ 'مواطنين عثمانيين'، معتبرين تعبير'كُردي' مرادفاً لمصطلح 'فلاح متخلف'؟ هل يصح ألّا يكون كل هؤلاء كُرداً لمجرد عدم تعريف أنفسهم ككُرد؟

'نعم لقد كانوا كلهم كُرداً، لكن ليس بالمعنى السياسي، بل كحقيقة اجتماعية وثقافية'، هذا ما قاله جنكيز كونيش، الأستاذ في الجامعة المفتوحة في بريطانيا. في الوقت الحاضر هو أيضاً، يصف كل من يعرّف نفسه ككُردي بالكُردي، وهذا له علاقة أيضاً بخلق وحدة بين شعب يشترك في الإطار الاجتماعي والثقافي، وهي عملية تمت على مدى الـ ٣٠ سنة الماضية.

سألته: 'لكن هل هذه الوحدة موجودة؟'. أليس الكُرد إذن، خليطاً من عدد لا يُحصى من قبائل وعشائر بلغات وديانات وعادات مختلفة، والتي كثيراً ما تنازعت فيما بينها عبر التاريخ؟' لقد سمعتُ بشكل متكرر إدعاءات بأن عدم قدرة الكُرد على امتلاك دولة ليس بالأمر الغريب، إذ إنه مع هذا التنوع الكبيرمن الصعب تصورهم على شكل 'أمة' أو' شعب واحد'؟

لكن كونيش عكس الآية: 'لا يكمن عدم قدرة الكُرد على امتلاك دولة في عدم تشكيلهم وحدة، بل العكس هو الصحيح: أي إن عدم امتلاك الكُرد لدولة، جعل اتحادهم عملية صعبة جداً. لم تشكل الكثير من الشعوب، حتى في أوروبا، وحدة إلى حين حصولها على دولتها الخاصة. تركيا في هذا السياق هي واحدة من الأمثلة وكذلك إيطاليا. عندما يكون لك بلد خاص بك فقط، عندئذ تستطيع بناء مؤسسات، وتنظيم التعليم، وتعيين لغة رسمية أو أكثر للدولة ووضع معايير لها... إلخ. هذه الفرصة لم يحصل عليها الكُرد قط'.

يقول كثير من الكُرد منذ ثلاثين سنة وحتى اليوم، أكثر من أي وقت مضى كما قال الأولاد الذين كنت التقط لهم صوراً على الرصيف: 'نحن كُرد'. بعضهم يعبر عن ذلك بإشارة النصر على طريقة هؤلاء الأولاد والبعض بحمل السلاح، أو بقلم أدبي أو صحفي، أو بالكلام في البرلمان أو بالدفاع عن زميل كُردي في المحاكم. لا أحد يدري أي هوية سيفضلون إذا ما حُلت القضية الكُردية يوماً ما واستطاعوا التعبير عن كُرديتهم بحرية في كل مجالات الحياة. عندئذ لن تكون 'نحن كُرد' صيحة ثورية أو سياسية. عندئذ ربما تتحول الهوية الكُردية من جديد إلى معطى طبيعي وبديهي لا يتطلب استمراره في الحياة أي ذكرٍ صريح. تماماً كما كانت في الماضي البعيد.

الحي الجديد في هنِكلو

لقد سئُلت عدداً لا يُحصى من المرات في السنوات السابقة عن سبب انشغالي بالكُرد. والجواب هو أنه عبر هذا الموضوع أستطيع الكتابة عمّ أجده هاماً على الدوام : حقوق الإنسان. لكنه في الوقت نفسه جواب مبسّط جداً وغير كافٍ. لقد غيّرت التقلبات الجذرية التي حدثت في تركيا في السنوات الأخيرة طريقة تفكيري في نفسي وفي ما أجده مهماً.

إن اهتمامي الدائم بحقوق الإنسان هو حقيقة. وهذا بدأ في الواقع من اللحظة التي وقعت يداي فيها على نشرة منظمة العفو التي تتحدث عن التعذيب، حينذاك كنتُ في الثانية عشرة من عمري؛ مادة ليست لمن في عمري. قرأت فيها عن تغطية الرأس بكيس، والصعقات الكهربائية على الأعضاء التناسلية، والضرب أسفل القدم (الفلق)، والتعليق من الذراعين والقدمين، والمبيت وحيداً في زنزانة معتمة لا يصلها إلا صرخات سجين آخر يتألم من التعذيب. كنت مصدومة وأنا أقرأ بأن كل ذلك فقط بسبب عدم توافق هذا السجين مع الحكومة.

مازلت أذكر بأنني أخذت هذا المنشور إلى المدرسة ودعوت زملائي إلى قراءته. 'أقرأوا، وانظروا ماذا يحدث!' لكنهم لم يعيروا ذلك الاهتمام المطلوب، وأنا أيضاً كنت في تلك السن مشغولة بالموسيقى واللباس أكثر من اهتمامي بسجون الديكتاتوريات. لكنني أتذكر ذلك المنشور وانصعاقي من الموضوع – الذي أعدت قراءته

عدة مرات لأنني لم أكن أستطيع تصديق ذلك - كلحظة أدركت فيها الفظائع التي يرتكبها البعض تجاه البعض الآخر.

لم يكن هذا الانصعاق سببه والدايَ اللذين لم يعملا على إبقائنا أنا وشقيقاتي بعيدات عن حقيقة أن العالم هو أكبر من حيّنا الجديد في مدينة هنِكلو (Hengelo) الهولندية. حتى في هذا الحي كان هناك ما يدعو للحديث عن الحرب: فمن ضمن البيوت الثمانية التي على نسق بيتنا كان هناك ستة آباء يعملون في معمل سيغنال (*Hollandse Signaal Apparaten*) لصناعة الأسلحة، بالإضافة إلى النسق المجاور الذي يضم أيضاً ثمانية منازل يعمل معظم رجالها في المعمل نفسه. كان أبي فخوراً بأنه يكسب لقمة عيشه من عمله في السكك الحديدية الهولندية- وهوعمل كان يحظى بالاحترام في تلك الأيام..

كان والدايَ يعتنيان بطفلة اسمها ميلودي من الفيليبين في إطار مشروع فوستر. كنا نكتب لها الرسائل. مازلتُ أضحك من كل قلبي عندما أتذكر كيف أخبرتها بأن أهلي قد استبدلوا أرضية غرفتي. قالت لي أمي حينذاك بأن ميلودي لن تفهم المقصود. كان تقدير أمي في محله؛ صورة بيت الفتاة وعائلتها لا يتضمن ما له علاقة بما كتبته: فالحديث عن غرف النوم والأرضيات لا يمكن تصوره في حي فقير في مانيلا.

كان لدى أختي ماريكا اشتراك في صحيفة *Klap* التنموية، وأنا في صحيفة *Samsam* الخاصة بالأصغر سناً وهي ملحق من الجريدة

نفسها. كنا أحياناً نقوم أنا وماريكا وهانكا، أختي الثانية، بكتابة رسائل إلى *Piepschuim* صفحة أطفال في جريدة *Volkskrant*. في إحدى المرات رسمت هانكا، التي لم تكن قد تعلمت الكتابة بعد، منظر قرية في بلد فقير، وقامت ماريكا بكتابة كلمات هانكا بجانب الصورة: 'أطفال الدول الفقيرة لهم الحق أيضاً في المأكل والمشرب والستائر'.

هكذا لم يكن وقوع منشور منظمة العفو بين يدي بالأمر الغريب. كما لم يكن بالأمر الغريب أن تشكل هذه النشرة صدمة عميقة لعالمي الذي كان حتى ذلك الوقت واعياً لكنه مسالماً تماماً.

كما كان للجانب الآخر لفترة طفولتي تأثير هام في انجذابي إلى القضية الكُردية. والذي له علاقة بالهوية، أي بحقيقة أنني نشأت في عائلة مسموح فيها أن تكون كما أنت. لم يكن والدايَ يلتزمان بقواعد معينة أو يتوقعان ذلك من بناتهما الثلاث. ليس لأنهما لم يكونا سويين إلى هذا الحد، لكنهما لم يكونا أيضاً، مثل البقية ولم يحاولا أن يكونا كذلك. كان أبي من القليلين في منطقة إقامتنا، الذين لم يشتغلوا في معمل سيغنال لصناعة الأسلحة، وأمي كانت الأم الوحيدة في المنطقة، التي عادت إلى العمل من جديد عندما بلغت هانكا السادسة من العمر وأنا التاسعة.

ليس استثناءً متطرفاً أن يقوم المرء باختيار طريقه ويثبت على اختياراته ولا ينقاد بأفكار الآخرين، هكذا كان أبي وأمي المثال الذي يُحتذى به، حتى في الأمور الصغيرة. في تاريخ العائلة هناك مثال على

ذلك. في أحد الأيام كان زر قميص أبي مقطوعاً وعندما ذهب إلى عمله بدأ زملاؤه بالسخرية منه بأن هينك له زوجة عاملة لا تملك الوقت لكي تخيط زر قميصه. وعندما أرادت أمي في تلك الليلة خياطة الزر، قال لها أبي: ’لا عليك اتركيه كما هو فسوف ألبسه غداً مرة أخرى دون زر وأذهب به إلى العمل‘. وفعلاً قام بما وعد. فاندهش الجميع ولم يتجرأوا على فتح أفواههم.

ما أقوم به يشبه ذلك العمل وبتشجيع من أبي. كان عمري حوالى ١٠ سنوات عندما حاكت لي أمي ما سمي ’كنزة طويلة‘. كانت الكنزة تصل حتى نصف الفخذ وكنت أرتدي تحتها قميصاً يناسب موضة ١٩٨٠. شخصياً وجدت هذا اللباس رائعاً وكنت معتزة به وأنا ذاهبة إلى المدرسة لكن تلاميذ الصف بدأوا يسخرون مني. في استراحة الظهيرة أردت تغيير ملابسي، لكن أبي، الذي يعمل بنظام الورديات، كان قد عاد إلى البيت فطرح عليّ سؤالاً حاسماً: ’هل تجدين أنت شخصياً هذا اللباس جميلاً؟‘ فأجبت بنعم. فقال لي إذاً، لا تهتمي بكلامهم، اعملي ما ترينه مناسباً وعودي إلى المدرسة باللباس نفسه. اصعدي على الطاولة وتفتلي واصرخي: الآن انظروا مرة أخرى وأضحكوا! هل تراهنين بأن أحداً لن يجرؤ على الضحك. عدت إلى المدرسة باللباس نفسه، لكنني لم أجرؤ على الصعود على الطاولة، لكن ذلك لم يكن ضرورياً حيث لم يجرؤ أحد على الضحك مرة أخرى.

هولنديّة في بلد غريب

إنها من أكثر الدروس القيّمة التي تعلمتها في حياتي، وعندما يسألني الناس عن سبب اهتمامي بالكُرد أجد نفسي أفكر فيها من جديد. لأن جوابي: بأنني أجد 'حقوق الإنسان' هامة، يبدو جواباً أجوف، لا شيء. فمن منا لا يجد ذلك أمراً هاماً؟ لكن في عام ٢٠٠٤، أي عندما قررت العمل صحفية والاستقرار في تركيا، كان جوابي بتلك الصياغة لأنني لم أكن حينذاك أعرف تركيا بعد. بالإضافة إلى أنني، وهذا أمر لا يمكن التقليل من أهميته، لم أكن قد تخيلتُ كيف ستكون حياتي كهولندية في بلد أجنبي. ولم أقدّر مدى شعور الإحباط من عدم قدرتي على العيش وفق الدروس الحياتية التي تعلمتها في ريعان شبابي، والتي تجذرت عميقاً في داخلي: أي أن أكون أنا نفسي دائماً.

لقد حرمتني تركيا في السنوات الأولى لوجودي فيها من النوم ليالي عديدة وأنا أحاول فهمها والعيش فيها. إذ لم أكن أستطيع فهم: كيف لزعيم الحزب الاشتراكي الديمقراطي أن يتبجح بإطلاق شعارات قومية، وكيف لأتراك يعتبرون أنفسهم ديمقراطيين، أن يدافعوا عن فكرة تنحية رئيس الوزراء أردوغان بانقلاب عسكري. وأن علمانية تركيا تقوم على فكرة أن الدين والدولة غير قابلين للانفصال، وكيف لحركات مدافعة عن النساء أن تتبنى فكرة استبعاد المحجبات من ميادين العمل.

كلما تخطى النقاش مجرد الحديث السطحي في هذه الأمور

يتبين بأن محدثي قومي متعصب إلى حد ما. وهذا ليس بالأمر الفظيع فقط بل والمحيّر أيضاً، إذ إن كل هؤلاء القوميين، هم أناس لطفاء جداً ومضيافون ومتعاونون ومحترمون وأغلبهم أذكياء وأحياناً حتى محبون. وهو ما لا يتوافق مع الصورة أحادية البعد التي عرفتها في هولندا، بمعنى آخر، القوميون أناس غير طبيعيين وغامضون وعدائيون، تستطيع تمييزهم عن بُعد. في هولندا لم أتعرّف إلى أي قومي، أما في تركيا فيبدو أن الكل تقريباً قوميون!

لكن الأمر الأصعب هنا برأيي هو القضايا الكبرى التي تحدث في تركيا، والتي شدت انتباهي كوني صحفية مهتمة بقضايا حقوق الإنسان وشؤون المرأة. والتي تدور في نهاية المطاف، وهو ما أدركه عندما أراجع الأحداث، حول مسألة الهوية: أي أن تستطيع أن تكون أنت نفسك.

فقد دخلت نقاشات لا نهاية لها حول الحجاب وحرية المعتقد على سبيل المثال. ينتاب جزءاً كبيراً من الشعب التركي خوف عميق من الإسلاميين، خصوصاً بعد الانتصارات الانتخابية الكبيرة التي حققها حزب العدالة والتنمية AKP وتمكنه من التفرد بتشكيل حكومات متعاقبة منذ عام ٢٠٠٢.

ينحدر معظم مؤسسي الـAKP وقادته من أحزاب كانت إسلامية بشكل معلن ولذلك كانت ممنوعة. لا يثق أنصار أتاتورك بالـ AKP أبداً لأن الحزب لديه أجندة خفية. وكنتيجة لهذا الخوف فإنهم ينظرون إلى كل إجراء من شأنه زيادة الحرية الدينية على أنه خطوة نحو دولة

إسلامية، وهجوم على المبادئ العلمانية لأتاتورك. وهذا الخوف، برأيي، يساعد على انتهاك الحريات الفردية، مثل حق متابعة الدراسة، إذ يتم منع النساء اللاتي يرتدين الحجاب من دخول الحرم الجامعي.

لكن إذا أراد المرء معرفة أي بلد، فيجب عليه عدم الاعتماد على الحقائق التي يعرفها، بل عليه امتلاك الجرأة على الشك فيها ومحاكمتها. وهذا ما فعلته، وهو ما سبب لي الأرق وعدم القدرة على النوم لأنني بكل بساطة لا أتمكن أحياناً من تجنب التفكير في هذه القضايا، وهو ما دفعني إلى اتباع استراتيجية ناجعة تقوم على كتابة مقال عن كل موضوع سرق النوم من عيني ومن ثم الغوص فيه.

كتبت مقالاً حول الحركات النسائية التركية وقضية الحجاب وأرسلتها إلى مجلة *Opzij* الهولندية الرائدة في مجال الحركات النسائية، وكانت لدي مقابلة طويلة مع ناشطة نسائية مناصرة قوية لأتاتورك. شرحت لي بأنه يجب منع النساء المحجبات من تبوء أي موقع في المجتمع وذلك من أجل حماية كل النساء في تركيا. قالت لي: ’يريد الإسلاميون منح النساء المحجبات حقوقاً أكثر، بحيث تستطيع هؤلاء النساء الحصول على مواقع متقدمة في السلطة والأعمال التجارية. إنهم يتسللون إلى كل المواقع كي يتمكنوا بذلك من السيطرة على الدولة. وإذا تحقق هذا، ستفقد كل نساء هذا البلد حقوقهن‘.

باختصار: الحقوق الفردية هي رفاهية لا تستطيع تركيا تحمّل تكاليفها. لكني عندما تحدثت مع النساء صاحبات الشأن، لم ألاحظ شيئاً من تلك الخطة المخادعة. إن ما تسعى إليه هؤلاء النساء هو فقط

الدراسة وأن لا يضطررن للذهاب إلى أوروبا، أو الولايات المتحدة أو ماليزيا من أجل الحصول على الشهادة. ما يهدفن إليه هو وضع علمهن في خدمة بلدهن وليس الاضطرار إلى الجلوس في المنازل أو العمل في الخارج.

أخبرتني إحدى معارفي التي تدرس في جامعة الشرق الأوسط التكنولوجية في أنقرة التي تعتبرمن أفضل الجامعات في تركيا، بحلمها بالحصول على وظيفة في الجامعات التركية. مستحيل، لأن الدراسة للمحجبة الآن مسموح لكن الوظيفة الأكاديمية مستحيلة. سألتها عن منظورها المستقبلي، فأجابت: 'إذا لم أستطع العمل في الجامعة بعد إنهاء دراستي، سوف أتزوج وأصبح أماً. وهذا جيد بالنسبة إلى الأطفال من حيث أن أمهم متعلمة. ربما يتغير هذا الحال بالنسبة إلى بناتي في المستقبل'.

بالطبع لن تخبرني شيئاً عن الخطة المخادعة، في حال وجود خطة كهذه، لكنني لا يمكن أن أقبل أن يقوم ملايين الناس في هذا البلد على مدى سنوات بالمشاركة في تمثيلية مخادعة، بينما في الحقيقة يتآمرون سراً من أجل تطبيق الشريعة يوماً ما. إذ إن تحقيق ذلك سوف يقوض حريتهم في ممارسة عقائدهم كما يريدون.ليس هناك أي فائدة لهم من أسلمة تركيا.

ما هو لافت للاهتمام أن الناس الذين يحذرون من خطر المحجبات، مثل الناشطة النسائية التي تحدثت معها وأتراك آخرين

دخلت معهم في نقاشات حول هذا الموضوع، هم أنفسهم مسلمون. في إحدى المرات حاول أحد الأتراك إقناعي بالخطر الإسلامي عن طريق القول بأن الإسلام، على النقيض من المسيحية، يتدخل في كل جوانب الحياة، يتدخل في القضاء، والسياسة أيضاً. فقلت له :'لكن هل هذا يعني أن كل مسلم يريد الإسلام أن يحكم البلد؟ فأنت مسلم أيضاً، وها أنت لا تريد ذلك؟'

كانت حجته في ذلك هو أن ارتداء هؤلاء للحجاب الذي لا يُظهر شعرة من رؤوسهن، هو تعبيرعن تلك الرغبة. لكن برأيي هذا ليس دليلاً على ما يدعي. أنا أعرف نساء كثيرات يرتدين حجاباً كهذا لكن جميعهن يتبعن خيارات أخرى في حياتهن، قائمة على إيمانهن الفردي، بعبارة أخرى، لا يمتلكن جميعهن القناعات نفسها. المرأة الوحيدة في تركيا التي رفضت أن تصافحني لأني غير مسلمة – الأمر الذي لا يقوم به إلا من كان متزمتاً إلى حد ما – لم تكن ترتدي حجاباً.

يتم استخدام الآلية نفسها تماماً في تناول المسألة الكُردية. فتركيا تتغنى بالقيم الغربية الرائعة، كمنح الشعوب حق ممارسة لغتها وثقافتها وحتى تقرير مصيرها بنفسها، لكن تركيا لا تستطيع تحمل تكاليفها. لا بل يجب على تركيا مقاومة ذلك، هذا ما تمليه أفكار أتاتورك. أليست الدول الغربية التي تحث تركيا على احترام حقوق الشعوب، هي نفسها الدول التي سعت بعد الحرب العالمية الأولى إلى تقسيم تركيا؟ هذه النية مازالت موجودة لدى القوى الغربية، هكذا هي قناعات الكثير من

الأتراك الذين شربوا الكمالية والنضال ضد المحتلين بالملعقة القومية. وحدة البلاد يجب أن تصان مهما بلغت التكلفة.

الهوية متعددة الأوجه

إن عدم سماح الدولة لمواطنيها بأن يكونوا هم أنفسهم، هو أمر لم أشهده في هولندا قط. وبالقدر نفسه من الأهمية: لم أشهد قط لا في العائلة التي أتيت منها ولا في هولندا كيف يكون الحال فيما لو لم يستطع المرء أن يكون هو نفسه، أي أن لا يتم الاعتراف به. أما في تركيا فقد عرفت كيف يكون شعور الإنسان تجاه ذلك.

صحيح أنني ربما لا أعرف كل شيء عن نفسي، لكنني أعرف جيداً أي الهويات أقدّر. فأنا صحفية، وأنا هولندية، ومن منطقة توينتس، أنا إمرأة، وابنة، وصديقة، وسيدة نفسي ومهاجرة. أريد أن أمتلك حرية التعبيرعن كل هذا المزيج – من الهويات اختار الناس والبلد اللذين شكّلاني كما أنا – الذي هو في توازن دائم التغيّر.

منذ اللحظة التي أقمت في تركيا، فقدت هذه القدرة.

لم يكن أحد في هذا البلد يعرفني قبل مجيئي والإقامة فيه. لا أحد يعرف البلد الذي نشأت فيه، لا أحد يعرف عائلتي التي فيها تشكّلت شخصيتي، واللغة التي أكتب وأفكر بها والتي أستطيع بواسطتها التعبير بدقة، كل هذه الأمورغير معروفة هنا.

هناك في هولندا أناس يعرفونني. لكن رغم زيارة عائلتي وكل

أصدقائي، واطلاعهم على نمط الحياة التي أعيشها ومشاهدتهم إسطنبول، لكن لا أحد في هولندا يعرف كيف هي حياتي هنا في الواقع. لا أحد يعرف ظروف العيش والعمل هنا صحفية، لا أحد من الناس الذين يهمونني يعرف تركيا مثلما أعرفها أنا، وأغلبهم لم يعش قط في بلد آخر. هذا لا يعني بالضرورة أنني أشعر بالبعد عنهم، بل على العكس أشعر أنني أكثر ارتباطاً بالبعض منهم مقارنةً بعلاقتي بهم لحظة مغادرتي هولندا، لكن ثمة جزءاً هاماً من حياتي لن يعرفوه ويفهموه أبداً.

قال لي مرة صديق هولندي، يسبقني في الإقامة في تركيا بسنوات،عندما التقينا في مؤتمر في دياربكر: ’يبدو أنك قد بدأتِ تثبتين قدميك في هذا البلد، أليس كذلك؟‘ فوجدت ذلك إطراءً جميلاً، وصحيحاً في الوقت نفسه، فأنا مازلت أريد الغوص في أعماق تركيا حتى الجذور. إنها تجربة رائعة للعمل صحفية والتعمّق في البحث، لكنها أحياناً محبطة بشكل مطلق لأنني لا أستطيع مشاركتها لا مع العائلة والأصدقاء في هولندا، ولا حتى مع الأصدقاء والزملاء هنا. ليس فقط لأنه في تركيا لا يوجد من يعرفني جيداً، بل أيضاً بسبب عدم الإتقان الكافي للغة. ليست لدي هنا أيّ مشكلة في التواصل باللغة الإنكليزية، لكن مع الزمن تتسع دائرة معارفي وأصدقائي من الذين يتكلمون التركية فقط أو الكُردية والتركية. صحيح أن المحادثة الثنائية عن مجريات الحياة اليومية تتم بشكل سلس، لكن قلما يتطور الحديث

إلى المسائل الشخصية الحقيقية. لكنني أشعر بالضياع عندما يدور النقاش ضمن مجموعة. إذ عندئذ لا أستطيع مواكبة الحديث، ولا أفهم النكات أبداً، ولا التلميحات إلى مختلف الأشياء في المجتمع التركي والكُردي والتاريخ الذي لا أعرفه. وبالتالي أشعر بأن مستواي قد تدنى إلى مستوى امرأة صامتة وغير واثقة بقدراتها، جالسة في المجموعة دون أن يكون لديها شيء ما تقوله. كما لو أنني لا شيء.

الآن أدركت كم هو مؤلم أن لا تستطيع أن تكون أنت نفسك، وأن لا يتم الاعتراف بك. في حالتي هو خيار شخصي وطوعي، رغم أنه لم يكن لدي أي فكرة بأن شيئاً كهذا ينتظرني، عندما وصلت في عام ٢٠٠٦. لكن فقط تخيّل بأنه فجأة لم يعد مسموحاً لك التعبيرعن جزء كبير من شخصيتك. ولم يعد يتم الاعتراف بذلك الجزء وتم قمعه بعنف؛ بتلك القوة التي تجعلك تنسى من أنت.

لا يعد هذا الأمر غير مقبول على صعيد الأفراد فقط، بل بالنسبة إلى الشعوب أيضاً. لقد تعلمت خلال إقامتي في هذا البلد بأن جوهر المفهوم القانوني والسياسي لـ 'حقوق الإنسان'، يدورحول إمكانية التعبيرعن نفسك والعيش وفقاً لهويتك. وهذا أمر جوهري لكل إنسان، بغض النظر عن محتوى هذه الهوية، رجل أو امرأة، مؤمن أو غير مؤمن، هولندي أو تركي أو كُردي، حضري أو قروي، أو كل ما تستطيع إدماجه في شخصيتك.

بعد أن تغلغلت كل هذه الأفكار في عقلي أصبح المشهد مكتملاً

في رأسي؛ لم يعد التفكير في الشأن التركي يسبب لي أيَّ أرق، فقد أصبحت قادرة على فهم أغلب العقليات وشرحها، لكنني تعلمت أيضاً بمستوى أعمق بأن 'حقوق الإنسان' ليست لعبة غربية. وبأن فكرة عدم قدرة تركيا على إعطاء حقوق الإنسان الأولوية على حساب مصالح أعلى، هي فكرة لا معنى لها.

بالمناسبة، يشكل الأتراك في حدّ ذاتهم مثالاً رائعاً عن تعدد الهوية. فهم ليسوا جميعاً أتراكاً فقط. فهناك منهم من يفتخر أيضاً بمنطقته التي أتى منها، وآخرون يعرّفون أنفسهم بشكل متطرف بانتسابهم إلى أحد أندية كرة القدم المشهورة، وآخرون يرفعون أصابعهم، عندما يكونون بصحبة رفاقهم، في الهواء بإشارة منظمة الذئاب الرمادية التي ترمز إلى اليمين القومي المتطرف، وآخرون يرفعون علم الحزب الشيوعي التركي في التظاهرات لكي يعرّفوا بشخصيتهم وبموقفهم. إنه ببساطة التنوع لا أكثر ولا أقل.

دون هذه المعرفة التي اكتسبتها عن تركيا ودون تطوري الشخصي، لم يكن ممكناً أن أخطو خطوة في مسار التخصّص في القضية الكُردية. ولبقيت معرفتي سطحية وبالتالي واجهت نقداً لا مفر منه بأنني أنطلق من وجهات نظر غربية، ولما استطعت صدها، لكنني الآن أصبحت قادرة على مجابهتها.

لا يستطيع أحد أن يلومني على كوني هولندية أو أوروبية، لأنني هكذا أنا ولا أستطيع ولا أريد استبداله. رؤيتي الغربية هي جزء مني،

لكن الآن لدي العديد من الرؤى وقد عاينت بها جميعاً هذا البلد والمسائل التي تدورهنا. والنتيجة التي توصلت إليها والتي لا تقبل النقض: حقوق الإنسان هامة. أفضّل فقط أن أعبّرعنها الآن بمصطلح الهوية.

يبقى ثمة سؤال آخر وهو: لماذا شغلت بالي بالكُرد وليس بالمثليين أو بالعلويين أو بالغجر أو بمجموعات أخرى في تركيا لم تحصل على فسحة للتعبير عن نفسها، والجواب عنه بسيط: إنه خيار مهني قمت به كصحفية. القضية الكُردية هي من أكثر القضايا الملحّة في تركيا: إذ إن القتال بين الـ PKK والدولة كلّف حياة ٤٠ ألف شخص، وبنى حاجزاً بين المجموعات السكانية التي من المفروض أن تعمل معاً في هذا البلد، وأثّر في العلاقة مع الدول المجاورة لتركيا والتي يعيش فيها أيضاً كُرد.

فضلاً عن ذلك، لا تدورالقضية الكُردية في المقام الأول حول الكُرد بل حول مسألة الهوية. إذا حُلت هذه المشكلة بشكل فعلي، فإن الجميع يحصل على الأقل على مساحة للتعبيرعن كيانهم، بغض النظر عن كونهم كُرداً أو أتراكاً أو أرمناً أو مثليين أولاجنسيين، أو مسلمين أو مسيحيين أو ملحدين...إلخ. إن الكتابة عن القضية الكُردية هي الكتابة عن كل الجماعات التي تشكّل تركيا.

مع النساء إلى المراعي

إن القسم المرتفع من قرية كول يازي، حيث تعيش بكيزا، هو 'الجزء القديم': سكان هذا الجزء هم سكانها الأصليون، بعكس 'الجزء الحديث' الذي يضم المهاجرين الذين تم تهجيرهم من قراهم في تسعينيات القرن الماضي بعد أن تم حرقها من قبل الجيش. ولدت بكيزا وترعرعت في الجزء القديم، تماماً مثل زوجها الراحل أوصمان.

للحياة هنا إيقاع ثابت على مر الأجيال. في ظهيرة أحد الأيام كنت أجول حول بيت بكيزا فرأيت فجأة الجارات، جيدم وبلقيس وليلى قادمات من بعيد وبرفقتهن بعض الأولاد وأيضاً حمار. يبدو أنهن قادمات من المراعي العليا، حيث كن قد قمن بحلب الماعز. وقد علقن قوارير بلاستيكية كبيرة بيضاء على ظهر الحمار، ممتلئة بالحليب حتى الحافة. 'لماذا لا تأتين معنا في المرة المقبلة؟' سألتني جيدم. فأجبتها 'ومتى هي المرة المقبلة؟' ضحكت النسوة: 'كل يوم طبعاً! ننطلق حوالى الساعة الثامنة صباحاً'.

أصرت النسوة بأن أنتعل حذاءً رياضياً، بدل الصندل. المكان ليس بعيداً لكن الطريق إلى الأعلى ليس كله سهل السير. ستذهب بكيزا أيضاً معنا غداً. لديها ثلاث عنزات وتطلب أحياناً من بقية النسوة أن تحلبها لها. في أيام أخرى تقوم هي بالدور نفسه، أي بحلب ماعز إحداهن، ماعز جيدم على سبيل المثال، التي هي حامل بطفلها الثالث وقريباً لن تقوى على العمل لفترة.

في صباح اليوم التالي مشينا عبر طريق ترابي يقود إلى خارج القرية، وهو الطريق نفسه الذي يؤدي إلى المقبرة التي دُفن فيها ضحايا القصف. أعرف هذا الطريق، فقد كنت قد ذهبت بصحبة بنات بكيزا في اليوم الأول لوجودي في القرية إلى قبر أبيهن. لو تابعنا نحو الأسفل لوصلنا إلى المقبرة لكن عند هذا المفرق أخذنا الطريق الذاهب إلى الأعلى فوصلنا إلى المرج.

كانت مجموعتنا مكونة من خمس نساء وطفليّ جيدم (ولد وبنت)، إذ إنهما ليسا في سن المدرسة، وهما راكبان على حمار، بالإضافة إلى محمود الابن الأصغر لبكيزا الذي يركض أمام المجموعة على مسافة، لكنه يتأخرعنها لانشغاله بتسلق شجرة، ثم يعاود الركض فيسبقنا من جديد. وعلى مسافة قصيرة هناك أمامنا مجموعة أخرى من النساء. ومن خلفنا أسمع صوت حيوانات تخطو ببطء. نظرت خلفي فرأيت ثلاث نساء على بغال. يلبسن فساتين مطرزة بألوان كُردية، وعلى ظهر كل بغل سرج ذو جيوب منسوج من القطن باللون الأحمر والأزرق والبرتقالي، وعلى رؤوس البغال أرسُن من الألوان الزاهية نفسها مربوطة بشرابات ملونة. تبدو قوية وجذابة بحيث لم أستطع أن أحيد نظري عنها.

عندما كانوا يمرّون، رأيت بكيزا وبقية النسوة واقفات على جانب الطريق وكفوف أيديهن مفتوحة وموجهة إلى الأعلى. نظرت من خلال العشب فأدركت بأننا أصبحنا على مقربة من المقبرة؛ النساء يصلين لراحة نفس الموتى.

خلال المسير شاهدت الأولاد وهم يشربون من الغدير الذي بجانب الطريق. كنتُ أشعر بالعطش لكنني لم أتجرأ على الشرب من الساقية الباردة لأنني لست متأكدة من صلاحيتها للشرب. بعد قليل، اقتربت من الغدير التالي لكي أروي عطشي: فوضعت يدي تحت الماء لتمتلئ وقربتها من فمي. فصاح الأولاد ' لا، لا تشربي من هذا الماء!'. فسألت نفسي ما الذي يجعل هذا الغدير غير صالح والآخر صالحاً، هذا لغز بالنسبة إليّ لم يشرحه لي أحد، لكنني مع ذلك كنت قد شربت الماء الذي في كفي. هل يسبب شرب رشفة من ماء غير صالحة أي مشكلة صحية؟ لا أعتقد؟! من الآن فصاعداً لن أشرب إلا من الغدير نفسه الذي يشرب منه الآخرون.

بدأ الطريق بالصعود، الجو حار والسماء زرقاء غامقة مع بعض الغيوم هنا وهناك، ومع كل خطوة يصبح منظر الجبال الخضراء من حولنا أكثر جمالاً. المسار يضيق، بعد الانعطافة نصل إلى جدول عريض وسريع التدفق. يجب علينا عندئذ المشي بمحاذاته مسافة معينة، وهو ليس بالأمر السهل عليّ لأنه ممر ضيق وزلق، وإذا تعثرت فإنك تتسبب بسقوط صخور كبيرة في الجدول غير العميق. الأولاد يضحكون عندما يرونني أتمسك بطريقة حذرة وغير مريحة بالشجيرات والصخور خوفاً من السقوط إلى الأسفل، وأنا أنظر باندهاش كيف تمر النساء على هذا الممر كما لو أنه طريق عادي.

ونحن نهمّ بالعبور إلى الضفة الثانية من الجدول- نجحت في

العبور إلى الطرف الثاني برشاقة وقفزت على ثلاثة أحجار دون أن تتمزق ملابسي– كنت أسمع ثغاء الماعزالذي ملأ الفضاء.

بعد ذلك لم أعد أركّز على هذا المشهد فنظرت إلى الأعلى لأرى أين وصلت في تسلق الطريق: أرض ترابية واسعة ذات صخور متناثرة، وشجيرات، وساقية على الجهة اليمنى. وعشرات الرجال يقودون المئات من الماعز إلى الجزء الصاعد من هذه البقعة. وحوالى ٣٠ امرأة وقفن في نسقين متقابلين بينهما ممر ضيق وأخرجن السروج القطنية والأقماع وسطول اللبن الفارغة، وزجاجات المشروبات الباردة وبيدونات بيضاء بلاستيكية. خلفهن حجارة يضعن بينها الزجاجات والبيدونات من أجل تثبيتها. بعض النساء يربطن مريلة بلاستيكية كبيرة من أجل ذلك.

جلس أحد الرعاة على بعض الحجارة الكبيرة في الممر الفاصل بين نسقي النساء وباشر العمل. يتم سوق الماعز على ʻممر الحلبʻ وحالما تتعرف إحداهن إلى الماعز التي تخصها، تسحبها من الرجلين الخلفيتين باتجاهها وتبدأ بحلبها كالعادة. ثم يُفرغ الحليب من السطل عبر قمع في زجاجة شراب فارغة وعندما تمتلئ هذه الزجاجة يتم وضعها في البيدون. يمكن تمييز الماعز بعضها من بعض من خلال قطعة بلاستيكية في الأذن اليسرى أو اليمنى، لطخة دهان زرقاء أوخضراء أوصفراء أو حمراء على قرن الماعز أو مثلث صغير مشطوف من الأذن اليسرى أو اليمنى.

يعرف الراعي الذي يجلس بين صفي النساء، صاحب كل ماعز،

فيقوم بسحب الماعز إلى الطرف الصحيح أو يضرب على مؤخرتها إذا لم تغادر ممر الحلب بسرعة. تعدو الماعز التي انتهى حلبها باتجاه الأسفل حيث يتلقاها رعاة آخرون مهمتهم عدم السماح لهذه الماعز بالاختلاط بالماعز التي لم يتم حلبها بعد. كم هو مشهد رائع وأنا جالسة على إحدى الصخور أنظر إليه من بعيد، أما ثغاء الماعز فقد كان يختفي مرات عديدة بسبب صوت طائرات الهليكوبتر التابعة للجيش التي يصلنا طنينها عبر الوديان، والتي تحلق أحياناً فوق المروج. لكن لا أحد يعيرها الانتباه.

تقوم كل يوم واحدة أو اثنتان من النسوة بتجهيز الطعام للكل. بعد الانتهاء من عملية الحلب يتم فرش بطانيات بجانب الساقية. ويتم في الوقت نفسه ملء إبريق الشاي المسود بماء الساقية ووضعه على النار. كان الطعام يتكون من الدولما (ورق عنب محشو) ومعجنات محشوة بالإضافة إلى خبز طازج وحار، أما ماء الشرب فقد كان من الساقية. وعند أسفل مجرى الساقية تغسل النساء السطول والأوعية البلاستيكية، ثم يتم وضعها في السروج وتحمّل من جديد على ظهر الحمير والبغال. عدنا إلى القرية عند الظهيرة تقريباً.

لافتات في المقبرة

مازال روتين الحياة اليومية هنا على حاله منذ أجيال، لكن منذ كانون الأول ٢٠١١ أُضيف إليه ’روتين جديد‘ بالنسبة إلى نساء أهالي

ضحايا القصف، حيث يقمن معاً كل يوم خميس عند المغرب بزيارة المقبرة. طلبت مني بكيزا، التي ترتدي كالعادة تنورة غامقة وقميصاً أسود ووشاحاً أزرق، أن أرافقها.

مضى على وجودي في ضيافتها عدة أيام وقد أصبحتُ صديقتهم وخصوصاً مع طفليها الصغيرين، محمود وهوليا، إلى درجة أنهما يودان وضع فراشهما بجانب فراشي في المساء، الأمر الذي يجعل النوم أصعب لكن يقابله استيقاظٌ أمتع. عندما كنا في طريقنا إلى المقبرة، أتت هوليا لتمشي بجانبي وأمسكت يدي ونظرت عالياً إليّ وضحكت ضحكة حنونة دخلت أعماق قلبي.

إن منطلق هذا الطريق هو نفسه الذاهب إلى المراعي، فنحن نتبع الطريق الرملي الذي يأتي من بيت بكيزا حيث الجزء المرتفع من القرية. وخلال المسير التحقت بنا امرأتان ترتديان ملابس غامقة أيضاً. بعد لحظات سمعت أصوات خطوات سريعة: إنه محمود يركض باتجاهنا. أمسك يدي الثانية.

لقد تغيرت المقبرة منذ زيارتي الأولى لها قبل أربعة أشهر؛ لم يتم تحجير القبور إذ إن الوقت مازال مبكراً للقيام بذلك. ما زالت الورود البلاستيكية التي تملأ المقبرة موجودة بكثرة ومحافظة على رونقها. أما الجديد فهو اللافتات المعلقة بين الأشجار. إحداها تطالب 'الدولة القاتلة' بتوضيح ما حدث، وعلى لافتة أخرى تقرأ 'اللعنة على مجزرة روبوسكي، نريد رؤية الجناة أمام القاضي'. بالإضافة إلى أعلام بألوان كُردية.

مشت بكيزا مع أولادها باتجاه قبر أوصمان. أعادت ترتيب الزهور قليلاً، ونظفت الحجارة التي تحيط بالقبر وصلّت بصمت. وكذلك فعل الأولاد، عدا أوزكان الذي لم يرافقنا، وأنهوا صلاتهم بمسح وجوههم بأيديهم وثم رفعوا أكفهم إلى الأعلى. بعدئذ ملأوا الزجاجات الفارغة التي أحضرناها معنا، بالماء من حنفية موجودة في المقبرة وسقوا النباتات الحية التي في المقبرة. الكل يقوم بذلك عدا محمود المشغول بتسلق الشجر.

امتلأت المقبرة بعائلات الضحايا. نظرت حولي فرأيت سميرة، الفتاة الهادئة التي تحدثت إليها في زيارتي الأولى. من الواضح أنها بصحبة أمها، فالشبه كبير بينهما، بالإضافة إلى بعض العمات والخالات. مشيت باتجاه القبر الذي يصلون بجانبه؛ قبر أخيها بدران. تعانقنا، تبدو في حال أحسن من المرة الأولى التي لم يكن قد مضى على وفاة بدران أسبوع واحد. تبدو أقوى ذهنياً ولم تعد عيناها جاحظتين من الحيرة، ولا غائرتين وفارغتين.

تود سميرة وعائلتها معرفة ما الذي كتبته عن القصف وسبب عودتي إلى القرية. أجبتهم بأنني أسعى إلى معرفة ما الذي حدث بدقة و التعرف أيضاً إلى القرية بشكل أفضل. في هذه الأثناء رغبت في معرفة شيء عن ثروت إنجو، الناجي من القصف والذي كان من المتفق أن أقيم عنده لكنه فر إلى كُردستان العراق. فهو عم سميرة، وهؤلاء النسوة يعرفن بكل تأكيد كل التفاصيل.

فكان رد إحدى عمات سميرة:' لقد ذهب إلى زاخو بحثاً عن

عمل هناك‘. قالتها بكل ثقة وأنا لا أستطيع تخيل مغادرته هو وعائلته وأطفاله الذين يكبرون والذين يذهبون إلى المدرسة، إلى مدينة في الجهة المقابلة من الحدود، فقط بدافع العمل. أليست ظروف العمل هنا هي نفسها هناك؟

سألتها:’وهل هناك حقاً فرص عمل كثيرة؟، فقد سمعت بأنه لم يعد يشعر بالأمان هنا، هل هذا صحيح؟‘ ذكرت أم سميرة شيئاً عن مكالمة كان ثروت قد تلقاها، لكنها لم تجد الفرصة لإكمال القصة، إذ تدخّل بعض أفراد عائلتها وهمسوا لها شيئاً باللغة الكُردية وتبادلا الحديث لكنني لم أفهم شيئاً مما دار، وبعدها سكتت سميرة وأمها. ثروت ذهب من أجل العمل، هذا كل ما تود العائلة أن تقوله.

دموع بكيزا

في هذا المساء تحدثتُ مع بكيزا. فقد أتى برهان، جارها الشاب العشريني ابن بلقيس أم أوصمان بالتبني. لم أستطع هنا فهم كل الذين يتكلمون التركية، لأن بعضهم يتكلمها بلكنة كُردية تجعلها صعبة الفهم، لكن برهان يتكلم التركية الصافية بكل هدوء ووضوح. وقد حضر إلى هنا لكي يقوم بدورالمترجم بيني وبين بكيزا (أرملة أخيه غير الشقيق).

كانت ليلى زوجة محمد أخي أوصمان قد جاءت، حوالى الساعة الخامسة من صباح اليوم التالي للقصف، إلى بيت بكيزا التي كانت شبه نائمة. تروي بكيزا:’كان أوصمان يعمل كثيراً في التهريب، لكنه كان

يعود إلى البيت دائماً قبل الحادية عشرة ليلاً. في تلك الليلة لم يعد إلى البيت. لقد انتظرته طويلاً أمام النافذة'.

كانت تستلقي أحياناً وتغفو قليلاً، ثم تصحو قلقة وتدور في البيت وتنظر من خلال النافذة. تفكر ما الذي يكون قد حدث؟ تتذكر بكيزا: 'ربما اعتقلوهم وأخذوهم إلى مقر الجيش في المنطقة لدفع غرامة، أو ربما تم إطلاق النار عليهم وأصيب بجراح'. لم يحدث معه شيء كهذا من قبل لكنه احتمال وارد، كانت تعرف ذلك، ربما يكون زوجها قد أُصيب هذه المرة .

جاءتها ليلى بالأخبار غير السارة دون سابق إنذار: 'تم قصف المهربين وقُتل الجميع'، منذ تلك اللحظة ولأسابيع عدة لم تُترك بكيزا وحيدة. في البداية بقيت ليلى إلى جانبها لكي تواسيها في مصابها. استيقظ الأولاد وذهبوا جميعاً إلى بيت بلقيس، كانت قناة RojTV تبث الصور الأولية للمأساة. 'لم يعد هناك من داعٍ لإخبار الأولاد بما حدث، فقد قام التلفزيون بهذه المهمة'. تقول بكيزا.

كانت تلك هي آخر مرة رأت أوصمان. 'لقد أخبروني بأن جسده قد تقطع، فكان من الأفضل أن لا أراه'. تتذكر بكيزا الأيام التي تلت القصف كأنها غمامة حزن لم تكن تقوى فيها على شيء سوى البكاء. تمت العناية بها وبأولادها، لكنها مازالت ترى صورالضحايا. ترى وجوه الرجال والأولاد الذين ماتوا في منامها وأثناء صحوها. لا تدعها هذه الصور لحظة واحدة ترتاح. لم تكن تقوى على العودة إلى البيت

الذي عاشت فيه مع أوصمان. 'كنتُ بحاجة إلى وجود عائلتي بالقرب مني، لم أستطع البقاء في بيتنا. ولم أكن أجرؤ على العودة إليه'.

لقد عاش أوصمان وبكيزا في بداية زواجهما عند عائلة بلقيس. كان البيت الذي انتقلا إليه لاحقاً، هو البيت الذي بناه والد أوصمان في وقت مضى، لكنه لم يكن صالحاً للسكن. فعمل أوصمان على ترميمه شيئاً فشيئاً على مدى ثماني سنوات. وعندما أصبح جاهزاً، انتقلا إليه مع طفليهما، أوزكان وإسرى. وبعدها بسنوات وُلِدت سينام وهوليا ومحمود.

كانت العائلة بأكملها تعيش في غرفة الجلوس، نهاراً وليلاً أيضاً. نادراً ما تم استخدام الغرفة الأخرى. فهي باردة في الشتاء وحارة في الصيف، تحوي خزانة وبجانبها عدد من الفرش المنضّدة بعضها فوق بعض وأغطية. وعلى الجدار الآخر كيس كبير مليء بمكعبات السكر وبجانبه كيس خيار بارتفاع متر تقريباً. لا شيء آخر. شباك صغير يطل على الوادي الأخضر وعلى مخفر الجيش القابع على التلة في الجهة المقابلة. مرآة مكسورة ومشط وشريط مطاطي على عتبة النافذة.

أرتني بكيزا صور زفافها، حيث لم تكن حينذاك قد بلغت الرابعة عشرة من العمر بينما أوصمان في العشرين. في الصورة بكيزا بثوب أبيض برّاق، وبقية النساء المدعوات أيضاً بثياب برّاقة، والرجال باللباس الكُردي التقليدي. تقول بكيزا: 'لم أكن أدرك ما يدور فقد كنتُ طفلة'.

رغم أنه كان زواجاً مبكراً لكنه كان موفقاً. لم تحدث بينهما

مشكلات قط، كان أوصمان أباً جيداً يهتم بعائلته قدر المستطاع. بعد ولادة محمود قرر إيقاف الإنجاب. تقول بكيزا: ’كان رأي أوصمان أن نكتفي بـ ٥ أولاد. لم أقبل إطلاقاً تناول حبوب لذلك قرر حل المشكلة بنفسه، فذهب إلى الدكتور الذي كان يزرو القرية وطلب منه معالجته وهكذا تم حل الموضوع‘.

بقيت بكيزا بعد القصف حوالى شهرين بعيدة تماماً عن منزلها. بعدها كان الوقت قد حان للعودة. تقول بكيزا:’من أجل الأطفال. كان من الأفضل بالنسبة إليهم العودة إلى مكانهم الأصلي‘. كل نساء العائلة ذهبن معها، بمن فيهن أمها وأخواتها. فقد كانوا قبل عدة أسابيع قد قدموا من سلوبي، المدينة الصغيرة الواقعة على الحدود العراقية مثل كول يازي لكن باتجاه الغرب قليلاً.

كانت النساء قد قمن بتنظيف بيت بكيزا بشكل كامل. فكان هناك شاي وطعام، ودموع أيضاً. بعدها عاد الجميع إلى بيوتهن عدا أم بكيزا التي قررت البقاء مع ابنتها شهراً آخر.

تعيش بكيزا منذ حوالى ٥ أسابيع وحيدة مع أطفالها. تقول بكيزا: ’أحياناً تصعب السيطرة عليهم‘، أفهم ماذا تقصد. فقبل موعد العشاء بقليل حوّل الأولاد البيت إلى فوضى. ’اجلسوا‘ كانت بكيزا أحياناً تصرخ فيهم.

لكن ذلك لم يكن كافياً. فهم يتضاربون بالوسائد، ويتعاركون ويشد بعضهم شعر بعض، يمرحون، ويقفزون، ويصرخون، ما يؤدي

ذلك أحياناً إلى بكاء أحدهم. تحافظ بكيزا على هدوئها وهي تعد الطعام أو الشاي. تقوم إسرى، باعتبارها البنت الكبرى، بمساعدة أمها في حال طُلب منها ذلك. تجلس على الأرض وتقطّع الخيار قطعاً صغيرة وتخلطها في زبدية اللبن.

والآخرون لا يحتاجون إلى أكثر من كلمة واحدة من أمهم لكي يساعدوا على إحضار العشاء – هوليا تضع الملاعق والسكاكين على المفرش النايلون على الأرض، سينام تضع عليه طنجرة الأرز– لكن الهدوء الحقيقي يبدأ مع بدء الأكل. وبعد الانتهاء غالباً ما تعود الضجة من جديد. لو لم أعرف أصل الموضوع، لاعتقدت بأنهم يبتهجون. تقول بكيزا:'سابقاً كانوا يهدأون بمجرد دخول أبيهم إلى البيت'. وهي لا تنجح دائماً في القيام بدور الأم والأب معاً.

استخدام القصف رهاناً في لعبة سياسية

لا تحب بكيزا التكلم كثيراً، ولا البوح بمشاعرها، ولا التحدث عن انعكاسات ما حدث لها ولأولادها، ولماذا وقع كل ذلك. فهي لا تقول 'لأننا كُرد' عندما أسألها عن سبب القصف الذي وقع. بل تقول:'لا أعرف، وربما لن يأتي اليوم الذي نعرف السبب الحقيقي. لكن الله يعرف وهذا عزائي'.

كنت أتساءل بيني وبين نفسي فيما إذا كان من الأفضل لو أقمت عند عائلة أخرى من العوائل التي فقدت أحد أفرادها في المجزرة، إذ

أستطيع بذلك التعرف إلى حياتهم بشكل أوسع قبل القصف وبعده. فهناك في القرية عائلات كثيرة ونساء أيضاً يملكن جرأة أكبرمن بكيزا ويعبرن عن مشاعرهن بسهولة أكثر ويتحدثن التركية مما يجعل التواصل أسهل نوعاً ما.

لكنني عدلتُ عن الفكرة. وفي الأشهر التي تلت، خلال زياراتي المتكررة للقرية، شعرت بأنني لا أملك أي رغبة في مراجعة قراري. وهذا الأمر له علاقة بكيفية تحوّل المجزرة إلى رهان في لعبة سياسية ولايزال. فمنذ الأيام الأولى، حدث الاستقطاب، لكنه اشتد في الأشهر التي تلت بسبب الطريقة التي تعاملت بها الحكومة مع الحدث؛ كالسرية وعدم السماح للجنة التحقيق بالتحدث مع صناع القرار في المناصب الرئيسة، والتعليقات السامة المبطنة للمسؤولين.

فقد تجاوزت تصريحات وزيرالداخلية، إدريس نعيم شاهين في نهاية أيار ٢٠١٢ كل حدود المعقول. في تلك اللحظة بدأت أشك في قدراتي على فهم التركية لأن ما قاله غير قابل للتصديق، إذ صرح شاهين في مقابلة حية مع القناة الإخبارية NTV- تركوه يقول روايته دون أي سؤال نقدي- بأن ضحايا القصف كانوا 'كومبارس' يقومون، بأوامر من الـ PKK، بنشاطات غير مشروعة عندما تم قصفهم. وأنه كانت ستتم محاكمتهم فيما لو تمكنا من القبض عليهم أحياء. وأضاف في السياق نفسه: 'ليس هناك أي مبرر لتقديم الاعتذار' عن القصف.

بعد عدة أيام من تصريحات شاهين، زاد رئيس الوزراء أردوغان

الطين بلة عندما استخدم ‘قصف أولوديرى’ بطريقة غير لائقة أثناء انتقاده عملية الإجهاض قائلاً: ‘كل عملية إجهاض هي أولوديرى’. لم يكن النقاش حول ما قاله شاهين قد هدأ بعد، حين قام أردوغان باستخدام ذلك جيداً في إضفاء صورة أكثر إنسانية على حزبه. إنها لعبة يؤديها هو وشاهين. إذ يقوم شاهين بإطلاق تصريحات قاسية هدفها الحفاظ على الأصوات القومية المتطرفة داخل الحزب، ثم يقوم أردوغان بانتقاد وزيره ويستخدم الموضوع نفسه لاحقاً لإرضاء الأصوات القومية المعتدلة داخل حزبه.

ينظر أقارب الضحايا وسكان قريتي كول يازي وأورتاسو، إلى هذه الألعاب السياسية على أنها كوضع الملح على الجروح. فقد تم تجاهل آلامهم من قبل الأحزاب التركية الكبيرة، التي تحمل كلها فكراً قومياً بنسب مختلفة، إلا حزب BDP المناصر للكُرد الذي رفع صوته ورد بشكل واضح على تلميحات الحكومة. حيث صرح زعيم حزب BDP صلاح الدين ديميرتاش غاضباً: ‘يستخدم حزب العدالة والتنمية موضوع الإجهاض لتحويل أنظار الناس عن قصف أولوديرى’.

لكنني بمعاينة الحياة اليومية في هذه القرى أسعى للابتعاد عن هذا الاستقطاب السياسي. لدى حزب الـ BDP الكثير من الأنصار في كول يازي وأورتاسو، فالحزب حقق في الانتخابات العامة في صيف ٢٠١١ نصراً غير مسبوق. لو اعتمدت على أقوال القرويين الأكثر فصاحةً، لما استطعت حتماً الحصول منهم على تعبير عن مزيد من المشاعر والآراء

الفردية، بل لسمعت على الأغلب ترديداً لوجهة نظر الحزب.

كانت بكيزا وأوصمان يدليان بصوتيهما في الانتخابات دائماً لمصلحة الحزب الكُردي، لكن ليس لبكيزا أي نشاط. بل فقط تتوجد دائماً مع أهالي الضحايا عندما يجتمعون في ذكرى الضحايا أومن أجل الاحتجاج على التقصير في التحقيق الذي تقوم به اللجنة البرلمانية، لكنها لا تكون أبداً في الواجهة ولا تنادي بالشعارات، ولا تبكي بصوت عالٍ ومأسوي. فعندما رأيتها هذا الخميس في المقبرة لم تقم بذلك، ولم تقم به في كل المناسبات التي كنت معها في الأشهر التي تلت.

عندما أرى على الانترنيت صوراً لأي تجمع في القرية له علاقة بالقصف، أدقق فيها جيداً بحثاً عن بكيزا. أعلم تماماً بأنها كانت موجودة معهم لكنني لا أراها في الصور أبداً، أو بالكاد في خلفية الصورة. بكيزا شابة، متواضعة، مؤمنة بعمق، ذكية لكن غير متعلمة، قروية وأرملة وأم لخمسة أطفال، ولا تملك حكاية حاضرة. وفق هذه المعايير هي ليست الخيار الأول لصحفية غربية، لكنني سعيدة بأنني صادفتها في مسيرتي. فهي تمثل مجموعة مهمة: نساءٌ كُرديات فقدن أناساً نتيجة الصراع ويحملن حزنهن بصمت بالاعتماد على الله وعائلتهن.

الطفح الجلدي يغزو جسدي

للأسف الشديد لم أتمكن من البقاء في كول يازي أكثر من شهر. فبعد أسبوعين لم أعد قادرة على السكوت على البقع التي ملأت رجلي

وذراعي: بقع حمراء وحكة جلدية. في الليلة الأولى شعرت بنوع من الدغدغة في السرير، لكنني تصرفت وكأن شيئاً لم يكن، خصوصاً عندما تفحصت الفراش بالضوء ولم أر أي دبيب أو حشرة زاحفة. وإذا كانت هناك حشرة غير مرئية في الفراش، لايهم، قلت في نفسي. فالصحفي برأيي يجب أن لا يغادر موقعه هرباً من بعض الحشرات والبقع الحمراء.

لكن بعد أسبوعين وفي صباح يوم السبت لم تعد مجرد بضع بقع بل تحولت إلى مئات من البقع على الذراعين والساقين والكتفين. وحالما شاهدتها بكيزا بدت قلقة، أما الجارة جيدم فقد وضعت يدها على فمها معبرة عن اندهاشها وعرفت أن ذلك بسبب'تغير الطقس' - وهو أمر قد غاب عن بالي - أما رأي بلقيس فقد كان بوجوب نقلي إلى المشفى. شخصياً لست من النوع الذي يستعجل الذهاب إلى طبيب. لكنني لاحظت أنني لم أعد هادئة بسبب هذا الطفح، بلغ ذلك حد الشعور بالذعر نوعاً ما.

كان المكروباص الوحيد الذي ينطلق من هذا القسم من القرية باتجاه مدينة شرنك (مركز محافظة شرنك)، قد غادرحوالى الساعة السابعة صباحاً أي قبل ٣ ساعات. إنها حوالى العاشرة، بعد التشاور قرر برهان بن بلقيس مساعدتي على إيقاف إحدى الشاحنات التي تمر بالقرب من القرية. أشعر بخيبة أمل وأنا أحزم أغراضي، عانقت الأطفال- عدا محمود الذي يقفز كالسعدان- وودعت بكيزا والجيران بالقبلات.

اقتربت من الساحة الصغيرة التي تضم مقهى الانترنيت والبقالة سيارة مسرعة على الطريق المنحدر إلى الأسفل. ركبنا السيارة باتجاه الطريق العام وخلال هذه المسافة القصيرة طمأنني برهان. إذ قال لي بأنه يعرف الجميع تقريباً في المنطقة وأنه سيجد السائق المناسب الذي سأرافقه إلى شرنك. لم يكن هذا التطمين ضرورياً لأنني لم أكن قلقة على الإطلاق. ليس فقط لأنني أثق ببرهان ولكن أيضاً من خلال تجربتي الأخيرة التي غادرت فيها القرية بصحبة بيدا وعزيز، حيث كنا قد استقللنا حينذاك أول شاحنة مرت بنا وكانت رحلة مريحة وآمنة. يشرح لي برهان بعض التفاصيل: سيحجزسيارة مسجلة في مرور شرنك (رقم اللوحة يبدأ بـ ٧٣) أو المحافظات المتاخمة التي تقع شرنك على المسار المؤدي إليها: حكاري (٣٠)، سييرت (٥٦)، ماردين (٤٧).

ثمة شاحنة ذات صوت هادر قادمة باتجاهنا تحمل رقم ٥٦ الخاص بمحافظة شرنك. رفعنا برهان وأنا أيدينا إشارة لطلب التوقف. هناك في غرفة القيادة رجلان. بدأ برهان يتحدث إليهما بالكُردية لكنهما لم يفهما شيئاً: فقد تبين أنهما عربيان من شرنك التي يعيش فيها الكثير من العرب. لذلك دار الحديث بالتركية. نعم إنهما في الطريق إلى شرنك ولديهما مكان لي في حال لم أعترض على مكان جلوسي المحصور بينهما. نظرتُ إلى برهان فأشار بالموافقة، فقلت لهما: ’ليست مشكلة‘.

قالا لي وهما يشيران إلى حقيبتي. ’ماذا يوجد بداخلها‘ أجبتهما: ’ملابس، ومفكرة ولابتوب‘. فردا ’هل معكِ شيء غير قانوني؟‘ أقسم بأنني لا أحمل أي شيء غير قانوني. فتم فتح الصندوق ووضعت فيه حقيبتي، وودعتُ برهان وتسلقت إلى غرفة القيادة. وشغلا موسيقى عربية.

بالطبع هي مخاطرة بأن أصعد وحدي وأنا امرأة مع رجلين لا أعرفهما، لكن في المقابل هما أيضاً قاما بمخاطرة لأنهما وافقا على أخذي معهما، هذا ما سمعته منهما خلال الرحلة. فهما يتاجران بالألعاب والأدوات المنزلية ويسافران ذهاباً وإياباً كل يوم في هذه المنطقة لكي يوزعا بضائعهما على القرى التي في طريقهما. الشاحنة مليئة بالكرات، الدمى، سيارات ألعاب، أدوات طبخ، طناجر، ملاعق وسكاكين وشوك، مناشف، شماعات....إلخ. يقول الرجلان، اللذان يبدو أنهما شقيقان’سيتم تفتيشنا عند كل حاجز عسكري‘. ’إذا كان معكِ سجائر مهربة في محفظتك، فإنك ستثيرين الشبهة بنا. أنتِ تعلمين أن المنطقة مليئة بعمليات تهريب، ألا تعلمين ذلك؟‘.

وفعلاً حدث المتوقع حيث وجب علينا عند اثنتين من نقاط التفتيش العسكرية الأربع فتح صندوق الشاحنة وحقيبتي أيضاً. ومع ذلك كان الرجلان مضطربين، لاحظت ذلك، لكن صدقاً لم يكن معي أغراض غير تلك التي صرحت بها. في الطريق توقفنا عدة مرات عند بعض الدكاكين لتسليم بعض البضائع أو استلام المبالغ المستحقة ثمناً

لبضائع تم بيعها. وعند أحدها تلقيت من الأخوين دعوة لتناول كأس من الآيس كريم، وعند الآخر زجاجة شراب Sisi. بعد حوالى ساعتين أنزلاني في شرنك في الشارع الذي يؤدي إلى المشفى الحكومي. شكرت السائقين، وهما بدورهما تمنيا لي الصحة والشفاء العاجل. وهكذا مشيتُ أسحب حقيبتي على دواليبها عبر طريق قصير باتجاه مدخل المبنى الحكومي.

الفصل الرابع

الجبال

ثمة أمر غير منطقي، إذ إنه رغم عدم وجود طرقات كثيرة في محافظة شرنك، وانتشار نقاط تفتيش عسكرية في كل مكان، والتفتيش الدقيق الذي يتم في بعضها، مع ذلك فإن التهريب هو النشاط الاقتصادي الأكبر هنا. قد يستطيع المهرّب التخلص من مراقبة السلطات عن طريق اختيار الممرات الجبلية الصغيرة، لكن إكمال عملية النقل تتطلب استخدام الشاحنات التي يتم عرضها أحياناً في نشرات الأخبار عندما يتم اعتراضها. وهو أمر قليل الحدوث مقارنةً بكميات التهريب التي تتم في المنطقة سنوياً.

دعونا نقل بأن المرء هنا ليس بحاجة إلى أن يكون خبيراً كي يشك بأن السلطات لا تسمح فقط بالعمليات الصغيرة كما يحدث في قريتي كول يازي وأورتاسو، بل هي تغض الطرف عن عمليات التهريب الكبيرة أيضاً. أما إثبات ذلك فهو أمر آخر.

مهربون وأدلاء

في إحدى زياراتي إلى القرى قررت أن أستكشف طريق التهريب بنفسي. فالطفح الجلدي الذي كان السبب في مغادرتي قرية كول يازي مبكراً، قد تلاشى من تلقاء نفسه. كان المشفى الحكومي في شرنك قد قررعلاجي، دون تشخيص واضح، بحقنة في الفخذ لكنها لم تساعد على شفائي. أما الطبيب الشاب المختص بالأمراض الجلدية في المشفى الجامعي في دياربكر فقد وصف لي مرهماً وحبوباً ضد الجرب، لكن تشخيصه لم يكن صحيحاً. يبدو أن سبب هذا الطفح هو حساسية تجاه شيء ما؛ هذا ما توافق عليه أطباء الجلدية والالتهابات في مشفى خاص في إسطنبول. وعند هذا الحد توقف الأمر.

للأسف لم أستطع حتى الآن معرفة الشيء الذي يسبب لي هذه الحساسية. فالنوم في فراش خاص بي لم يساعد على شيء، كما أن تناول حبوب منع الحساسية ليس له تأثير يُذكر، وشرب الماء من زجاجات بدل الساقية لم يغير شيئاً في الأمر. في كل زيارة تظهر البقع على أطرافي بشكل أسرع وتستغرق وقتاً أطول لكي تضمحل. مع ذلك هذا لا يمنعني من زيارة القرية لكنه وياللأسف يدفعني إلى مغادرتها قبل الأوان.

على أيِّ حال، أنا ذاهبة إلى الجبال. لكن ذلك لا يتم عبر قرية كول يازي، بل من القرية المجاورة، أورتاسو الواقعة على الطريق المؤدية إلى الحدود. رسمياً سميت عملية القصف باسم وا\قعة أولوديري. كونها الاسم التركي للمنطقة التي تضم قريتي كول يازي

وأورتاسو، لكن الكُرد يفضّلون اسم روبوسكي؛ الاسم الكُردي لقرية أورتاسو التي وقع القصف بالقرب منها، لذلك سُميت كذلك.

لقد تعرّفت خلال هذه الفترة إلى الكثيرين في قرية أورتاسو، وقد تبين أن أحدهم له علاقة بعمليات التهريب. وهو أحد ثلاثة أشخاص يقومون بتدبير عملية التهريب والاتصال مع أولئك الذين يحددون المواد المطلوبة ويقوم بتنسيق المهمة مع الموردين في العراق.

يعمل هذا الرجل الأربعيني 'دليلاً' أيضاً، فهو أحد أفراد مجموعة مكونة من ١٠ – ١٥ رجلاً مهمتهم، في كل عملية تهريب، هي تأمين عودة المهربين مع بغالهم المحملة إلى داخل الحدود التركية وذلك برصد الطرق وإرشادهم إلى الطريق الأسلم. ابتداءً من الحدود، هناك ٣ طرق صغيرة تؤدي إلى طريق ترابية أكبر تقود إلى القرية، والأدلاء يستطلعون المنطقة من قمة التلة بواسطة منظار. وهم يعملون بشكل إفرادي أو ثنائي ويستخدمون أجهزة لاسلكي في التواصل فيما بينهم ومع المهربين. بهذه الطريقة يساعد الأدلاء على إرشاد المهربين إلى أكثر الطرق أماناً للرجوع إلى القرية: على هذا الطريق يوجد كمين من الجنود، الطريق الآخر يبدو أكثر أماناً لكن مع ذلك لا تسلكه فقد لاحظنا وجود بعض التحركات. نظراً إلى قدرة الجيش على التنصت على نظام التواصل المفتوح، فإن المهربين والأدلاء يتواصلون فيما بينهم باللغة الكُردية دائماً.

في البداية رفض الدليل اصطحابي معهم، قائلاً: إنها مخاطرة

كبيرة. لكن بعد أن قمت بنفسي بتقويم الخطورة، قررتُ الإصرار على الذهاب: مادام الأدلاء أنفسهم لا يقومون بالتهريب، أي إن العساكر لن يعثروا عندي على أيٍّ مواد مهربة في حال إلقاء القبض علينا. فأنا أحمل دائماً كرت الصحافة الرسمي الصادر من الدولة التركية، بالإضافة إلى قلم ومفكرة لإثبات كوني في مهمة صحفية. كما أن الأدلاء لا يغادرون الأراضي التركية نهائياً، ما يعني أنه ليس هناك أي احتمال لعبوري، بشكل غير مقصود، الحدود التركية العراقية، وتعريض نفسي للمساءلة القانونية وبالتالي طردي من البلاد. أحتفظ دائماً برقم تلفون السفارة الهولندية في أنقرة الذي يعمل على مدى الساعة، وبفضل وجود نقاط عسكرية كثيرة في هذه المنطقة فإن تلفوني لا يخرج عن التغطية. إذاً، أين هي المخاطرة؟

ذكّرتني أنجيل، مترجمتي، بقصة صحفي تركي معروف رافق المهربين في رحلة ونشر القصة في جريدة ميلييت. تقول أنجيل بأن المقال تسبب بمشكلة للعساكر في المنطقة لأنهم سمحوا للصحفي بالعمل بحرية؛ بحسب وصف الضباط المسؤولين عنهم. كما تم تغريم الصحفي بمبلغ ٢٠٠٠ ليرة تركية (حوالى ٨٠٠ يورو) لعبوره الحدود بشكل غير قانوني، بالإضافة إلى تغريم المهربين الذين رافقهم.

وأضافت أنجيل بقليلٍ من الانزعاج: 'ربما لا تواجهين شخصياً أي مشكلة، لكن الآخرين قد يتعرضون لذلك'. لا يهمني كثيراً أن يتم توبيخ العساكر من قبل مسؤوليهم لأنهم سمحوا لي بالعمل بحرية،

فهذه ليست مسؤوليتي. لكن لا أرغب في التسبب بغرامة للمهربين أو الأدلاء، فإن وجدوا بأن اصطحابي معهم يسبب لهم أي مشكلة، يمكنهم عندئذ رفض طلبي؛ هم أقدر مني على تقويم المخاطر.

كانت الساعة قد قاربت السابعة مساءً، حين تسلق الدليل، الذي أعرفه، مع آخرين مقطورة الجرار واختفوا عند منعطف الطريق الرملي باتجاه الحدود. لا، لم يخاطر بأخذي معه وإنما رفع يده ملوحاً لنا، أنجيل وأنا، بعد أن وعد بأنه سوف يتصل بنا عند بدء عودة المهربين لكي أستطيع رؤية المشهد. عظيم! أتمتم وأنا أكبت توقي إلى الركض خلف المقطورة وتسلقها.

شربنا أنا وأنجيل كوبين من الشاي وأكلنا كيساً من بزر عباد الشمس. وبعد حوالى ساعتين ونصف الساعة جاءني اتصال هاتفي: 'نحن قادمون باتجاهكم، تعالوا نحو الطريق!' ركضنا عبر القرية إلى الطريق الصغير الذي سلكه الأدلاء. الظلام دامس، توقفنا عند المنعطف ونحن نستمع- هل هناك شيء قادم باتجاهنا؟

يا إلهي، هناك شيء ما قادم؛ أصوات حوافر وبعدها ملامح بغال. أربع أرجل نحيلة قوية محملة بكميات هائلة: كتلة على الجهة اليسرى وأخرى على اليمنى وكتلة على الظهر. البغال تمشي بثبات وبجانبها مهربون يقودونها من أرسانها. تشق البغال طريقها إلى القرية في مجموعات مكونة من ٣- ١٠ بغال.

تتوقف البغال عند أول بيت في القرية. يبدأ المهربون مباشرة

بتنزيل الحمولة. أنا واقفة بينهم. تقع الحزم الملفوفة بغطاء نيلون برتقالي اللون، على الأرض محدثة صوتاً مجلجلاً. ثلاث حزم لكل بغل، المجموع ١٥٠ كغ. خرجت من البيت بعض النسوة يحملن الشاي للمهربين الذين انتهوا في الحال من تنزيل المواد وجلسوا يستريحون على الدرج العريض أمام البيت. بعد قليل تم نشرحزم السجائر على الأرض الترابية. لقد تم استخدام حوالى ٣٠ بغلاً، أي بحمولة تبلغ حوالى ٩٠ حزمة أو ما يقارب ٣١٠٠ كغ. اقتربت من الحزم لقراءة الماركات: *Gauloises, MM en Prestige*. كان هناك أيضاً شاي ماركة: شاي محمود.

هناك شاحنة كبيرة مخصصة للتوزيع تقدمت في الساحة. في الوقت نفسه الذي كان أغلب المهربين يجرون بغالهم بعيداً، كان الباقون يقومون، تحت ضوء الشاحنة الضعيف، بتحميل الشاحنة بسرعة. وقد لمحت الرقم ٤٤ على لوحة الشاحنة وهو يعني أنها تابعة لمحافظة ملاطية التي تحد محافظة دياربكر من الغرب، وهي لا تُعتبر كُردية بل منطقة مختلطة. حالما تم الانتهاء من تعبئة الشاحنة حتى قمتها بعلب السجائر والشاي، غادرت الساحة. مجموعة أخرى من البغال، لاحظت أن حمولتها تختلف: خزانات صغيرة تشبه البراميل سمعت صوت ارتجاج سوائل في داخلها عندما اقتربت منها؛ إنه البنزين الذي لا يتم تخزينه في مكان واحد، بل يأخذه المهربون إلى بيوتهم ومن هناك يقومون ببيعه.

'هل صادفتكم مشكلات؟' سألت الدليل ونحن في الطريق

باتجاه البيت بعد أن تم شحن كل المواد المهربة. ’لم تحدث أيُّ مشكلة‘. الطرق الثلاثة كانت مفتوحة، فالعسكر تركوا المهربين يمرون دون أي عرقلة، كما أننا لم نسمع صوت أيِّ طائرة درون فوق المنطقة هذه الليلة. وذكر لي بأن مجموعة أخرى سوف تقوم غداً بعملية تهريب جديدة بينها ابنه (٢٠ سنة). فسألته: ’وستكون أنت الدليل مرة أخرى؟‘ موحيةً برغبتي في الذهاب.

رفقة ميدانية مع المهربين

سلّمني الدليل حوالى الساعة السادسة مساءً من اليوم التالي ملابس كُردية تقليدية خاصة بالرجال؛ سروال عريض، وسترة بجيوب كثيرة. بارتداء ذلك مع قميصي الأسود وباستعارة جوارب ابنه الفضية وحذاء جلدي متين النعال يخص ابنه الآخر، أصبحتُ جاهزة: لقد سمح لي بمرافقته في مهمة الاستطلاع.

سألني:’هل تعلمين بأن هذا هو لباس مقاتلي الكريللا؟‘. فأجبته مستغربة ’كنت أفكر بأن ذلك تحامل تركي‘. ابتسم وأشار إلى الفرق بين لباسه ولباسي. بنطاله يحتوي على أزرار في أسفل الساق، أما بنطالي فله أربطة لاصقة. بنطاله يحتوي على جيبين عاديين، بنطالي على جيبين إضافيين بأربطة لاصقة أيضاً. سترته تحوي جيبين ولا تحوي جيباً داخلياً، سترتي تحوي أربعة جيوب، بالإضافة إلى جيب

داخلي في كل طرف. ثم قال لي: 'ما تلبسينه هو لباس مقاتلي الكريللا، أما لباسي فهو الزي التقليدي الكُردي'.

كم هو رائع أن تكون الجيوب الداخلية بسحابات؛ فهذه أنسب طريقة لحفظ جواز السفر وتصريح الإقامة وكرت الصحافة. لا يمكننا مسبقاً معرفة أي الوثائق ينبغي إظهارها للجنود الذين سنصادفهم على الطريق أو كيف يمكنني إقناعهم بقانونية رحلتي. في الجيب الخارجي وضعت المفكرة الصغيرة، وفي جيب السروال وضعت القلم. كان القيام بذلك باستخدام لباسي الشخصي غير ممكن، إذ إنني لم أجلب معي عند قدومي إلى القرية، إلا تنانير طويلة وحذاءً رياضياً وصندلاً.

هكذا انطلقنا نحن الاثنان على طريق قسمه الأول عبارة عن طريق رملي عريض صاعد يقود إلى خارج القرية، لكن سرعان ما ينعطف باتجاه اليمين حيث نصل إلى ممر لم أر مثله من قبل. ونحن نسير بين الأحراج القاسية سمعنا من فوقنا طنين طائرات الدرون. بعد قليل وصلنا إلى تلة تطل على منطقة الحدود المدهشة. من هذا المكان أراني الدليل الطرق الثلاث. هناك سقطت القنابل، في أدنى نقطة بين جبلين. وهناك على قمة الجبل، إلى يسار المنطقة التي شهدت مقتل ٣٤ رجلاً وولداً، يمكن بوضوح رؤية نقطة عسكرية.

عاد المهربون من جديد إلى الجانب التركي من الحدود؛ هذا واضح من المحادثات عبر أجهزة اللاسلكي. لكن لم تنجح كل محاولاتنا لرصدهم فهم يفعلون ما بوسعهم للاختباء بين الشجيرات

والأحراش وينجحون في ذلك. رغم أن سماء تلك الليلة كانت صافية إلا أننا لم نستطع رؤية طائرات الدرون لأنها صغيرة وتحلّق على ارتفاع شاهق؛ لا يصلنا إلا صوتها. كم هي فكرة غريبة أن يتمكن الذين سوف يشاهدون الصور التي التقطتها هذه الطائرات، من مشاهدة صورنا.

تابعنا طريقنا وفجأة أمرني الدليل بالاختباء وراء الشجيرات. ركعنا وبدأنا نراقب بحذر من خلالها. ’هل ترين؟‘ قال لي وهو يشير إلى تلة مقابلة. ’جنود‘ أراهم أنا أيضاً؛ على تلة تبعد حوالى ٥٠٠ متر. إنهم يتحركون بشكل دائم لكي لا يتم رصدهم. ’هل يروننا أيضاً؟‘ سألتُ الدليل. ’دون أدنى شك، فهم يملكون أجهزة متطورة، إذا كنا نراهم بالعين المجردة، فأكيد نحن مرئيون من قبلهم‘. حافظنا على الهدوء وبعد مشاورات عبر أجهزة اللاسلكي مع أدلاء آخرين قررنا نحن الاثنان التراجع إلى الوراء قليلاً. ثم أردف الدليل: ’في هذه المنطقة لا يمكنكِ الجري بسرعة كبيرة، لذلك فإن مغادرة المكان الآن أفضل من الانتظار وتعريض نفسينا لخطر القبض علينا من قبل الجنود‘.

أستطيع إلى حدٍ ما،على الطرق الصاعدة، اللحاق به لكنني أفشل في ذلك خلال المسارات النازلة. مازلت أنزلق على الحجارة المتفرقة. جلسنا في البقعة نفسها التي مررنا بها في مرحلة الذهاب، فأخرج الدليل علبتي شراب فواكه من محفظته البلاستيكية وقدم لي شراب الكرز وقطعة كيك. ظهر الشفق وبدأت النجوم تتألق في كبد السماء.

دام الشفق بعض الوقت، وحينذاك كنت أستكشف المنطقة، فرأيت على التلة إلى يسارنا شيئاً ما يتحرك. في هذه الأثناء رن جهاز اللاسلكي الذي بجانبي. ‘تعالوا، إنهم هنا’ قال الدليل فقفزنا من مكاننا. ألقيت نظرة أخرى فرأيتهم يمرون بمحاذاة الجبل: صف من بغال محملة بشكل كبير ورجال يمشون إلى جانبها. ركضنا عبر الأحراج باتجاههم وصرت أسمع صوت الحوافر بشكل أوضح. ثم وصلنا إلى طريق أعرض نوعاً ما وصرت أمشي على حافة الطريق من أجل فسح المجال للقافلة.

مرت البغال بجانبي بشكل مندفع دون أي تردد، تمشي باتجاه القرية وهي تدهس الأحراج التي في طريقها، محاولة التوازن بأرجلها الأربع النحيلة تحت حمولة هائلة؛ طاقة جبارة!

جلس بعض المهربين يلتقطون أنفاسهم وعندما رأوني، صاحوا:‘أنتِ معنا، يا هلا بأختنا!’ وصافحوني. لحظات وأكملوا المسير. ثم طلب مني الدليل أن نكمل مع القافلة، لكن اللحاق بالقافلة لم يعد ممكناً بالنسبة إليّ، لذلك حاول الدليل أن يخفف سرعته لكي تتوافق مع سرعتي. وهكذا غابت القافلة عن أنظارنا ولم نعد نسمع أصوات الحوافر.

إن إعالة عائلتك في هذه المناطق تعني الجري في هذه الطرق الصخرية وأنت مراقب من قبل طائرات الدرون من الجو، ومن قبل الجنود على الأرض ومن فوق التلال من قبل المواقع العسكرية.

وتعني فوق كل هذا وذاك المخاطرة بالسير على الطريق نفسها التي شهدت مقتل ٣٤ شخصاً في ليلة واحدة.

عندما وصلنا إلى القرية كانت كل الحمولات قد أُنزلت من على ظهور البغال. جلس عدد كبير من المهربين على درج أحد البيوت يشربون الشاي. بدأ بعضهم بالتصفيق حالما شاهدوني، بالإضافة إلى التعبير عن التقدير من خلال الربت على كتفي. فبدأت بالضحك، لكنني كنت مبهورة نوعاً ما وكأن العالم انقلب رأساً على عقب، هل أنا من تستحق التقدير؟

تلاشت آخر شكوكي فيما إذا كانت الدولة تسمح بالتهريب أم لا. ليس فقط بسبب مشاهدتي للجنود، الذين بدورهم شاهدوني، في رحلتي مع الدليل، أو بسبب النقاط العسكرية في قمم التلال على مرمى حجر من مسار المهربين اليومي ومكان وقوع المذبحة، بل أيضاً بسبب الحياة اليومية التي عاينتها في قرية أورتاسو.

يمكن للمرء، ظهيرة كل يوم، مشاهدة مجموعة رجال وأولاد يقودون البغال على الطريق الرئيسة نفسها المتجهة نحو الحدود. ولا تبدو عليهم علامات تشنج بل يقومون بذلك كجزء من روتين حياتهم اليومية. وللمفارقة هذا الطريق هو نفسه الذي تسلكه الشاحنات العسكرية جيئة وذهاباً باتجاه النقاط العسكرية على قمم التلال.

التهريب والدولة والـPKK

أردت في دياربكر الاستفسار عن مصير المواد المهرّبة، لذلك تحدثت مع (س)، صحفي كُردي يعمل منذ ٣٠ سنة في هذه المنطقة. وعدته بعدم ذكر اسمه؛ لقد تعرّض (س) مرات عديدة للاعتقال لذلك فهو يخشى تكرار ذلك في حال زودني بهذه المعلومات باسمه الصريح. إنه خوف مبرر: فالقسم الأكبر من الصحفيين الذين يتعرضون للاعتقال، هم من العاملين في الإعلام الكُردي.

يروي (س) الحقيقة دون مواربة: 'يتفق قادة مجموعات المهربين مع ضباط الجيش في المنطقة على التوقيت الذي تسمح فيها نقاط التفتيش لمواد التهريب بالعبور. عندما تمر الشاحنات في اليوم والساعة المتفق عليهما، يغض الجيش الطرف عنها. أو يذهب رئيس الدورية العسكرية بنفسه إلى شاحنة التهريب ويصعد فيها ويلوح للعساكر الذين لن يقدموا بالطبع على تفتيش الشاحنة ومسؤولهم بداخلها'.

لكن إلى أي حد يمكنني الوثوق بتصريح كهذا من صحفي كُردي؟ فالصحافة الكُردية معروفة بنشاطها وبتعاطفها مع الـPKK، أليست هذه فرصته لتشويه سمعة الجيش؟ لكن (س) لديه الاستعداد التام لتقديم الصورة كاملةً، واضعاً اتهاماته في سياق منطقي.

كان التهريب عبر الحدود مع العراق وسوريا وإيران، مصدر دخل لأجيال عديدة، لكنه ازداد في التسعينيات. يقول (س): 'كان التهريب

جزءاً من استراتيجيةٍ تهدف إلى تجنيد حراس القرى. ففي المناطق التي يعمل فيها الناس حراس قرى وليس لديهم عمل آخر يحصلون من خلاله على دخل إضافي، يُسمح، بشكل ضمني، بالتهريب. كان الكثير من حراس القرى بحاجة إلى هذا الدخل لأن رواتبهم كحراس قرى لم تكن تكفي، فضلاً عن أنها بدأت مع الزمن تتناقص. كثيرة هي الحالات التي يعمل فيها الأب حارس قرية والأولاد في التهريب'.

لم يكن الجميع يملكون حرية قبول أو رفض العمل حراس قرية. ففي حالات كثيرة معروفة عن قيام زعماء العشائر بتسجيل كل رجالهم في هذه المنظومة، من أجل الحصول على السلاح والأموال التي يتم توزيع جزء منها على الرجال الذين يقومون فعلياً بحمل السلاح. مازال هذا الأمر يحصل حتى يومنا هذا؛ فالنظام العشائري القديم مازال فاعلاً وزعماء العشائر مازالوا موالين للدولة ويتمتعون بالنعيم بفضل هذا التعاون مع السلطات.

أما في المناطق التي تكون فيها سلطة العشيرة ضعيفة وليس لها سلطة على حراس القرى «الخاصين بها»، فكان يتم تعيين 'رؤساء للحراس'. مهمتهم ضمان قيام حراس القرى، الذين في منطقتهم، بوظيفتهم على أكمل وجه، ويكون هؤلاء عادة نقطة التواصل مع قادة الجيش المحليين. فعلى سبيل المثال، يقوم رئيس حراس قرية أورتاسو بالتواصل مع النقاط العسكرية عندما تكون هناك خطة للقيام بهجوم على الـPKK وتأجيل التهريب بضعة أيام'. لم أتحدث معه إلا في

مناسبة واحدة حيث قال لي، وهو يضع نظارات *ayran* الفخمة، بأنه لا يرغب في التحدث مع الصحافة.

يتم تنظيم عمليات التهريب عادة من قبل زعماء العشائر أو رؤساء الحراس أو وسطاء آخرين، يجتازون من وقت لآخر الحدود بشكل قانوني إلى العراق، لكي يعقدوا الصفقات هناك والاتفاق على الجانب المالي من العملية. يقول الصحفي (س): 'بعدئذ يقوم المهربون في المنطقة بتنفيذ الاتفاق. أما حصتهم فيحصلون عليها من رئيس العشيرة أو رئيس الحراس أو بعض الوسطاء'.

لدى (س) اطلاع كبير على الوضع في قريتي كول يازي وأورتاسو اللتين يصر على تسميتهما بالاسمين الكُرديين، باجوه وروبوسكي، يقول: 'ينتمي سكان باجوه وروبوسكي إلى عشيرتي كيسروان وغوريان لكنهما ليستا قويتين. لكن البعض منهم لا ينتمي إلى أي قبيلة وبالتالي ليس لهم زعيم. هذا يعني أنهم لا يعملون لمصلحة رئيس عشيرة بل لحسابهم الخاص. التنظيم هو من اختصاص حراس القرى أو وسطاء آخرين.

كانت عمليات التهريب قائمة منذ أمد بعيد قبل أن يكون للدولة أي دور فيها. صحيح أن السلطة التركية تسيطر رسمياً على منطقة الجنوب الشرقي، لكن لم يكن لها حضور ملموس: لم تتوافر في أجزاء كبيرة من المنطقة إلا طرقات معدودة، وكان هناك عدد قليل من المدارس وبعض المؤسسات الحكومية الأخرى، كما أن الجيش لم يكن موجوداً بشكل دائم. أما زعماء العشائر فقد كان ولاءهم للدولة

على العموم، ويعقدون معها الصفقات التجارية، ويفقرون رعاياهم ولا يهتمون بالضغط الذي يتعرض له رعاياهم لئلا يختل هذا التوازن الرابح.

لقد أدى حمل الـ PKK للسلاح إلى اختلال هذا التوازن، لكنه خلق مكانه توازناً جديداً: دخلت الدولة في هذا التوازن الجديد بالطريقة السابقة نفسها أي التعامل مع زعماء العشائر، لكن ضمن الحالة الجديدة لم تعد الأراضي هي المهمة كما كانا سابقاً، بل من أجل هدف نهائي هو هزم الـPKK. وهو ما توافقت عليه الدولة وزعماء العشائر. فالـPKK، كمنظمة ترتكز على مبادئ الشيوعية التي تناضل ضد نظام الدولة الكمالية وكذلك ضد الطبقة المسيطرة المستغِلة، هي عدوة الاثنين.

إن السماح بنشاطات التهريب، في نظر الدولة على الأقل، هو أسلوب آخر في محاربة الـ PKK: انشغال الناس والشباب بشكل خاص بالتهريب وتحصيل دخل مادي يقلل كثيراً من احتمالات انضمامهم إلى المتمردين. كما أنها تمنح الدولة سلطة معينة: كل من يعمل في التهريب ولا يوالي الدولة ولا يخدم حارس قرية، يكون أول من تتم محاسبته في حال تم القبض على المهربين.

هكذا لا تضع الدولة محاربة التهريب ضمن أولوياتها. لكن للمحافظة على التوازن: يتم فتح المجال أمام الناس للحصول على دخل عبر نشاطات شبه قانونية ويتم في الوقت نفسه تعزيز الولاء. للمحافظة على هذا التوازن تدعو الحاجة ليس فقط إلى السماح

بعمليات التهريب عبر الحدود بل أيضاً تسهيل ذلك عن طريق المحافظة على الممرات مفتوحة أمام أغلب مواد التهريب. لايتم التعرّض لعمليات التهريب وتوقيفها إلا في أوقات محددة تحكمها دوافع معينة؛ منها على سبيل المثال تقديم إثبات للشعب بأن الدولة تتصدى للنشاطات غير القانونية.

سألت الدليل، في قرية أورتاسو، الذي اصطحبني تلك الليلة إلى الجبال، عن الخطوة التالية بالنسبة إلى المواد المهربة؛ كيف ستمر الشاحنة المحملة بالسجائر والشاي عبر نقاط التفتيش؟ فزعم بأن المواد المهربة لن تقترب من أي نقطة تفتيش: سيقوم التجار بتجنبها وذلك بمتابعة العملية على ظهر البغال. ثم أردف 'هناك مزيد من البغال تنتظر على مسافات متفرقة من الطريق'.

نظرت إليه وأنا أرفع حاجبي: 'حقاً؟ لقد سمعت بأن نقاط التفتيش تغض الطرف أحياناً عن هذه المواد؟'. فرد بحزم وهو يقدم لي كأساً أخرى من الشاي :'لا، إطلاقاً'، هذا أمر مستحيل. السلطات متشددة تجاه التهريب؛ فهي لا تعرف شيئاً عن هذه العمليات'.

فحاججته قائلة:' لكن هنا في القرية السلطات تسمح بحدوث ذلـك، إذاً، أليس من المنطقي أن يكونوا متساهلين في تكملة المسار؟بدون تقديم أي حجج' ، نفى بحزم الفكرة مرة أخرى. يبدو لي من الأفضل نسيان ما سمعت.

في الأشهر التي تلت، سألت الكثير من الناس في كول يازي وأورتاسو ودياربكر، عن نقل المواد المهربة. فتبين بأن الروايتين

كلتيهما صحيحتان: يتم نقل جزء من المواد عبر نقاط التفتيش، والجزء الآخرعلى البغال.

حقول الماريجوانا في ليسا

إن ما يدعم رواية الصحفي(س) أيضاً، هو رحلة قمت بها إلى مدينة ليسا «منطقة زراعة المخدرات» في ديار بكر. ففي تموز عام ٢٠١٢ قام الجيش التركي «بأكبر عملية لغاية تاريخه ضد حقول المخدرات التابعة للـPKK الإرهابي»، حيث تم تدمير حقول تُقدر قيمتها بـ ٥٠٠ مليون ليرة تركية، بالإضافة إلى اعتقال العشرات، وقد شارك في العملية ١٥٠٠ جندي و٥٠٠ شرطي و٥٠٠ من حراس القرى و١٦ آلية مصفحة و٤ هليكوبترات.

يقوم الجيش عادة، في مناسبات كهذه، بدعوة الصحافة التركية ويختار بعض الصحفيين لمعاينة العملية من خلال طائرات الهليكوبتر في ساعات الصباح المبكرة، عند بدء العملية، والتقاط أفضل الصور. تُظهر المقاطع المصورة أعمدة دخان من الماريجوانا وآليات مصفحة ومصورين يركضون باتجاه هليكوبترات ريش مروحتها تصدر صوتاً كأنه صوت السوط، وكذلك باتجاه «المقر الرئيس» لإدارة العملية الذي هو عبارة عن طاولة تحت الأشجار وعليها أجهزة اتصال وخرائط للمنطقة وحولها ضباط ينسقون العملية. عبر التلفزيون ترى المراسلين بشعرهم المتطاير يجهدون أنفسهم بالصراخ لإيصال صوتهم عبر ضجيج الهليكوبتر، بالإضافة إلى آليات مصفحة؛ يتخلل هذا المشهد

موسيقى تصويرية لفيلم آكشن. هذه هي الطريقة التي تقدم فيها الدولة الرواية للمشاهد ومعها الرسالة التالية : تم توجيه ضربة قوية للمنظمة الإرهابية.

لم تكلف أيٌّ محطة تلفزيونية أو جريدة نفسها عناء الذهاب إلى القرى في ليسا والاستفسار من السكان عما حدث ماعدا الصحافة الكُردية التي كتبت على لسان القرويين أصحاب الحقول المدمّرة : ’إنها حقولنا؛ ليس للـPKK أيَّ علاقة بها. كيف سنتدبر معيشتنا من الآن فصاعداً؟‘.

غادرت بعد أسبوع تقريباً إلى ديار بكر. فقد أردت الوصول إلى ليسا عند سماعي أخباراً عن عملية المارجوانا ولكن في ذلك الوقت كنت في إسطنبول و لم أستطع ترك كل شيء والمغادرة مباشرة، لذلك وصلت إلى المنطقة بعد حوالى ١٠ أيام؛ لكن مع ذلك لم يكن الوقت متأخراً كثيراً لمعاينة ما جرى في حقول المارجوانا؛ إذ إنها لم تدمّر بشكل كامل. لكن كانت هناك أخبار أخرى تتعلق بالمسألة الكردية تمنيت لو كنت قريبة منها.

قررت في هذا الوقت الانتقال والعيش في دياربكر.إذ كيف لي أن أصبح متخصصة بالمسألة الكُردية وأنا جالسة في مكتبي في إسطنبول!؟ صحيح أن عدد الكُرد الذين يعيشون في إسطنبول هو أكثر من أي مدينة أخرى، لكن دياربكر هي القلب النابض لكُردستان ومنها أستطيع في اليوم نفسه الوصول إلى أي بقعة في الجنوب الشرقي، كما يمكنني بذلك معاينة الأجواء في المدينة ومحيطها والتحدث إلى الناس

في الشوارع وزيارة الساحات و الأسواق و التواصل مع الجيران. في الحقيقة، ما أحتاج إليه هو ترك الفكرة تختمر في رأسي والبحث في طريقة تحقيقها، لكن اتخاذ القرار هو أمر ضروري أيضاً تماماً كما حدث معي في عام ٢٠٠٤ عندما قررت العمل صحفية مستقلة في تركيا.

في صباح اليوم الذي بدأت مهمتي عن حقول المارجوانا، سمعت وأنا في الميكروباص الذاهب من دياربكر إلى ليسا أخباراً مؤسفة: قيام الـPKK بعملية تفجير عن بُعد لقنبلة مزروعة على جانب الطريق لحظة مرور قافلة عسكرية ما أدى إلى مقتل جنديين.

لم تأتِ شهرة بلدة ليسا فقط من وجود حقول المارجوانا فيها لكن أيضاً من الوجود الكبير للـ PKK في جبال الجزء الشمالي من المنطقة. إن وجود معسكرات الـ PKK في جبال قنديل على الحدود العراقية هو ما يجعل الأخبار تدور دائماً حول هذه المواقع ويجعل من السهل نسيان وجود مقاتلي الـ PKK في الأراضي التركية أيضاً، وخصوصاً في المناطق الجبلية مثل الأجزاء الشمالية من ليسا وكولب في محافظة ديار بكر، بالإضافة إلى محافظات بينغول وديرسيم (تونجالي) وفان وشرنك وباتمان وحكاري.

تحدثت في الأيام التي تلت مع العشرات من سكان ليسا والقرى المحيطة بها وكذلك مع السياسيين المحليين. المشكلة تكمن في أن كل السياسيين هنا ينتمون إلى حزب BDP المناصر للكُرد الذي يدير

كل المجالس المحلية في القرى، وبالتالي لن يقبلوا فكرة وجود علاقة للـ PKK بحقول المارجوانا. حيث قال لي أحد أعضاء هذا الحزب: «إن الـPKK يدين المخدرات لأنها تضر بأولادنا و يرفض بتاتاً التورط في زراعة المخدرات».

فضلاً عن ذلك، يرفض الناس هنا، وأغلبهم من أنصارالـBDP، سماع أي كلمة ضد الـ PKK و يجمعون على أن «الحقول تخص المزارعين المحليين» تماماً كما تردد الصحافة الكُردية. يوضحون ذلك بالقول بأن زراعة المارجوانا هي مثل التهريب؛ كانت موجودة قبل نشوب الحرب بين الدولة والمتمردين. ومع بدء الحرب قبل ثلاثة عقود أصبحت زراعة المارجوانا وتجارتها تدران أرباحاً أكبر. وبحسب القرويين، ازدادت النشاطات المتعلقة بالمخدارت بشكل ملحوظ في العقد الأخير. ويضيف أحد أعضاء الحزب قائلاً : «في تلك الأيام كان لدى الحزب الحاكم (حزب العدالة والتنمية) مخطط لمساعدة الناس على العودة إلى قراهم التي أُجبروا على تركها في التسعينيات لكن الخشية من انضمام الشباب إلى الـ PKK عند عودتهم وعدم وجود دخل للمعيشة، دفع الحزب الحاكم إلى السماح بزراعة المخدرات؛ فأيّ نشاط بالنسبة إليه هو أفضل من رؤية الشباب وهم يتجهون إلى الجبال.

تُقدر نسبة الذين يعتمدون في معيشتهم على زراعة المارجوانا بحوالى ١٠- ١٥ ٪، أما الآخرون فيعتمدون في معيشتهم على زراعة

محاصيل أخرى، بالإضافة إلى بعض الوظائف القليلة التي يوفرها معمل العلف المجاور للمدينة.

هنالك في محيط ليسا موقع عسكري كبير نوعاً ما، لكن عندما قمت باستكشاف المنطقة مشياً على الأقدام وفي السيارة لاحظت وجود نقاط عسكرية أخرى في مواقع استراتيجية، كما استطعت سماع طنين طائرات الدرون غير المرئية وهي تحوم فوق رؤوسنا، حيث كان الجيش يبحث عن منفذي الهجوم. إنها منطقة حرب ولا أظن أن السكان يبالغون عندما يقولون بأن الجيش يعرف كل شبر في هذه المنطقة ويعرف تماماً مواقع حقول المارجوانا. يوجه السكان إلى أنفسهم سؤالاً بلاغياً: «لماذا يدمّر الجيش أحياناً بعض الحقول فقط وليس كلها ضربة واحدة؟ لكي يتمكنوا من إعادة استخدامها بسرعة في حال احتاجوا إلى ذلك».

إنه سؤال بلاغي لأن السكان مقتنعون بأن السلطات العسكرية المحلية تستفيد من تجارة المخدرات بمصادرة جزء من المحصول أو تحصيل حصصهم نقداً. هذه ليست قناعة شخص معين من القرية بل رأي كل السكان هنا. اتصلت بالمقر الرئيس لحزب BDP في أنقرة وتحدثت إلى ايفرين جيليك عضو اللجنة الدولية لحزب BDP الذي لا يجد حرجاً من ذكر اسمه الحقيقي فقال لي: «الشرطة والدرك هما جزء من شبكة زراعة المارجوانا وتجارتها، الكل يعرف ذلك. وهذا الوضع مستمرمنذ الثمانينيات؛ إذ حوّلت الحرب تجارة المارجوانا

إلى تجارة رابحة. لقد تم إجبار الناس على ترك مناطقهم، لكنه وجب على الذين تمكنوا من البقاء تدبّر معيشتهم و إيجاد طريقة للتعايش مع الجيش. هكذا تشكلت هذه الشبكات من قرويين وحراس القرى وعناصر الجيش». يكررجيليك كبقية القرويين نفيه لوجود أي علاقة بين الـ PKK وتجارة المخدرات.

عدت إلى إسطنبول وتحدثت مع غاريت جنكيز،المحلل في المعهد الأميركي لآسيا الوسطى والقوقاز، والمتخصص في العلاقات بين السلطات العسكرية والمدنية، وشؤون الإرهاب وسألته عن موضوع المخدرات فقال: «إن كلا الجانبين ليس بريئاً تماماً كما يدعي. لا أعتقد بوجود سياسة عامة يستند إليها الدرك في أخذ حصة معينة من المخدرات لكن من السهل تصورقيام العساكر من تلقاء أنفسهم بالحصول على دخل إضافي عن طريق مصادرة جزء من المحصول أو أخذ حصة من الأرباح. كما يحصل الـPKK بدوره أيضاً على دعم مالي مصدره المخدرات لكن ليس بالقدرالذي تدعيه الحكومة. إن جزءاً من التبرعات التي يحصل عليها الـ PKK هي من أموال المخدرات لكن المقاتلين أنفسهم لا يشاركون في عمليات النقل أو البيع». ويضيف بأن الـPKK معروف بجمع «ضرائب» في المناطق التي يوجد فيها بكثرة. «لكن هذا أمر مختلف عن القول بأن حقول المارجوانا تابعة للمنظمة. كثيراً ما سمعت بأن سكان المنطقة مجبرون على دفع التبرعات للشرطة والجيش والـPKK أيضاً».

وبشكل ملحوظ أيضاً، تضمّن التقرير السنوي لعام ٢٠١١، الصادر عن المكتب الاتحادي لحماية الدستور (وزارة الأمن الداخلي الألمانية) الذي نُشر أيضاً في تموز، ٢٣ صفحة (من أصل ٥٠٠ صفحة) عن الـPKK. وتحت بند «النشاطات المالية والاقتصادية» ذكر التقرير بأن الولايات المتحدة تعتبر الـPKK منظمة تتاجر بالمخدرات لكن «في ألمانيا ليست هناك أية مؤشرات على تورطها المباشر في تجارة المخدرات».

أدت هذه الجملة إلى رد فعل ساخط من قبل الصحافة التركية. فهل كانت «العملية الكبرى ضد الـPKK» هي رد فعل على ما جاء في التقرير؟ هل تحاول تركيا فعلاً إثبات تورط الـPKK في تجارة المخدرات؟ ربما تم تضخيم الموضوع، فمن المستبعد أن يتم تخطيط عملية كبيرة كهذه في أسبوع واحد.

إن توافق توقيت هذه العملية مع نشر التقرير السنوي الألماني هو محض صدفة تماماً. صرحت الحكومة التركية، وبشكل خاص على لسان رئيس الوزراء أردوغان ووزير الشؤون الأوروبية و كبير المفاوضين مع الاتحاد الأوروبي ايكمان باغيش، بأن الاتحاد الأوروبي لا يقدم لتركيا الدعم الكافي في محاربتها للإرهاب وبأن هذه الحرب تصب في مصلحة أوروبا أيضاً لأن مخدرات الـPKK «تسمم الشباب الأوروبي» حسب تعبير باغيش في نهاية تشرين الأول ٢٠١١ خلال مؤتمر صحفي خاص بالصحفيين الأجانب كنت أنا شخصياً من ضمنهم.

كان التهريب في شرنك وزراعة المارجوانا في ليسا نشاطين قائمين منذ عقود وأصبحا، بعد اندلاع القتال بين الـPKK والدولة، جزءاً من الصراع، كل من يملك سلطة في هذه المنطقة يستفد منها ويسمح بها؛ فهي بالنسبة إلى PKK أحد مصادر التمويل، وبالنسبة إلى الدولة تكتيك للحد من التحاق الشباب بالـPKK، وبالنسبة إلى التجار مصدر لزيادة غناهم.

أما القرويون فهم الوحيدون الذين لا يملكون أية سلطة. إنهم يقومون بأعمال خطرة وغير محترمة، وهم أيضاً من يعاني فعلياً عندما تقرر الدولة بأن الوقت قد حان لإظهار التدابير الصارمة التي تتخذها ضد الـPKK، إذ يتم تحت أنظار الصحافة التركية، عرض شاحنات مليئة بالمهربين أو حرق حقول المارجوانا. إن قيامهم بتوجيه أصابع الاتهام إلى الدولة وتبرئة الـ PKK من أي تهمة، ليس بالأمر الغريب: إنهم متعاطفون مع مقاتلي الكريللا.

الـPKK: ابن حركة اليسار التركي

كان عليّ بذل جهد كبير نوعاً ما من أجل الوصول إلى صورة واضحة عن تاريخ الـPKK. من الصعب عدم التأثر بما يتم تقديمه هذه الأيام في نشرات الأخبارعن المنظمة، وماذا تمثل بالنسبة إلى مختلف شرائح الناس، والأوصاف التي تم وسمها بها، ابتداءً بـ«إرهابيين» وصولاً إلى «مقاتلي الحرية». كل ذلك هو سياق الحاضر.

أما تركيا في سبعينيات القرن الماضي، حيث قامت مجموعة من اليسار الثوري التركي والكُردي بتنظيم اجتماعات منزلية قادت إلى وضع أسس ما عُرف في سنة ١٩٧٨ بالـPKK، فقد كانت دولة مختلفة تماماً.

تعود نشأة ما سيُعرف لاحقاً بالـPKK إلى سنة ١٩٧٢ أو ١٩٧٣. ففي عام ١٩٧١ قام الجيش التركي بالانقلاب الثاني ومارس قمعاً شديداً ضد حركة اليسارالتي نشطت في الستينيات، حيث تعرّض الكثير من أعضائها للاغتيال أو الاعتقال. كما قام هذا الانقلاب بإلغاء الدستور الذي وضعه الجيش بعد انقلاب عام ١٩٦٠، والذي تضمن حقوقاً اجتماعية كثيرة وسمح بتشكيل الأحزاب السياسية.

تم حظر فصائل اليسار الأساسية والتجمعات الكُردية التي نشطت في الستينيات، كالمراكز الثقافية الثورية الشرقية DDKO (تم استخدام كلمة «شرقية» تجنباً لاستخدام كلمة «كردية» لئلا تصبح المراكز بشكل تلقائي غير قانونية)، وحزب العمال التركي (TIP) كما تم إسكات القيادة القديمة التي ضمت رموزاً كالكاتب موسى عنتر وعالم الاجتماع إسماعيل بشيكجي، الناشطين في DDKO. وتعرض أعضاؤه للسجن الطويل أو الإعدام. لكن تدميراً على هذا النحو خلق أيضاً ظروفاً جديدة أدت إلى ظهور مجموعة جديدة وقادة جدد.

في هذا السياق تأسست في عام ١٩٧٣ مجموعة (ADYÖD)، رابطة التعليم العالي لليسار الثوري الديمقراطي في أنقرة. وفي

الانتخابات الحزبية تم انتخاب عبد الله أوجلان (الطالب في كلية العلوم السياسية والمتوقف عن الدراسة، والموظف السابق في السجل العقاري) ضمن كادر القيادة الأساسية. كانت مجموعة ADYÖD هي محاولة لإعادة تنظيم اليسار الثوري؛ على الرغم من تعرّض الحزب للحظر بعد سنة واحدة من تأسيسه إلا أنه أحدث نقاشات حادة.

يعتبر يووست يونكرين، عالم الاجتماع والأنثروبولوجيا والمحاضر في جامعة Wageningen في هولندا، أحد القليلين في العالم الذين بحثوا في جذور الـPKK. يعود يووست إلى التاريخ قائلاً: «كان حق تقرير المصير والكفاح ضد الاستعمار من ضمن المواضيع الهامة التي تمت مناقشتها بشكل مكثّف ضمن أحزاب اليسار. وكانت إحدى المسائل هي تحديد مفهوم المستعمرة والاستعمار، وبالتالي تحديد فيما إذا كانت كُردستان مستعمرة تركيّة. إذ اعتبرت مجموعة أوجلان كُردستان مستعمرة تركيّة أو الأحرى مستعمرة دوليّة كونها مقسّمة بين عدة دول، بينما لم توافق أغلب أحزاب اليسار على هذا التوصيف لأن الاستعمار برأيهم هو مرحلة من الإمبريالية، وتركيا في ذاتها شبه مستعمرة أميركية، وبأن تركيا ليست قوة إمبريالية حتى تتمكن من استعمار الآخرين. وبالتالي كُردستان ليست مستعمرة تركيّة.

بعد حظر ADYÖD و محاولة المنظمة إعادة لم شملها، قرر أوجلان عدم الانضمام من جديد بل تأسيس مجموعته الخاصة.

اتخذت هذه المجموعة التي سمت نفسها ثوار كُردستان مساراً مختلفاً تماماً عن نهج باقي المنظمات في تلك الفترة.

يقول يووست يونكيردين: ’لقد جذبت المجموعات الأخرى مثل المجموعة الكُردية TSKO وRizgarî، الانتباه إليها لكونها استطاعت تشكيل أحزاب حقيقية لها منشوراتها الخاصة. بينما طوّرت مجموعة ثوار كُردستان نفسها بهدوء وانشغلت في وضع الأسس، من خلال النقاشات وتجنيد الناس وتشكيل مجموعة موثوق بها وموالية عبر اجتماعات منزلية، والتحدث بشكل معمّق عن النظرية والتكتيكات والنقد الذاتي والانعكاسات‘.

أراد أوجلان الاستفادة من أخطاء اليسار الثوري، وخصوصاً الحركتين الطلابيتين المتطرفتين، THKO وTHKP-C، اللتين تمت تصفية قادتهما في بداية السبعينيات: حيث تم إعدام الأسطورة دينيز كيزميش (Deniz Gezmiş)، بينما قُتل ماهر جيان (Mahir Çayan) مع ثمانية من رفاقه في اشتباك مع الجيش. يقول يووست يونكيردين: ’كان انتقاد مجموعة أوجلان لهذه المجموعات هو دخولها في مواجهة مع الدولة قبل الاستعداد الكافي. وهذا ما لم يفعله ثوار كُردستان‘.

تعبر الكلمات الأخيرة لـ دينيز كيزميش (Deniz Gezmis)، التي مازالت حاضرة بقوة وخصوصاً في حلقات الطلاب في تركيا وفي مختلف التظاهرات، بشكل كبيرعن كفاح اليسار في تلك الأيام: ’يعيش الاستقلال الكامل لتركيا. تعيش الأفكار النبيلة للماركسية- اللينينية. يعيش نضال الشعب التركي والكُردي من أجل الاستقلال. تسقط الإمبريالية. يعيش العمال والفلاحون‘.

كان يمكن لهذه الكلمات أن تكون لعبدالله أوجلان. لكن هذا الكلام يعتبر تجديفاً في نظرحركة ’اليسار‘ الحالية في تركيا. لقد ألحقت الانقلابات المتعاقبة، بما فيها انقلاب عام ١٩٨٠ ضرراً غير قابل للإصلاح بحركة اليسار، بالمناسبة استطاع الـPKK أن ينجو من مخالب انقلاب ١٩٨٠ بسبب ’الأساس‘ الذي وُضع في السبعينيات فأكسب الحركة القوة والمرونة. إن الأحـزاب التي تصف نفسها باليسار، هي في غالبيتها حركات قومية تركية وأحياناً متطرفة. حين تراهم يلوحون بأعلامهم مزينة بصور Deniz Gezmiş تتساءل في نفسك فيما إذا كان هؤلاء يدركون مغزى كلمات من يعتبرونه رمزهم. وفيما إذا كانوا يدركون بأن عبدالله أوجلان، الرجل الذي يكرهونه من أعماقهم، هو من المدرسة الفكرية نفسها.

يقول يووست يونكيردين: ’اعتمد نضال ثوار كُردستان على فكرة شائعة في تلك السنوات، ألا وهي النضال من أجل التحررالمحدد بمصطلحي الطبقات والأمم. تقول الفكرة بأنه يمكن تحرير تركيا فقط عندما يتم قطع روابطها الاستعمارية مع كُردستان. هذا يتوافق مع النظرية القائمة على أن تحرير الدولة المستعمِرة غير ممكن طالما هناك علاقة سلطوية بينها وبين المستعَمرة. باختصار، تحرير تركيا يمر عبر كُردستان‘.

لقد رأت مجموعة ثوار كُردستان بأن تطبيق حق تقرير المصير للمُستعمَرة، كُردستان، وتحرير المُستعمِرة، تركيا، يتم عبر إقامة

دولة خاصة بالكُرد: كُردستان. تألفت قيادة المجموعة من ٣ أتراك ومثلهم كُرد.ولم يتم تدوين كل ذلك حينذاك، ولا حتى بعد أن قدمت المجموعة نفسها كحركة يسارية في عام ١٩٧٧، بل بعد سنتين أي عند تأسيس الـPKK وإعلان أوجلان عن برنامج الحزب.

نفذ الـ PKK أولى هجماته ضد الدولة في ١٥ آب ١٩٨٤؛ على مواقع عسكرية في Eruh (محافظة سييرت) وSemdinli (محافظة حكاري). ووزعت المجموعة بعد الهجمات منشوراً تقول فيه: ’أيها الديمقراطيون والثوريون في تركيا، يا عمال تركيا، إن حركة HRK تقاتل ضد البربرية المتسلطة على حياتكم ومستقبلكم مثل غيمة سوداء‘. موجهين لهم الدعوة للانضمام إلى الحركة. ثمة أمر محيّر نوعاً ما في أنْ تسمي نفسها فجأة بـHRK؛ أي وحدات تحرير كُردستان، التي كانت حينذاك الفصيل المسلح من الـ PKK. بالمناسبة، بقي التعاون بين الـPKK وبقية الثوريين في تركيا سطحياً وهشاً: فاليسار التركي كان منقسماً وميؤوساً منه، كما تمكنت الدولة والإعلام من محاصرة الـ PKK بسرعة ونجحا في وصفه بالإرهابي والانفصالي.

كتب يووست يونكردين في إحدى مقالاته بعبارات واضحة بأنه يجب عدم تعريف الـ PKK بشكل أساسي بالمصطلحات العسكرية، ’فالـ PKK هي قبل كل شيء منظمة سياسية تم دفعها إلى استخدام العنف في ظروف لم تكن هناك طرائق بديلة (مسموحة قانونياً) للتعبيرالفعلي عن السياسة‘.

طلاب في الحركة الكُردية

شَدَّ قميصه البرتقالي الذي يرتديه للحظة وهزه وهو يقول بكل جدية: ’هذا ليس قميصي. إن مجرد ارتدائه هذا الصباح مصادفة لا يجعله ملكي‘. إنه صيف ٢٠١٢، أنا جالسة مع الطالب (ر) (٢٤سنة) على شرفة أحد المقاهي في مدينة Van الشرقية. هو ناشط في إحدى المنظمات الطلابية الكُردية وقد تمكّنت من لقائه بمساعدة أحد الأشخاص. أردت التحدث معه حول نشاطه التطوعي في مساعدة ضحايا الزلزال العنيف الذي ضرب Van في شهري تشرين الأول والثاني ٢٠١١ وعما إذا كانت لديه رواية حول هذا الحدث. لكن سرعان ما تحول الحديث عن الزلزال ودوره في تقديم المساعدة، إلى الحديث عن الـPKK.

وعندما سألته عن أحكام السجن التي صدرت في حقه، أجاب: ’حوالى ١٢ سنة‘. بالإضافة إلى قضيتين قيد التحقيق بتهمة كونه ’عضواً في منظمة إرهابية‘، وفي كلتيهما طالب المدعي العام بعقوبة ست سنوات وثلاثة أشهر. قبل عدة أسابيع كان معتقلاً لمدة أربعة أيام مع ٨ متهمين آخرين، لكن القاضي أمر بالإفراج عنهم واستكمال التحقيقات.

أردف والبهجة تشع من عينيه: ’لكن ثقي بأنهم لم يستطيعوا النيل من عزيمتنا حتى ونحن في السجن، كنا تسعة أشخاص في زنزانة واحدة، نتمشى فيها ونتحدث في السياسة. نمشي ثلاث خطوات ثم

نستدير فثلاث خطوات أخرى وهكذا. يقوم أحدنا بطرح فكرة ويدور النقاش حولها. كان الحراس يتسببون بانقطاع النقاشات عند استدعاء أحدنا إلى التحقيق. كنت أعرف بأنني ملاحق منذ سنوات، ألم تلاحظي ذلك في التداخل الصوتي في أثناء تواصلنا تلفونياً؛ رجالهم دائماً في الجوار'.

هذا هو السبب وراء لقائنا هنا في المقهى وتوقف حديثنا، الذي بدأناه البارحة في حرم الجامعة، بعد خمس دقائق. فقد جلس إلى الطاولة التي خلفنا شخصان عرف (ر) بأن أحدهما يعمل مخبراً. لم أنتبه إلى ذلك لكنني لاحظتُ أن (ر) قد صمت فجأة. فسألته 'ألا تريد الحديث؟' فأجاب 'بالطبع أريد لكن ليس بالقرب من الرجل ذي القميص الأبيض الذي يجلس إلى الطاولة التي بجانبنا. لنغيّر مكان جلوسنا'. في الطابق العلوي من المقهى وجدنا مكاناً في الزاوية تحت مكبرات الصوت بحيث تطغى الموسيقى على حديثنا ولا يسمعنا أحد، وهو بعيد عن مكان خدمة البار. نحن الاثنان وحدنا هنا.

لقد تبين من الاستجوابات بشكل واضح بأنه فعلاً كان مراقباً، إذ إنهم كانوا يعرفون عنه الكثير وعن عمله التطوعي بعد الزلزال. يقول (ر): 'تصوري أنهم سألوني «لماذا كنت توزع البطانيات؟» ما هذا السؤال غير المنطقي؛ طبعاً لأنه الشتاء والناس تعيش في الخيام والجو بارد جداً، أليس هذا بالسبب الكافي.؟

يعكس هذا السؤال شيئاً من الصراع الذي اندلع حول المساعدات

في أعقاب الزلزال: فمحافظة Van تُدار من قبل حزب الـ BDP المناصر للكُرد، لكن تنسيق المساعدات في هذه الكارثة تم في العاصمة أنقرة، حيث سيطرة حزب العدالة والتنمية AKP. اشتكت الإدارة الكُردية هنا صعوبة التعاون مع أنقرة، بينما كان تعاون أنقرة في مدينة Ercis، مركز الزلزال والمحكومة من مجلس بلدي يسيطر عليه حزب الـAKP، أسلس بكثير.

إنها مشكلة قديمة في تركيا: إذا كان رؤساء البلديات وأعضاء المجالس البلدية ينتمون إلى الحزب الحاكم، يكون التعاون بينهما أفضل بكثير من حالة كون المجلس مشكلاً من المعارضة. هذا الأمر لم يتغير مع وصول حزب العدالة والتنمية إلى السلطة. كان (ر) مُراقباً منذ مدة طويلة وعند اعتقاله، تم وضع عمله التطوعي في مساعدة ضحايا الزلزال في إطار سياسي.

إن 'المنظمة الإرهابية' التي ينتمي إليها (ر)، بحسب المدعي العام، هي KCK منظومة المجتمع الكُردستاني. وهي تجمّع من منظمات كُردية في تركيا وإيران والعراق وسوريا، تم إنشاؤها من قبل الـPKK.وهي تحت قيادة عبدالله أوجلان بالإضافة إل قياديين كبار من الـPKK، مثل مراد قره آيلان الذي كان حتى ٢٠١٣ القائد الأعلى في الجبال، وجميل بايق، الذي حل محل قره آيلان في هذا الشهر كأعلى قائد ميداني. تعتبر تركيا الـKCK منظمة إرهابية تماماً مثل الـ PKK.

هناك في قضية الـ KCK حوالى ٤٠٠٠ ناشط كُردي قيد

المحاكمة، الجزء الأكبر منهم لايزال معتقلاً منذ شهور أو سنوات. تفتقر هذه الأعداد إلى تفاصيل أكثر : فلا أحد يعرف بالضبط عدد الذين تتم مطاردتهم وعدد المعتقلين بتهمة الانتماء إلى KCK، إلى حين انتهاء المحاكمات. إنها قضية تجري محاكماتها في كل أنحاء البلاد؛ باختصارهي قضية كبيرة وغامضة بحيث يصعب تتبع تفاصيلها. حتى المحامي الذي يتابع القضية بتكليف من المكتب السياسي لحزب الـBDP، لا يملك القدرة على معرفة عدد الذين تتم ملاحقتهم.

يبدو أن (ر) لا يهتم كثيراً بمحاكمته. إذ إنه يشع بهجةً وهو يتحدث عن الأيام التي قضاها في السجن، نتيجة التضامن الكبير الذي وجده هناك وكذلك النقاشات المكثفة التي شحذت همته من جديد. سألته:'ألم يزعجك سؤالهم عن البطانيات التي قمت بتوزيعها؟' فأجاب: 'لا. على المرء أن يكون مستعداً لأي شيء. هذا ما نحن نواجهه، ونحن مستعدون له'.

يتذكر كيف أنه في سن المراهقة لم يكن 'جاهزاً'. فهو من سكان قرية قريبة من Van، ومن عائلة لا تهتم بالسياسة. كان (ر) مجتهداً في المدرسة وعندما بلغ السادسة عشرة فاز بمنحة دراسية مقدمة من الدولة لإكمال دراسته مجاناً. ووفقاً لنظام التنسيب تم تسجيله في مدرسة ثانوية في مدينة تقع على البحرالأسود، حيث عاش هناك في سكن داخلي يتبع للمدرسة'.

يقول: 'لم أكن أفقه شيئاً في السياسة وكنت أظن أن الـPKK

إرهابيون، ومع ذلك صادفت هناك المشكلات، فقد تم الاعتداء عليّ عدة مرات. فقط لأنني من محافظة Van ولكوني كُردياً، الأمر الذي لم أدركه حينذاك'. تتميز منطقة البحر الأسود بالنزعة القومية التركية، حيث يحصد الحزب القومي المتطرف MHP فيها أصواتاً كثيرة خلال الانتخابات. عانى (ر) خلال السنتين اللتين قضاهما في المدرسة هناك دون أن يخبر أهله عن العنف الذي واجهه. 'لو كنت أخبرتهم لربما أرسلوا مجموعة كبيرة من عشيرتنا لتلقين هؤلاء المعتدين درساً لن ينسوه، لكن بعد عودتهم أبقى وحيداً ومعرضاً للانتقام'.

استطاع (ر) أن يحجز له مقعداً في جامعة آنطاليا بعد أن نجح في امتحان القبول، فدرس الإدارة العامة. ابتسم وهو يتكلم عن الوظيفة التي تنتظره لو كان أنهى دراسته: 'عندئذ كان بإمكاني أن أصبح والياً'. الذي يتم تعيينه من قبل الحكومة، كوالي أولوديري الذي تعرّض للاعتداء في قرية كول يازي. يتمتع الولاة في جنوب شرقي البلاد بسمعة سيئة في التضييق على حياة الكُرد، فعلى سبيل المثال: لديهم صلاحيات لمنع التظاهرات ولهم القول الفصل في قراراستخدام شرطة مكافحة الشغب.

انتسب (ر) إلى النادي الطلابي اليساري المتخصص في دراسة الثورات التي قام بها أتراك وكرد معاً في تاريخ الجمهورية. 'وبالطبع تناولنا الـ PKK وناقشناه. لقد غيّرت تجربتي في منطقة البحر الأسود رأيي بالـ PKK. فعندما كنت أتعرّض للضرب من قبل القوميين كانت

الشرطة تعتقلني بدل أن تعتقلهم وتقوم بضربي مرة أخرى. عندما كنت مع أهلي كنت أعتبر موت الجنود في القتال ضد الـ PKK أمراً شنيعاً، لكن مع الأيام بدأت أفهم الـ PKK بشكل أفضل'.

لكن النادي الطلابي أصبح مُراقباً ولم يسلم الحرم الجامعي من عنف القوميين. وبلغ ذروته بين ٤ – ٦ نيسان ٢٠٠٨ عندما دخلت إلى حرم الجامعة مجموعة غريبة وبدأت بنشرالرعب فيها. فقد تبين أن المتهم الأساسي،عمر أولوسوي، الذي بدأ بإطلاق النار والذي لديه وشم على جبينه، هو عضو في تنظيم 'الشباب المثالي' الذي هو شبكة من الأفرع المحلية لمنظمة الذئاب الرمادية التابعة للحزب القومي MHP. يقول (ر):'لقد رأيت ذلك بنفسي، ولم أعد أشعر بالأمان في الجامعة لذلك غادرت إلى Van وبدأت بدراسة الاقتصاد'. في هذه الأيام، يقول (ر)، لم يعد يفاجئه شيء، فقد أصبح مستعداً لكل شيء.

الانضمام إلى الـPKK أم لا؟

أمضى (ر) كثيراً من الوقت في السنوات الأخيرة في قراءة كل شيء عن الـ PKK، أو 'الحركة' كما يفضّل تسميتها: 'حاولت قدر المستطاع أن أعيش وفق أفكار الحركة'. وجوهرها برأيه هو حب الوطن إلى أبعد حد، ومواجهة عيوبه الذاتية. إنه يسعى بكل جهده إلى أن يصبح شخصاً يتحلى بأفضل الصفات الإنسانية. 'وهذا ليس من أجل كُردستان فقط' يكرر هذا القول مراراً. 'في الحقيقة، ليس

للأمر علاقة بأن يكون الشخص كُردياً؛ بالمعنى الضيق تتعلق بالمسألة الكُردية، لكن في الواقع تتعلق بكينونة الإنسان'.

كانت تلك هي اللحظة التي شد فيها قميصه الذي يرتديه وقال بأنه ليس قميصه. 'إن اقتناء الإنسان أشياء زائدة عن حاجته هو أمر غير مستحب، كما أن رمي الأغذية أيضاً أمر غير مقبول، لأنه بذلك يساهم في النظام الرأسمالي وموت الآخرين جوعاً. لنفرض أن عاملاً توفي في حوض بناء السفن في إزمير، يجب عليّ عندئذ فعل شيء ما. وإذا لم أفعل فأنا مقصّر. ما الذي يمكن فعله؟ يمكنني، على سبيل المثال، العمل مع اتحاد الطلبة على تنظيم تظاهرة احتجاج وإصدار بيان صحفي يتضمن الدفاع عن حقوق العمال'.

وأنا أستمع إلى هذا الكلام قلت له:'أنت قاسٍ جداً على نفسك'، فأجاب معترضاً ' لا، أبداً، بل على العكس، كلما عاش الإنسان الحياة بطريقة أفضل، خفف الحمل عن نفسه، وأصبح حراً؛ وعندئذ فقط يستطيع مساعدة شعوب العالم على التحرر. كل ذلك من أجل هدف أسمى'.

إن فكرة كُردستان مستقلة بالنسبة إليه ليست جزءاً من النضال. 'الـPKK أيضاً تخلى عنها' يضيف قائلاً. إنه يتبع نهجها بدقة : فمنذ اللحظة التي أعلن أوجلان أن كُردستان مستقلة لم تعد هي الهدف، تخلى أيضاً كل من يعتبر نفسه جزءاً من الحركة عن هذا المطلب. يقول (ر): 'وأنا أرى بأن ذلك منطقي. فكُردستان ستكون دولة قومية مثلها

مثل تركيا، ونحن نرى المآسي التي تنتج من دولة كهذه. لذلك يجب عدم السعي إلى هذا الهدف'.

لكن، يضيف، لايزال النضال ضرورياً: 'فالعيش وفق ثقافتنا الخاصة والتكلّم بلغتنا وإدارة حياتنا هو حقنا الطبيعي. النظام يريد مجانسة الكل، لذلك نضال المرء من أجل ثقافته هو نضال ضد النظام'.

سألته فيما إذا كان قد فكّر في الرحيل إلى الجبال. فأجاب بأن الانضمام إلى الـPKK هو 'أمنية كبيرة'. وأردف:'الأمر متروك للظروف، وهي الآن غير مواتية للقيام بذلك'. فسألته عن قصده بالظروف، فأجاب 'مازلت أعاني بعض النواقص'.

إن المتتبع للقنوات الكُردية، مثل RojTV وNûceTV والقناة الموسيقية MMC، التي تبث عبر الأقمار الصناعية من أوروبا، يلاحظ عرضها لمقاتلي الـPKK رجالاً ونساءً وهم يمشون في الطبيعة الساحرة بالعتاد الكامل منها بندقية الكلاشنيكوف، ويلعبون كرة الطائرة في المروج الجبلية، ويؤدون الرقصات الشعبية ضمن حلقات دبكة كبيرة أو يغنون الأغاني. كما يتم بث صورهم بالتصوير البطيء وهم يترجحون في أرجوحة مربوطة بين شجرتين. لكن لا يتم بث صور العنف والموت، وفقدان رفاق، وأجساد مشوهة، ومصاعب العيش في ظروف جوية قاسية في أعالي جبال تركيا والعراق. فهم الأبطال، أو أقرب إلى القديسين، الذين عثروا على الحرية، التي لم يعيشوها قط في تركيا، في جبال كُردستان، وهم هناك يقاتلون بشجاعة من أجل شعبهم.

’لكن أليس قتل الناس هو ضد المبادئ الإنسانية‘ سألته. فأجاب (ر):’هدفهم الأساس ليس القتل، لكنهم بالطبع مجموعة مسلحة. هم مضطرون لحمل السلاح للدفاع عن أنفسهم، إنهم ليسوا مسلحين لزرع الموت والدمار‘. فسألته: ’لكن مع ذلك فهم ينفذون عمليات هجومية؟‘ فأجاب: ’هذا صحيح، يقومون بالهجوم. إنها حرب. بعد مذبحة أولوديرى، نفذوا هجمات انتقامية. هكذا هي الحرب‘.

يروي (ر) عن أصدقائه الذين اختفوا فجأة؛ إذ التحق أحدهم قبل ٥ أو ٦ أشهر بالـPKK: ’أثناء تقديم المساعدة بعد وقوع الزلزال ذهبنا إلى أحد المنازل لكي نستحم، فكان تلفزيون RojTV يبث صوراً عن جنازة أحد مقاتلي الـPKK. لقد كانت جنازة أحد الأصدقاء الحميمين. بعدها لم أعد أستطيع التركيز على عملي؛ فقد قفزت كل ذكريات الطفولة إلى مخيلتي‘.

سألته هل لي أن أعرف ’بماذا تتميز عن أصدقائك؟ لماذا هم ذهبوا وأنت لا؟‘ في هذه اللحظة تحوّل الحديث من أفكار الحزب إلى الحديث عن الخيارات الشخصية؛ استمر (ر) في الكلام بهدوء فقال:’أصدقائي توقفوا عن الشك وقرروا التضحية بكل شيء، أما أنا فقد كنت أحس بوجوب طرح كل سؤال بصراحة تامة قبل الانتقال إلى غيره‘. فسألته: ’وما هي تلك الأسئلة؟‘ فردّ: ’لم يُطرح عليّ سؤال كهذا من قبل؛ لا أعرف‘. لم أصدقه، فلا بد أنه طرح على نفسه سؤالاً كهذا. قلت له هذا، فبدأت الدموع تترقرق في عينيه:’ كما تعلمين، لا

يولد الانسان ويقرر فيما بعد بشكل تلقائي الذهاب إلى الجبال. يجب عليه أن يكون مستعداً للتضحية بنفسه وهذا يتطلب أولاً معرفة الذات والتفكير في ذلك. يجب أن ينظر إلى عينيه. وهذا هو خوفي فأنا لا أجرؤ، ربما أصل إلى النتيجة بأنني أصلح أن أكون مقاتلاً وأمشي باتجاه الجبال، لكن في الوقت نفسه ربما أكتشف بأنني مثل باقي الناس الذين تعودوا، رغم كل شيء، على العيش ضمن هذا النظام'.

متهم في قضية KCK

بعد فترة قصيرة من وجودي في قرية كول يازي، قابلت طالباً ذكّرني بـ (ر). أصغر سناً وأقل إيديولوجيةً لكنه صعب المراس بقدر جديته. أسميته (هـ). متهمٌ هو أيضاً بقضية KCK، لكن بتهمة نشاطات (قانونية) في مدينة أخرى وفي جامعة أخرى. وقد اتهم بتنظيم تجمع لإحياء ذكرى مجزرة الكيمياوي التي ارتكبها صدام حسين في عام ١٩٨٨ في قرية حلبجة الكُردية.

تعرفتُ إلى (هـ) مساء أحد الأيام في بيت بكيزا، حيث أتى إلى هناك لأنه سمع بوجود صحفية أجنبية تود الإقامة فترة في القرية. تحدثنا عن القصف، لكن سرعان ما انتقلنا إلى الحديث عنه شخصياً، فهو طالب لا يقضي أيامه في مقاعد الجامعة في المدينة بل يعمل راعياً في القرية لأنه معرّض للاعتقال إذا ما وجد في الحرم الجامعي بتهمة

’الانتساب إلى منظمة إرهابية‘ أو ’القيام بالدعاية لمنظمة إرهابية‘، أي KCK/PKK.

جلسنا على الأرض في بيت بكيزا نشرب الشاي. أما بكيزا والأولاد فقد ذهبوا إلى العائلة، أي بإمكاننا الحديث دون أي إزعاجات. أخبرني (هـ) بأنه عضو في اتحاد الطلاب الكُرد. ’هناك جامعات عديدة لديها تجمعات كهذه وجميعها تحت رقابة السلطات. الذي حدث أنه في مطلع السنة، حيث لم أكن حينذاك في الجامعة، تم اعتقال كامل المجموعة بتهمة الانتساب أو الدعاية للـ PKK. تم الاتصال بي وإخباري بما حدث فقررت المجيء إلى القرية والابتعاد موقتاً عن الجامعة‘.

سألته: لكن أليس بإمكان الشرطة أن تأتي إلى القرية وتقبض عليك؟ فرد قائلاً: ’الاعتقالات تمت بعد شهر من القصف، وآمل أن لا يخطر ببال الشرطة أن تأتي إلى هنا لاعتقال طالب. هنا أشعر بالأمان. لكنني لا أستطيع مغادرة القرية إلى أي مكان آخر. عند أول حاجز تفتيش سيتعرفون إليّ ويسلمونني إلى السلطات. المكان الوحيد الذي أذهب إليه هو المروج التي ترعى فيها ماعز القرية وهو المكان الذي تقوم فيها النسوة بحلب الماعز. الطريق إلى هناك يمرعبر الطبيعة حيث لا وجود لحواجز تفتيش‘.

تعتبر قرية كول يازي بالنسبة إلى (هـ) سجناً مفتوحاً. كان القصف قد أودى بحياة اثنين من أولاد عمه، ليس لديه أي ثقة بعمل لجنة

التحقيق البرلمانية على اكتشاف السبب الحقيقي وراء مقتل ٣٤ مهرباً. إذ يقول: 'ما الذي سيدفعهم إلى كشف ظروف المذبحة التي ارتكبوها بشكل مقصود؟' كما أنه مقتنع بأن القصف لم يكن مجرد خطأ بل كان فعلاً مقصوداً، ومقتنع أيضاً بأن ذلك حدث 'لأننا كُرد'.

تحدث هذا المساء كثيراً عن المسألة الكُردية، ابتداءً بزعيم الانتفاضة الشيخ سعيد في العشرينيات وصولاً إلى زعيم الـ PKK عبدالله أوجلان، وتكلّم عن تاريخ الكُرد في تركيا، وربط ذلك بشكل متكرر بوضعه وبما حدث في القرية. كان الافتقار إلى حرية التعبير عن النفس هو المحور الرئيس لحديثه. وبأن المنظمة الطلابية التي ينتمي إليها تتعرض للهجوم بشكل متكرر من قبل الطلاب القوميين الذين تقوم الشرطة بحمايتهم وتعتقل فقط الطلاب الكُرد. إنه الافتقار إلى حرية التعبير عن رأيك، دون أن يتم النظر إليك فوراً على أنك تقوم بالدعاية للـPKK. وعن أولاد عمه الذين ماتوا في القصف، والذين لم يملكوا غير العمل في التهريب لكي يحصلوا على لقمة العيش.

مهزلة في قاعة المحكمة

قررت في بداية نيسان ٢٠١٢ حضور محاكمات قضايا الـKCK في محكمة دياربكر. يجري النظر في قضايا الـ KCK في المحاكم المنتشرة في أنحاء البلاد كافة، من أرضروم الواقعة شرقاً إلى إزمير في الغرب، لكن محكمة دياربكر هي الأكبر. واليوم تجري محاكمة ١٥١

شخصاً دفعة واحدة، حضر منهم ٨٠ فقط. غياب الباقين هو إما بسبب الإفراج عنهم قبل البت النهائي في قضاياهم (قسم منها حاضر في القاعة لمساندة زملائه) وإما بسبب المرض وتعذّر جلبهم إلى القاعة.

جلستُ طوال اليوم وأنا مشدوهة من المسرحية التي تجري أمام ناظري في قاعة المحاكمة. اللاعبون هم: القاضي، والمدعي العام، والمتهمون، والدرك، والحضور(المؤلف من أهالي المتهمين وأصدقائهم). المتهمون جالسون أمام القاضي؛ الرجال على اليمين والنساء على اليسار وحولهم يقف جنود الدرك الذين يتضح من أعمارهم أنهم يخدمون الجندية الإجبارية. كما يقف بعض الدرك حاجزاً بين المتهمين الرجال والنساء. على اليسار يجلس المدعي العام، وعشرات المحامين على الجانبين الأيسر والأيمن. أما جمهور الحاضرين فيجلس خلف سور منخفض في ستة صفوف من المقاعد تتسع لبضع عشرات من الناس.

وحال إحضار المتهمين إلى القاعة اندلع ضجيج من الغمغمة المتواصلة. فقد اقترب الجمهور من السور الفاصل، والمتهمون مطوقون بالدرك؛ وبدأ الكل يتكلم معاً. كيف الحال؟ كيف أحوال العائلة؟ أبي، أمي، الأولاد؟ أنا مسرور برؤيتك! كم أنا سعيد بمجيئك! يلوحون بعضهم لبعض ويرسلون القبل، ويحيون بعضهم بعضاً بوضع اليد على الصدر وهز الرأس.

لمحتُ في القاعة بعض الوجوه المعروفة، عضو البرلمان عن حزب الـBDP سلمى إرماك من شرنك، ومحرم إرباي، الناشط في

مجال حقوق الإنسان ومسؤول المكتب المحلي لمنظمة حقوق الإنسان المستقلة IHD في دياربكر. ومع تشغيل القاضي الميكروفون وإعلان افتتاح الجلسة جلس الجميع في أماكنهم.

لم يتخلل المحكمة أي لحظة هدوء. فالمتهمون يتصرفون كأنهم في مقهى. يدردشون بعضهم مع بعض، ويحركون كراسيهم، والرجال يتواصلون مع النساء رغم الدرك الذين يفصلون بينهم. بعض المتهمين يجلسون بشكل معاكس على كراسيهم ورؤسهم بين أيديهم على مسند الكرسي، وآخرون يسندون رؤوسهم إلى أكتاف زملائهم. ولا أحد منهم يعير أي اهتمام لما يقوله القاضي.

ساد بعض الهدوء في البداية فقط. عندما يقرأ القاضي أسماء المتهمين الذين يجب عليهم تأكيد حضورهم، فيجيبون باللغة الكُردية ’Ez livirim‘ أي أنا موجود. ليس مسموحاً هنا أن يجيبوا بلغتهم لكن هذه الجملة قصيرة جداً بحيث لا يتمكن القاضي من إسكات ميكروفون المتهم من على منصته.

لكنه لاحقاً، أثناء جلسات هذا اليوم، نجح في ذلك. عندما يُسأل المتهم عن أمر ما، يجيب باللغة الكُردية أحياناً، فيقوم القاضي بعد بضع كلمات بإسكات الميكروفون، لكن المتهم يستمر في الكلام دون ميكروفون مما يضطر محاميه أو محاميها إلى التدخل باللغة التركية. فيدوّن كاتب العدل أن المتهم قد أجاب «بلغة غير معروفة».

تحدثت خلال إحدى الاستراحات في ’غرفة المحامين‘ مع محمد أمين آكتار، رئيس نقابة المحامين في دياربكر. إنها غرفة صغيرة

مكتظة بالمحامين الذين يرتدون أثواباً سوداء براقة بياقات عنابية تتدلى على طيات خضراء غامقة. ويتم تقديم الشاي بشكل مستمر في مطبخ صغير في الزاوية، وهناك براد مليء بمشروبات منعشة.

قمت بلعب دور محامي الشيطان وسألت آكتار : أليس من المنطقي أن يقوم القاضي بعدم السماح للمتهمين بالتكلم باللغة الكُردية؛ أليس حق الدفاع بلغتك الأم، وهو قانون موجود في تركيا، مخصصاً أصلاً للناس الذين لا يتقنون اللغة الرسمية؟ كالأجانب والكُرد كبار السن والعرب وآخرين ممن لا يجيدون التركية بشكل كافٍ أو لا يجيدونها أبداً؟ كل المتهمين في قاعة المحكمة هم من كُرد ذوي مستوى تعليم عالٍ وهم في الغالب يجيدون التركية بطلاقة أكثر من الكُردية أو الزازائية. إذاً، لماذا يصرّون على التحدث بلغتهم الأم؟

أجاب آكتار بأن ما تقولينه ربما يسري في نظام ديمقراطي لكن ليس في تركيا، وخصوصاً في قضية KCK: ʼفهي محاكمة سياسية صرفة، المقصود منها إسكات الحركة السياسية الكُردية. ليست هناك أية إثباتات، فكل المتهمين تم اعتقالهم وهم يقومون بنشاطات قانونية. ومن ثم بعد هذه المعاملة هل عليهم أن يتصرفوا بعيداً عن السياسة، والدفاع باللغة بالتركيّة؟ بالطبع يطالبون بحقهم في التكلّم بلغتهم الخاصة. وهذا من حقهم وفق المعاهدات الدوليةʻ.

إن حقيقة عدم وجود أية أدلة ضد المتهمين اتضحت بشكل جلي في هذا اليوم. كانت جلسات هذا الأسبوع مخصصة لقراءة آلاف الصفحات من لوائح الاتهام. لم يكلف القاضي نفسه عناء الاستماع،

وإنما القراءة بملل وصوت رتيب. يتكون 'الدليل' على الأغلب من تسجيل (في الغالب غير قانوني) لمحادثات تليفونية لا تشير إلى أيِّ شيء له علاقة بالموضوع؛ محادثات، على سبيل المثال، حول اجتماع على الشكل التالي:

'مرحباً كيف الحال، تمام شكراً، وأنت كيف أحوالك، هل ستأتي في المساء، نعم لكن متأخراً قليلاً، هل سيأتي الآخرون أيضاً، نعم، وهل نحن بحاجة إلى أشياء أخرى غير الاستمارات، لا لا أعتقد ذلك، حسناً نلتقي مساءً، إلى اللقاء، انتبه إلى نفسك، أنت أيضاً'.

وهكذا على هذه الوتيرة لعدة ساعات. كان المتهمون والحضورأحياناً يضحكون بصوت عالٍ من بعض الجمل لأن الأدلة في المحادثة التي يتلوها القاضي كانت مثيرة للسخرية (هل ستجلب معك بندورة؟) فيتدخل القاضي: 'الهدوء رجاءً، ليس هناك ما يدعو للضحك'. بعد توبيخ كهذا، يسود الهدوء بين المتهمين لحظات ثم تعود التمتمة من جديد.

وأثناء الاستراحات كانت طقوس التواصل بين المتهمين والحضورتتكرر: فالمتهمون يحاولون الإفلات من حصار الدرك، والحضور يتجمع عند السور الفاصل، ويصيحون ويلوحون ويحيّون بعضهم بعضاً. وأنا موجودة بينهم، أراقب وأستمع، إلى أنْ تواصل أحد الجالسين بجانبي مع سلمى إمراك وهو يشير إليّ: يشرح لإمراك بأنني صحفية هولندية. عندئذ وضعت يدها على قلبها وهزت رأسها بالتحية.

فالصحافة الأجنبية قلما تحضر محاكمات، إذ إنها لا تنال إلا قليلاً من الاهتمام في الصحافة الغربية، وعليه فإن حضور أي صحفي أجنبي هو أمر محل ترحيب. رددتُ على إمراك بالتحية نفسها متمنية أن تكون قد قرأت حركة شفتيّ 'انتبهي لنفسك'.

ما أدهشني بشكل كبير، ليس الحديث بين المتهمين والحضور أو الثرثرة والنوم على مقاعد الاتهام، بل الأجواء المريحة في المحكمة، فقد توقعت أجواء مزعجة أكثر(حتى عندما كانوا يتكلمون 'بلغة غير معروفة')، كما أن المحامين لم يكونوا يرفعون أصواتهم عندما يأتي دورهم في الكلام. كانت قوات الأمن على مدخل المحكمة تفتش الزوار، حيث يتم تقليب الحقائب رأساً على عقب دون ان تصدر أي كلمة اعتراض.

فسرت كل ذلك في البداية بالعجز. فالمتهمون ليس لهم أي تأثير في تغيير مجرى محاكمتهم، والمحامون لا يتوهمون القدرة على فعل شيء لمصلحة موكليهم، والحضور أتوا لرؤية أحبتهم والتكلم معهم إن أمكن، بعيداً عن السياسة.

'إنهم يدمرون حياتنا'

لكنني أدركتُ لاحقاً أنه لا علاقة لهذا الأمر بالعجز. فهؤلاء السياسيون ونشطاء حقوق الإنسان والقياديون الذين يجري تعقّبهم، لا يعترفون أصلاً بهذه المحكمة. إذ إن النظام الذي يتهمهم لا يستند

إلى ما يجب أن يكون عليه نظام القضاء: العدالة. بالنسبة إلى الكُرد هذه المحكمة تمثل الدولة التي لم تعمل يوماً ما على حمايتهم طوال تاريخ الجمهورية، بل على العكس أنكرت وجودهم وقمعتهم وصهرت هويتهم وقتلتهم. فالمتهمون وعوائلهم والمجتمع الكُردي بأكمله ينظرون إلى قضية الـKCK كفصل آخر من تاريخ القمع الطويل.

وهو ما اتضح أيضاً من الحديث الذي أجريته بعد عدة أشهر في قرية كول يازي مع والديّ الطالب (هـ). فقد كنتُ قد طلبتُ من (هـ) عدة مرات أن يكلمني عن الأمر الذي يمنعه حتى الآن من الالتحاق بالمقاتلين في الجبال. بقي هذا السؤال يؤرقني: لماذا يلتحق بعض الكُرد بالجبال والبعض الآخر لا؟ ما الذي يفرّق هذه المجموعة عن الأخرى. في المرة الأولى التي سألت فيها (هـ)، كان جوابه: 'من قال لك بأنني لن أذهب؟'. كم كنت سعيدة في كل مرة أعود فيها إلى القرية وأراه لايزال موجوداً.

في أحد الأيام أضاف إلى جوابه السابق بأنه لا يذهب لأن والديه لا يسمحان بذلك. فسألته 'وهل طلبت ذلك منهما؟' فأجاب: 'لا طبعاً، فهذا أمر غير قابل للنقاش لكنني أعرف أنهما ضد الفكرة ولن يسمحا برحيلي'. فطلبت منه أن أناقش الموضوع مع والديه بوجوده. فرفض الفكرة من أساسها، وقال: 'بإمكانكِ الذهاب إليهما والتحدث في الموضوع لكن ليس بوجودي، لا أستطيع القيام ذلك، صدقيني'.

قمت في ظهيرة أحد الأيام بزيارة أهل (هـ). لكن هو نفسه كان

مع بعض الرجال خارج القرية في المروج يرعون الماعز. أعرف أمه، بيتها يقع في الشارع المؤدي إلى بيت بكيزا، لها بضعة أحفاد ألاعبهم وأدردش معهم، وفي كل مرة أسير من أمام منزلها تدعوني لزيارتها. لكننا لا نستطيع التواصل عندما لا يكون بصحبتي مترجم، فهي تتكلم الكُردية فقط. مع ذلك تستطيع كلانا قراءة أحاسيس الأخرى بسهولة. هي تقدم الشاي مع كلمة *dixwe* التي تعني 'شرب' (أو الأحرى 'أكل'؛ الكلمة الرسمية لـ 'شرب' هي vedixwe، لكن القرويين لا يكترثون لهذه التفاصيل)، وثم تكررصب الشاي كلما فرغت الكأس. نتواصل بالإشارات ونتبادل النظرات، ونتبادل إمساك الأيادي تعبيراً عن المحبة.

شرحتُ لها، بواسطة المترجم، بأنني أريد التحدّث عن (هـ). وبأنني تحدثت مطولاً معه عدة مرات (وهي على علم بذلك) وبأنني متأثرة بقصته. وبأنني قلقة حياله أحياناً، لأنه يعاني الحالة نفسها التي تدفع الشباب الكُرد للالتحاق بالجبال: فهو متعلم ومطلع على التاريخ الكُردي بشكل جيد، وهو مصدوم أو غاضب مما فعلته الدولة به أو بعائلته، ومصمم على النضال. سألتها هل هي خائفة بأن يقرر يوماً ما الذهاب؟

ردت: 'قلت له عدة مرات بأنني ضد ذهابه إلى الجبال، وبأنني أفضل أن أراه في السجن من أن أراه يُقتل من قبل الجيش'. لكنها عادت وقالت: 'ولكن هل هذا يعني أن هذا الكلام سيمنعه من الذهاب؛ فهو بشر، وشاب يفكر في الحياة، أفهم ذلك، ربما يستطيع أحدهم إقناعه.

سنحاول حل مشكلاته بحيث يستطيع إتمام دراسته ونيل شهادته. أمامه مستقبل جيد'.

إن حمل أي شاب أو فتاة للسلاح، هو في الغالب مدعاة لحزن كبير للعائلة الكُردية، وقليلة هي العائلات التي تسمح لأولادها بالذهاب. لكن في الوقت نفسه يكون خيار الشاب الالتحاق بالـ PKK مصدر فخر لعائلته على الأغلب. سألتُ والدة (هـ) كيف سيكون شعوركِ في حال سمعتِ بأن ابنك قد التحق بالجبال، فردت 'لن نكون منزعجين'.

فجأة ونحن نتحادث دخل زوجها، رجل صغير الحجم، هادئ، لطيف، ذو وجه مدبوغ وذو تجاعيد، يعلوه الحزن بشكل طبيعي، لكنه أحياناً ينفجر فجأة ضاحكاً كالأطفال. يرتدي دائماً اللباس التقليدي الكُردي الأخضر الغامق: سروال عريض وسترة خضراء أو جلباب، ويلف حول خصره قطعة قماش طويلة وعريضة. ويضع على رأسه دائماً كوفية مرقطة بالأسود والأبيض. يبدو متعباً لذلك استلقى على إحدى الوسائد الطويلة بجانب الحائط وطوى سترته الخضراء واستخدمها مخدة.

عند سماع حديثنا، اقترب منا وقال بالكُردية:' كما تعلمين، نحن نحاول تربية أولادنا بشكل جيد حسب تقاليدنا. وننقل إليهم قيمنا، ونهتم بإيجاد الشريك المناسب لهم، لكي يتزوجوا ونساعدهم على تنشئة عوائلهم، لكن بعد كل هذا تأتي الدولة وتقصفهم أو تطاردهم. هذا ليس نظامنا، هذه ليست دولتنا، إنهم لا يمثلوننا بأي شكل من الأشكال، إنهم يدمرون حياتنا'.

موقفي كصحفية

لن يكون الأشخاص المذكورون حتى الآن: الطالب (هـ)، الصحفي (س)، سياسيون محليون، الطالب (ر)، الدليل، رئيس حراس القرية، قرويون، مهربون، هم الوحيدين الذين سيرد ذكرهم في هذا الكتاب بأسماء حركية. كصحفية لست راضية عن هذه الطريقة، فالقاعدة الذهبية التي يقوم عليها العمل الصحفي هو الإقلال قدر المستطاع من المصادر المجهولة؛ ذكر الأسماء الصريحة للأشخاص يزيد من الصدقية.

إنها ليست المرة الأولى التي أخالف فيها القواعد الذهبية للصحافة عند الكتابة عن المسألة الكُردية. أو بعبارة أخرى: لقد تعلمت الصحافة وخبرتها في بلد ديمقراطي، لكن الطريقة الهولندية في الصحافة لا تنطبق في تركيا. فالحكومة التركية تفتقد الشفافية، لا أحد يتحمل مسؤولية أعماله، يتم فصل الموظفين لمجرد (هنا أعني ذلك حرفياً) التحدث مع الصحافة، كما أن الأشخاص الذين يوافقون على الحديث مع الصحافة بدون اسم، لديهم خوف مُبَرَّرمن التعرّض للاعتقال في حال أفصحوا عن هويتهم الحقيقية.

لذلك فإن الصحفي هنا يجهد نفسه كثيراً لتدعيم قصته وجعلها متماسكة. وقد يتطلب الأمرأحياناً مشاكسة الذين كلّفوه بالمهمة لأنهم لا يعرفون تركيا بشكل جيد من الداخل، أو مشاكسة الذين يرفضون أخذ الواقع المختلف لهذا البلد في الاعتبار.

حاولت في إحدى المرات، على سبيل المثال، نشر التقريرالذي أعددته عن حقول المارجوانا في موقع ينشر باللغة الإنكليزية. وهو تقرير مفيد جداً، إذ إن «العملية الكبرى ضد حقول المارجوانا التابعة للـ PKK» كانت قد انتهت تواً، وكانت أغلب التقارير قد قدمت رواية الحكومة فقط.

لكن الموقع رفض نشر التقرير لعدم تضمنه أسماء صريحة لأي شخص من سكان القرية والسياسيين المحليين، إذ لم يقبلوا نشر أسمائهم. فالادعاءات مهما كانت صادقة وواقعية ليس لها تأثير قوي في حال صدرت عن مصادر مجهولة. لذلك أضفت اسم إيفرين جيليك، عضو حزب الـ BDP في أنقرة، الذي كرر اتهاماته للمواقع العسكرية المحلية، والذي كان قد أعلن ذلك باسمه الصريح. ومع ذلك أصر الموقع الالكتروني على عدم النشر، إلا إذا تضمن ذكر رأي الحكومة أو الجيش إلى جانب هذه الادعاءات. لم تكن الاقتباسات التي تضمنها التقرير، والصادرة عن وزير الشؤون الأوروبية في الحكومة التركية إيغمين باغيس ورأي الحكومة الذي تم نشره في الصحافة التركية، كافية لإقناع رئيس تحرير الموقع بنشره، يجب أن يتضمن التقرير رداً مباشراً على هذه الاتهامات من قبل الوزارة أو الجيش.

هكذا بقيت القصة دون نشر. بالطبع قمت بمحاولات عديدة، فقد راسلت الحزب الحاكم AKP، ووزارة الداخلية، ومكتب رئيس الـوزراء، لكن كلها لم تنجح في الحصول على أي تصريح حول

مواضيع كهذه. وهم بذلك يحققون تماماً ما يصبون إليه، عدم وصول الوجه الآخر للقصة.

كانت كل المقالات التي قرأتها حول الموضوع في الصحافة الخارجية، تقدم القصة من وجهة نظر الحكومة فقط. والتي تضمنت اقتباسات من تصريحات أحد أعضاء الحزب الحاكم AKP (الذين يستقتلون من أجل دعم مقولة أن الحقول تخص الـPKK)، أو لصحفي من وكالة الأناضول (وكالة أنباء تركيّة ضخمة، شبه حكومية، تقاريرها تسير على نهج الحكومة نفسه)، أو لمحاضر من أكاديمية الشرطة (الذين يحسبون ألف حساب قبل التلفظ بأي رواية لا تتوافق مع رواية الحكومة)، أو قول مقتبس عن ضابط شارك في العملية، تم تقديمه عن طريق وكالة الأناضول. إلى جانب كل هذه التصريحات، ربما وجد اقتباس صغير عن أحد سياسيي حزب الـ BDP يطالب فيه الحكومة بالقيام باستثمارات اقتصادية في الجنوب الشرقي. هذا كل ما تقرأه، لا أكثر ولا أقل.

أو ربما «عمود صحفي صغير»: خبر قصير يتضمن عبارة 'صرح المكتب الصحفي لوكالة الأناضول'. في إشارة إلى مصدر الخبر.

وهذا أمر مزعج. لأن القصة بهذه الطريقة تُعرض في الصحافة التركية على أنها جنائية أو ربما قضية إرهاب. بهذا الشكل يكون نصف القصة فقط قد قُدم. شخصياً أرى أن مهمتي كصحفية هي تقديم كل ما أمكن من أجل قول القصة كاملةً. لحسن الحظ إننا كصحفيين

لا نستكين بسهولة. فأنا لم أرافق الدليل في قرية أورتاسو لمجرد الاستمتاع، بل لأنني أردت التحقق بنفسي مما سمعت، وقد ثبت أن الجيش يستخدم هذا الطريق وبأنه يسمح بشكل شبه كامل للمهربين، كما قيل لي دائماً، بالقيام بالتهريب عبر هذا الطريق.

أقوم أحياناً بتقديم نفسي بشكل أبدو أكثر سذاجة مما أنا عليه وذلك من أجل استنباط ردود فعل الناس. ففي منطقة ليسا، على سبيل المثال، قلت: 'أنا فريدريكا صحفية من هولندا، سمعت بتدمير بعض حقول الماريجوانا التابعة للـ PKK قبل عدة أيام؟' فارتسمت علامات الدهشة والحيرة على الوجوه، دهشة تختزن الكثير من الكلام الذي ما لبث أن تحرر. إذاً، أنت لست على دراية جيدة بما حدث؟ تفضلي بالجلوس، يبدو أنك لم تتناولي الغداء بعد؟ تفضلي كأساً من الشاي، واسمعي ولكن دون ذكر اسمي!

وعندما ذكروا أن حقول الماريجوانا تنتشر بكثرة على جانبي الطريق، لم أصدقهم مباشرة بل تأكدت بنفسي من الموضوع. صحيح أنني لم أنجح في ذلك في تلك الزيارة بسبب هجوم الـ PKK الذي كان قد وقع تواً، وكانت هناك طائرات استطلاع تحوم في المنطقة بحثاً عن الفاعلين، لكنني قمت بذلك لاحقاً. كان الشخص الذي أتواصل معه في القرية قد اتصل بي وأخبرني بأن خطورة الوضع لا تسمح لي بالقيام بالبحث في الوقت الحاضر، لكن بعد عدة أشهر عدت إلى المنطقة ورأيت حقول الماريجوانا على طول الطريق كما قيل لي سابقاً.

وهو أيضاً أحد الأسباب التي تدفعني إلى تكرار زيارة قريتي كول يازي وأورتاسو. لو لم أقم عند بكيزا وأولادها عدة مرات، لكنت اقتبست كلامها عن وضعها المادي بعد القصف، والذي فقدت فيه زوجها أوصمان، بشكل مجرد : ’كان وضعنا المادي صعباً، والآن أصعب‘. ولما تسنى لي معاينة الفقر.

في صباح أحد الأيام، وأنا خارجة من منزلها شاهدت حفرة عميقة في الأرض مساحتها ٤ أمتار مربعة في الساحة الصغيرة بين منزلها ومنزل عبد الكريم، الأخ الأصغر لأوصمان، ومنزل أخته جيدام. فقد انهارت الحفرة الفنية لنظام الصرف الصحي جراء الأمطار الغزيرة التي هطلت في وقت سابق والأمطار الهائلة خلال الليلة الماضية. لا يملك كامل سكان القرية مجاري الصرف الصحي والطريقة الوحيدة لحل المشكلة بتكاليف معقولة كانت بردم الحفرة بالإسمنت (الباطون)، وهذا ما قام به كل من عبدالكريم وحسين (زوج بلقيس) وبرهان (ابن حسين). أما محمود الصغير فقد كان يقوم بمحاولات اللعب بالمجرفة الكبيرة كلما توقفوا عن العمل بعض الوقت.

كما لا يمكنني نسيان اليوم الذي طلبت مني فيه إسرى، الابنة الكبرى لبكيزا، الذهاب معها إلى الدكان. لم أفهم لماذا، لكن الفضول هو الذي دفعني إلى مرافقتها. مررنا بمحل لصياغة الذهب فاختارت سلسالاً للعنق. لكن هل لي قدرة على شرائه؟ رفضت ذلك وشرحت لها بأنني لا أستطيع شراء كل ما تريد لأنني لا أعرف فيما إذا كانت أمها

موافقة على لبسها للسلسال. كما أنني وجدت ذلك غير مناسب لها. فقد تعرفت إليها كفتاة متواضعة، ما الذي تريد فعله بهذا السلسال؟ بدلاً من ذلك أريتها بعض الأشياء التي أستطيع شراءها لها: دفاتر، وأقلام تلوين، ولصقات، لكنها رفضت.

ونحن عائدتان دون أية مشتريات همست إسرى فجأة: 'كنت أريد شراءه بمناسبة عيد الأم'. لكنه يوم عيد غير مدوّن في أجندتي التي عادة ما تذكرني بالمواعيد، ولم أعرف أنه يصادف يوم الغد. عدنا إلى المحل ودفعت إسرى الحساب ووجهها يشع بالبهجة وهي تحمل السلسال. لكن في منتصف الطريق همست من جديد: 'أفضّل تبديله'. ركضت باتجاه المحل وأنا أنتظرها. رجعت وهي تحمل علبة بداخلها ٣ سكاكين لتقطيع الخضار. عندما وصلنا إلى البيت أخذت ورقتين من دفتر المدرسة و كتبت على إحداها باللغة التركية 'أمي الحبيبة، أحبك كثيراً جداً'. وقامت بطي الثانية لتضع فيها الرسالة وعلبة السكاكين وأغلقت اللفافة بشريط لاصق. في صباح اليوم التالي ترجمت الرسالة لأمها، فابتسمت الأم ووضعت السكاكين في الجارور.

هل تحولت إلى مناصرة جداً للكُرد؟

حسناً! ولكن ما هي ردود الفعل التي سأتلقاها في حال الاستماع بشكل منتظم إلى الكُرد، والنظر إلى النزاع وكل ما يتعلق به، من خلال منظورهم؟ عندئذ سيقوّمني بعض القوميين الأتراك على أنني

’عاهرة الإرهابيين‘ ويسمعونني هذا التقويم بنفسي. أصوات لا أدعها تؤثر فيّ بل أسخر منها. لكنني أتلقى أيضاً انتقادات تستحق مني الاهتمام. كالسؤال الذي وجهته إليّ زميلة تركيّة عبر رسالة خاصة في التويتر: ’انتبهي لئلا تصبحي مناصرة جداً للكُرد؟‘

لكن هل تحولت فعلاً إلى مناصرة جداً للكُرد؟ هل أنا، كما وصفني أحدهم، ’معادية للأتراك‘؟ إنها اتهامات تصدر دائماً من أتراك، ينظرون إلي وإلى عملي من خلال منظورهم التركي القومي المحدد بالأبيض والأسود. ويقصدون بذلك أنني جزء من النزاع، أي إنني ’مع‘ طرف و’ضد‘ طرف آخر. وأنا في الواقع لست كذلك. لاتجري في عروقي دماء تركية أو كُردية، لذلك لا يمكنهم تعريفي بهذه المصطلحات، فأنا أجنبية، صحفية أعمل وفق منظور حقوق الإنسان، ومختصة بالمسألة الكُردية.

هناك في هولندا أيضاً من يعتقد بأنني اخترت الاصطفاف مع أحد الأطراف. ففي إحدى المرات حدثت مشاكسة بيني وبين رئيسة تحرير إحدى الجرائد، إذ أرسلت لي تقول: ’يبدو لي أنك غير موضوعية تماماً‘. كان الحق معها في نقطة معينة- إظهاري لأولوياتي في الموضوع الذي طرحته - لكنها لم تقصد هذه النقطة. بل قصدتْ أنني لست مهنية في عملي كصحفية. بأنني لم أسع للبحث عن توازن في القصة التي أردت كتابتها، وبأن ما أقوم به هو نشاط من نوع ما.

كان المقال الذي دار حوله النقاش هو التعليم باللغة الكُردية. إذ إنه

مع بدء السنة الدراسية ٢٠١٢- ٢٠١٣ أصبح بإمكان التلامذة الكُرد في المدارس الحكومية، بمجرد وصولهم إلى الصف الخامس، تعلّم اللغة الكُردية كمادة اختيارية. في مقالي أوردت رأي التلامذة الكُرد أنفسهم بهذه الخطوة، لكن رئيسة التحرير طلبت إدراج رأي التلامذة الأتراك أيضاً، وهو ما لم أوافق عليه. ما الذي يمكن أن يقوله التلامذة الأتراك حول هذا الموضوع. فهم مُلقّنون طالما أنهم يتعلمون في مدارس ذات نزعة قومية تركية؟ قد تكون اقتباسات كهذه مفيدة وتعكس وجهات نظر مختلفة إذا ما تم تناولها في مقالة معمّقة طويلة، أما ما كتبته فهو مجرد تقرير إخباري من حوالى ٧٠٠ كلمة. لكن اعتراضي الأهم هو أنه بهذه الطريقة ستبدو المسألة على أنها نزاع بين أتراك وكُرد. وهذا غير صحيح. الكُرد لا يقاتلون الأتراك بل النظام الذي ينكر وجودهم، ويمحو هويتهم ويقمعهم ويقتلهم.

إن ما تدور حوله هذه الأمثلة والاتهامات هو في نهاية المطاف الوصول إلى صحافة متوازنة. لقد تعب دماغي وأنا أسعى للوصول إلى ذلك. فقد قضيت أسابيع عدة وأنا لا أفكر في شيء غير البحث عن وسيلة تمكنني من أداء عملي حسب ما يمليه عليّ ضميري، ورسم الخط الفاصل بين الصحفي والناشط.

ولتحقيق هذا الهدف اخترت من ضمن المهام الصحفية أن أعطي لإحداها الأولوية في أداء عملي: ألا وهي مهمة فسح المجال لصوت الناس الذين على الأغلب لا يُسمع صوتهم. أي تدوين قصص الكُرد

العاديين، والكتابة عن حياتهم اليومية، وعن ماضيهم، واختياراتهم، وخساراتهم، وآلامهم. والهدف من وراء ذلك هو تقديم رواية متوازنة. أعلم أنه لا أحد سيأخذ كلامي على محمل الجد في حال كتبت كل ما يقوله هؤلاء الناس دون البحث في ادعاءاتهم. وعند القيام بذلك أبحث في ادعاءات الدولة والكُرد على السواء، كادعاء أحد الأطراف: 'مهربو أولوديرى كانوا يساعدون الإرهابيين' و قول طرف آخر:'لا ليس للـ PKK علاقة بحقول الماراجوانا'.

وهناك أيضاً الكثير مما لايتم نشره لأنه يقدم شيئاً في الموضوع. لو كنت فعلاً كما يدعون صحفية ناشطة في الشأن الكُردي، لما ترددت في الادعاء بأن تركيا تستخدم أحياناً الغازات السامة ضد الكُرد؛ وهو ما يقوم به كثير من الناشطين الكُرد على مواقع التواصل الاجتماعي من وقت إلى آخر بنشراتهامات من هذا القبيل. لكنني صحفية محترفة ولا أنجر إلى اتهامات خطيرة كهذه، لأنه لم يثبت استخدام تركيا للغازات على الأقل أخيراً، أما في ديرسيم فالأمر شبه مؤكد.

فقد لاحظتُ أن بعض الناشطين يصدقون بشدة ادعاءات كهذه، كما حدث معي عندما كتبت على التويتر بأنني كنت في أولوديري وأنا الآن في الطريق إلى المشفى لأنني أصبتُ بالطفح الجلدي. فسألني أحدهم بجدية 'قد يكون بسبب بقايا الغازات السامة التي ربما استُخدمت في القصف؟' فأجبته 'لا، إنه بسبب الحشرات'.

لقد شكّل عملي في المسألة الكُردية تحدياً لوظيفتي كصحفية

أكثر من أي وقت مضى، وساعدني على أن أصبح أكثر إدراكاً لجوهر مهمتي: البحث عن الحقيقة. يحبذ الكثيرون القول بأنها 'تقع في مكان ما في المنتصف'، لكن هذا ليس صحيحاً على الإطلاق. قد تكون الحقيقة دقيقة ومعقدة، لكنها نادراً ما تقع في المنتصف، فهي موجودة بشكل خفي في تشابك خيوط المعلومات والآراء والملاحظات والتحقيقات، ومهمة الصحفيين هي تفكيك هذا التشابك. لم تكن حقيقة القضية الأشهرفي تاريخ الصحافة، فضيحة ووترغيت (قضية التنصت التي أجبرت الرئيس الأميركي نيكسون على الاستقالة) التي تم كشفها، واقعة في المنتصف، بل لقد تم التنصت. هذا كل ما في الأمر.

الصحافة الكُردية تملأ الفراغ

بإمكان الصحفيين في تركيا أيضاً القيام بالبحث عن الحقيقة، أما نشرها فذلك قصة أخرى تماماً.

إن معظم الإعلام التركي هو جزء من شركات كبيرة. فالمؤسسات الإعلامية هي أيضاً شركات بناء عملاقة وشركات اتصالات كبيرة وبنوك وشركات تأمين ضخمة. ليس للصحف هدف صحفي بل اقتصادي. نظراً إلى الارتباط المباشر بين المصالح التجارية والسياسية في تركيا، فإن الإعلام يبقى ملتزماً بالخطوط العريضة للخطاب السياسي القائم. ومن يبتعد كثيراً عن نهج الحكومة يفقد الكثير من التعاملات التجارية

مع الحكومة. ولكي تحقق هذه الجرائد والقنوات التلفزيونية أعلى نسبة انتشار ومشاهدة لتشكيلة الأخبار والآراء التي تتوافق مع رغبة المالك، تقوم مجالس التحرير بإرضاء أذواق القارئ والمشاهد التركي بعرض مزيج يستسيغه: استقطاب، إثارة، جنس، التفرقة الجنسية والقومية. بعرضه جانباً واحداً من المسألة الكُردية يضرب الإعلام التركي عصفورين بحجر واحد: تملق الحكومة التركية، وزيادة النزعة القومية عند القراء.

في إحدى المرات سألتُ مراسلة تعمل في إحدى الجرائد المعروفة (’رجاءً لا تذكري اسمي عندما تدونين ما أقول، فهذا يتسبب بفصلي من عملي‘) لماذا لم يتم قط استقصاء رأي عامة الشعب الكُردي عما يحدث؟

فكان جوابها: ’لأننا نخشى مما سيقولونه، ولا نستطيع نشره، فما الفائدة عندئذ من سؤالهم؟‘ خجلت المراسلة من نفسها لعلمها أن هذا التصرف لا يمت إلى العمل الصحفي بصلة، لكن كمراسلة صحفية في أسفل الهرم الوظيفي، وسعيدة بحصولها على وظيفة بعد تخرجها في الجامعة، ماذا يمكنها أن تفعل حيال ذلك؟

إن الإعلام الكُردي هو جزء من الحركة السياسية الكُردية. والـ PKK هو قاعدة هذه الحركة، ما يعني أنها متشربة بأفكار الـ PKK. لذلك لا يستطيع الصحفيون الكُرد أيضاً، عرض كامل القصة دائماً. لنأخذ،على سبيل المثال، قصة حقول المارجوانا: فقد قامت القنوات

التلفزيونية الكُردية والجرائد بعرض القرويين الغاضبين والمتألمين وهم يعلنون أن الحقول التي قام الجيش بحرقها هي ملكهم وأن ما قام به الجيش هو العبث بلقمة عيشهم وأنه لا علاقة للـ PKK بهذه الحقول. لكن لم تقم جريدة Özgür Gündem أو قناة RojTV بنشر أي شيء مما قيل حول استفادة الـPKK مادياً من هذه الحقول.

لكن من الإجحاف أيضاً، وصف الصحافة الكُردية بأنها ’بوق للـ PKK‘ كما لا يمكن وصف الصحافة التركية (التي تتشابه مع RojTV، التي تبالغ في تمجيد تضحيات مقاتليها، إذ تقوم بالدور نفسه لكن مع الجنود الأتراك) بأنها مجرد آلة إعلامية تعمل في خدمة الدولة. أعتقد بأن كليهما له مكانه في المشهد الإعلامي في تركيا. تركيا ليست بلداً ديمقراطياً بالمعنى الشامل للكلمة، والصحافة أيضاً، لا تؤدي دورها الذي يتناسب مع الديمقراطية. عندما تم إنشاء الإعلام الكُردي في التسعينيات، لم تعد الصحافة التركية تذكر شيئاً عن الأوضاع الكُردية. فرغم تدمير آلاف القرى في الجنوب الشرقي من البلاد إلا أن معظم الأتراك لم يسمع بها. كانوا يعتقدون بأن الكُرد الذين رحلوا في ذلك الوقت إلى إسطنبول وإزمير وميرسين وآضنه، هم نازحون لأسباب اقتصادية بحثاً عن عمل، وليس كلاجئين هاربين من ممارسات لاإنسانية ترتكبها الدولة بحقهم.

يقوم الإعلام الكُردي بملء هذا الفراغ الصحفي، الذي بالكاد يقرأه أو يشاهده الأتراك، لكن بالنسبة إلى الكُرد هو المنبر الوحيد الذي

يضعهم بصورة الأحداث التي تدور حولهم، والإعلام الوحيد الذي يوصل صوتهم. صحيح أن الكلام عن أوجلان هو من يوميات الصفحة الأولى لجريدة Özgür Gündem، وصحيح أيضاً، أن القنوات الكُردية ترسم الحياة في 'الجبال' كما في القصص الأسطورية وتذكر مقاتلي الـPKK كأنهم قديسون، لكن هناك أيضاً أخباراً حقيقية وموثوقاً بها. أخبار لا يمكن أن تراها في الإعلام التركي. كالحدث الذي وقع في مساء أحد أيام الجمعة من تشرين الثاني ٢٠١١، عندما قام شاب كُردي، مستخدماً مركباً بحرياً (عبّارة) باختطاف ٢٠ مسافراً وإجبار القبطان على التوجه إلى أميرالي، الجزيرة التي يقع فيها سجن أوجلان. كنتُ حينذاك عند أصدقاء أتراك في دياربكر، نشاهد برنامجاً ترفيهياً على إحدى القنوات التركية، عندما تصفحت الأخبار على التويتر علمت بذلك. فقلت 'اختطاف قارب والفاعل يريد الإبحار باتجاه أميرالي!' وغيّرت التلفزيون إلى قناة RojTV. حيث شاهدنا تقريراً كاملاً عن الاختطاف، وفي الوقت نفسه بحثنا في كل القنوات الإخبارية التركية التي لم نفاجأ بعدم عرضها أي شيء عن الحدث. كل ما فعلته هو قيامها ببث خبر قصيرعن الحدث لكن بشكل متأخر، وتبعته بتفاصيل أكثر بعد أن قُتل الفاعل على أيدي قوات الأمن.

كتبت في التويتر بالإنكليزية عن الأخبار التي أوردتها قناة RojTV، فزاد ذلك من متابعي صفحتي في تلك الليلة، خصوصاً من قبل الأتراك. لمشاهدة القنوات الكُردية (التي تبث بعدة لغات

منها التركيّة) يحتاج الأمر إلى تركيب لاقط ساتاليت مستقل وهذا ما لا يملكه أغلب الأتراك. كما أن هناك قسماً آخر لا يفكر في مشاهدة RojTV لأسباب أخرى، فعلى سبيل المثال، لدي صديقة تركية مهتمة بالمسألة الكُردية، لكنها تفضل عدم مشاهدة RojTV 'القناة الإرهابية' في منزل أهلها تجنباً للمشكلات معهم.

إن الإشارة إلى انحيازي إلى طرف معين، هو تجاهل لهذا الواقع الصحفي. وكل ما أحاول فعله: الاستخدام الأمثل لموقعي المميز كصحفية أجنبية غير المعرقلة من قبل السلطات، وللقيود المفروضة على الإعلام في تركيا، للقيام بعمل من شأنه إلقاء الضوء على أكبر عملية قتل يتعرض لها المدنيون من قبل الدولة التركية منذ عقود.

فالمسؤولون الكبار في حكومة حزب العدالة والتنمية والجيش يرفضون التحدث معي، كما أن الوثائق المهمة غير متاحة حتى للجنة التحقيق البرلمانية. ضمن وضع كهذا لا بد من البحث عن طرق صحفية أخرى. السؤال الذي أوجهه إلى نفسي باستمرار هو فيما إذا كان ما أقوم به يتوافق مع العمل الصحفي. والاستنتاج الذي وصلت إليه: إذا فشلت في مشاركة القراء في حل اللغز الذي أقوم بتركيب أجزائه التي عثرت عليها، عندئذ تكون مهمتي الصحفية قد فشلت أيضاً. وبالتالي، سيتمكن الذي يمتلكون السلطة والمسؤولون عن مقتل ٣٤ مدنياً من الفرار من المحاسبة بسهولة.

القصف: عملية مقصودة وموجهة

إن اللجنة البرلمانية المكلفة بالتحقيق في قصف أولوديرى لم تحرزحتى الآن أي تقدم يُذكر. حتى أن رئيس اللجنة إحسان شينار اشتكى بنفسه العراقيل التي توضع أمام مهمته. حيث صرح في تموز للصحافة التركية: 'لا أعتقد بأن الدولة أطلعتنا على كل المعلومات والوثائق التي في حوزتها'. وهو يقصد على سبيل المثال: التقرير الذي أعدته وزارة الداخلية عن الحادث، والذي تم ختمه مباشرة بالسري. كما أن المسؤولين العسكريين الكبار لم يبوحوا بأسرار تلك الليلة.

لقد اضطر شينار إلى تأجيل موعد نشر تقرير مرتين: حيث لم يتحقق ذلك في ١٢ نيسان ٢٠١٢ وثم وعد بعرضه في حزيران وأيضاً لم يتحقق ذلك. كما لم يتم النشر في أيلول ٢٠١٢ كما كان مقرراً، فقرر شينار تأجيل النشر إلى كانون الثاني ٢٠١٣، أي بعد مرور أكثر من سنة على القصف، وذلك لتجنب 'استخدام التقرير لأهداف سياسية'. إضافةً إلى ذلك، كشف شينار بتاريخ ٢٦ كانون الأول، أي قبل يومين من الذكرى السنوية، أن هناك احتمالاً أن يكون قائد أركان الجيش، نجدت أوزال، هو من أعطى أمر القصف، مضيفاً بأن القصف لم يكن مقصوداً، بل ناتجاً من 'سلسلة أخطاء'.

خلال عام ٢٠١٢ عبّر عدد من أعضاء الحكومة عن رأيهم حول السؤال: من الذي أمر بالقصف؟ فقد ادعى رئيس الوزراء أردوغان في ٢٠ أيار أن قيادة الأركان العامة كانت: 'هي المسؤولة عن إعطاء

الأمر؛ وهو النهج نفسه المتبع حالياً. لقد قامت قوات الأمن باستخدام الصلاحيات الممنوحة لها، وفقاً لمتطلباتها ومصالحها الخاصة'.

وهو يشير بهذا القول إلى تصريح القوات المسلحة بعد القصف مباشرة، أي الإذن الذي يصادق عليه البرلمان التركي كل سنة منذ العام ٢٠٠٧ والذي يعطيها الحق بعبور الحدود لتنفيذ عمليات عسكرية. لكن السؤال هنا: ما المقصود هنا بما يسمى قواعد القتال، أو الأحرى القواعد التي تحدد مدى العنف الذي يمكن أو يجب على الجيش استخدامه في ظرف معين؟ يبدو أن الجواب عن سؤال كهذا هو أمر مستحيل.

لكن في الواقع ثمة سؤال آخر يؤرقني: لماذا تم قصف المدنيين؟ إلى حين الوصول إلى إجابة عن هذا السؤال، سأبقى غير مقتنعة بأن القصف لم يكن مقصوداً، أو نتيجة سلسلة من الأخطاء، أو سمها ما شئت. رتبت لقاءً مع عضو البرلمان عن حزب BDP، أرطغرل كوركجو، العضو في لجنة التحقيق. فهو من الذين يتحدث إلى الصحفيين والأكثر قرباً من الحدث والمطلع على كل الوثائق غير السرية التي درستها اللجنة.

تقابلنا في نهاية شباط ٢٠١٣ (كان قد تقرر تأجيل نشر تقرير اللجنة من كانون الثاني إلى آذار) في مكتبه في مبنى البرلمان في أنقرة. كوركجو نفسه قد توصل إلى استنتاج بأن القصف لم يكن مجرد حادث غير مقصود، ويعرف لماذا حدث القصف؛ تصريح أثار فضولي!

تدور القصة كلها حول القيادي في الـ PKK، فهمان حسين، المعروف بالاسم الحركي باهوز أردال. وهو واضح من التقرير الذي أعدته وزارة الداخلية بعد الحادث بفترة وجيزة والذي تم ختمه بـ'سري'، لكن سُمح لأعضاء لجنة التحقيق بالاطلاع عليه فقط، يقول كوركجو: 'كان قد تقرر السماح لنا بالاطلاع على التقرير وتدوين ملاحظاتنا في اجتماعات مغلقة، أما أخذ نسخ أو تصويره فهو أمر ممنوع'.

سجّل كوركجو حينذاك أهم ما ورد فيه من معلومات، بما فيها تلك الخاصة بفهمان حسين. يقول كوركجو: 'تحدّث محققون من وزارة الداخلية مع الضابط المحلي المسؤول عن الفرقة ٢٣ للشرطة العسكرية، إلهان بولوك، الذي صرح بأن فهمان حسين كان هو الهدف العسكري- السياسي الوحيد في هذه المنطقة. وفقاً للمعلومات ربما يكون فهمان قد عبر أخيراً الحدود إلى داخل الأراضي التركية للتحضير لهجوم على مخافر الشرطة على الحدود'.

يتوافق هذا الكلام مع تصريح الجيش الذي صدر بعد فترة وجيزة من العملية، والذي جاء فيه أن هناك معلومات عن تحضيرات لأعمال انتقامية ستنفذها الـ PKK بسبب الخسائر الكبيرة التي كابدتها في الفترة الأخيرة. وبأن الـPKK ربما يكون قد أرسل بعض الوحدات المقاتلة إلى منطقة Sinat-Haftanin، المنطقة العراقية التي شهدت قصف أولوديرى، وأنهم يقومون هناك بالتحضير للهجمات.

لكن هذه المعلومات لم تكن صحيحة، هكذا يتضح من تقرير وزارة الداخلية نفسه، الذي تضمن أيضاً تصريحات لضباط عسكريين بأن المنطقة 'هادئة نسبياً' وبأنها 'ليست منطقة نشاطات إرهابية'. فقد أعلن باريش جولاق، رئيس دائرة الاستطلاع في مديرية الشرطة في محافظة شرنك: 'تشير معلوماتنا إلى أن المنطقة المعنية ليست معروفة كمنطقة تحرك للإرهابيين، بل منطقة تستخدم للتهريب'.

كما تبين أن المعلومات المستطلعة حول وحدات الـ PKK قد اعتمدت على شائعات وعلى الارتفاع غير العادي في عدد الاتصالات بين الأجهزة اللاسلكية مقارنة بالاتصالات في الفترة نفسها من السنوات الماضية. فقد ذكر تقرير وزارة الداخلية أن معلومات كهذه لا يمكن استخدامها لتبرير القيام بعملية عسكرية دون تدعيمها بمعلومات أخرى.

يقول أرطغرل كوركجو: ' بالاعتماد على مكالمات تم التنصت عليها، تقرر القيام بعملية أرضية بالقرب من الحدود، إذ إنه من المحتمل أن يكون هناك عناصر من الـ PKK في طريقهم إلى تركيا، ويكون فهمان حسين بينهم. هكذا تم التقيّد بهذه الخطة حتى الساعة التاسعة مساءً تقريباً، لكنها أُلغيت فجأة، وتلقى الجنود الأوامر بالعودة إلى ثكناتهم، وهو ما يُفسر التقابل الذي حدث حينذاك بين القرويين، الذين سمعوا القصف وانطلقوا باتجاهه الساعة التاسعة والنصف تقريباً، والجنود في الطريق وهم راجعون'.

راجعت أرشيف الجرائد التي صدرت في الأيام التي تلت القصف، فوجدت فيها تكهنات بأن ضحايا القصف لم تضم مهربين فقط بل مقاتلين من الـ PKK أيضاً، وتم ذكر اسم فهمان حسين بشكل متكرر. لكن هذا الاسم اختفى من الجرائد بعد أن تبين أن ضحايا القصف هم مدنيون فقط. ومع ذلك يبقى هذا الاسم هو مفتاح اللغز. يقول أرطغرل كوركجو: 'كانت مذبحة أولوديرى عملية مقصودة وموجهة أخذت في الحسبان احتمال سقوط ضحايا مدنيين، هدفها القضاء على أحد قياديي الـ PKK. لو تحقق ما كانوا قد خططوا له، لما تم ذكر الضحايا المدنيين، بل ربما كانوا سيُعتبرون أعواناً للـPKK. وكان سيتم الاحتفال بالقصف كنصر'.

يبدو أنهم كانوا بحاجة ماسة إلى نصر كهذا: فالسياسيون كانوا قد أقسموا على الانتقام لمقتل ٢٤ جندياً وجرح ٢٢ آخرين سقطوا في هجوم قام به الـPKK في محافظة حكاري في مساء ١٨ – ١٩ تشرين الأول. كان هذا الهجوم خبراً مجلجلاً في تركياً، لأنه الأكبر من حيث عدد الضحايا منذ شهور. بعدها بشهرين تمت دعوة الناشرين ورؤساء تحرير الصحف الإخبارية من قبل أردوغان، الذين وافقوا على تعليمات الحكومة ووضعوا قواعد حول كيفية تغطية أخبار'الإرهاب'.

عندما يسقط مثل هذا العدد الكبير من الضحايا في يوم واحد، يُخرج الأتراك أعلامهم ويعلقونها أمام منازلهم تعبيراً عن حزنهم على الجنود المقتولين ولإظهار دعمهم للوطن. تتصدر صور الجنود (وأغلبهم شباب يخدمون الجندية الإجبارية) المقتولين أياماً

طويلة الجرائد ونشرات الأخبار، بالإضافة إلى بث صور بكاء عوائل المقتولين خلال الجنازات، ومعها صور النعوش الملفوفة بالأعلام. ويسود البلاد جو الانتقام. كان قصف أولوديرى هو الانتقام. على الأقل، كان ذلك هو المقصود.

لا يملك كوركجو أدلة دامغة، لسبب بسيط هو أن الوثائق الحاسمة تم دمغها بالسرية بالإضافة إلى رفض المسؤولين الكبار التحدث مع اللجنة. يقول كوركجو: 'لكن بالاعتماد على المعلومات المتوافرة، وشهادات الشهود مضافاً إلى كل ذلك التحليل المنطقي لها، وصلنا إلى هذه النتيجة'.

المسؤولية السياسية: رئيس الوزراء أردوغان

بالطبع هناك نظريات أخرى. وقد ناقشتها مع كثيرين من بينهم Gareth Jenkins، المحلل والخبير في العلاقات المدنية – العسكرية. إن نظرية قتل المدنيين بشكل متعمّد من أجل ترهيب كامل الشعب الكُردي، هي نظرية غير مقبولة لكونها تبسيطية للغاية. يقول Jenkins: 'في الحقيقة هناك طرائق أكثر فاعلية لإرهاب الشعب، وقد استُخدمت في الماضي'. وهو يشير بذلك إلى 'اختفاء' الكثير من الناشطين الكُرد والمدنيين في التسعينيات، وحرق قرى بأكملها، والتعذيب في السجون.

مازال الترهيب مستمراً حتى يومنا هذا: في محاكمات KCK تتم

محاكمة مدنيين استخدموا حقهم الديمقراطي، وهذا ترهيب شديد. فصديقي الكُردي، تورابي كيسين، الذي أمضى سنوات في المعتقل في التسعينيات، يقبع اليوم من جديد في أحد سجون إسطنبول. أتذكر في آخر لقاء في إحدى الأمسيات في دياربكر كيف كان يتكلم همساً فقط وينظر بقلق حوله بشكل مستمر. بعد شهر تقريباً، في كانون الثاني ٢٠١٢، تم اعتقاله في مطار أنقرة وهو عائد من رحلة صحفية إلى مدينة هولير في كُردستان العراق. ولا يزال معتقلاً دون محاكمة حتى لحظة كتابة هذا الكتاب أي نهاية ٢٠١٣. هذا ترهيب: إخافة الناس بأشياء قد يواجهونها هم أيضاً، وتحت هذا الترهيب لا تندرج عملية القصف التي وقعت على الحدود العراقية التركية.

يقول Gareth Jenkins : ’لقد قيل الكثير أيضاً بأن الـPKK سرّب بشكل متعمّد معلومات مغلوطة إلى مكتب الأمن العسكري أو القومي التركي عن وجود مخطط لقيام وحدة PKK بعبور الحدود، أُرسلت بشكل متعمد لعلها تدفع القوات إلى القيام بعملية تؤدي إلى قتل مدنيين كُرد. الأمر الذي يشكل دعاية إعلامية تصب في مصلحة الحركة الكُردية‘. لكنه شخصياً يجدها نظرية غير مقنعة: ’لو أرادوا ذلك، لاختاروا هدفاً ثابتاً وليس مجموعة متحركة من البشر في ليلة شتاء حالكة. وبشكل أعم: يعتمد الـPKK، خصوصاً في الشتاء، في إمداداته على دعم السكان المحليين سواء على الحدود مع العراق أو مع تركيا. وبالتالي لا يغامر بهم بهذه الطريقة‘.

أنا أيضاً، أجدها نظرية غير قابلة للتصديق. هل يقوم الجيش بعملية كهذه بالاعتماد فقط على معلومات مصدرها الـPKK؟ فضلاً عن ذلك، لم يحصل خلال الـ ٣٠ سنة من تاريخ الـPKK بأنه سقط بطريقة غير مباشرة ودفعة واحدة هذا العدد الكبير من الضحايا بسبب الـPKK نفسها. فالمنظمة قتلت مدنيين، كُرداً أيضاً، لكن قطعاً ليس بهذه الطريقة. فضلاً عن ذلك، تعود معظم عمليات القتل هذه إلى بدايات الـPKK (ومرحلة ثوار كُردستان) في فترة السبعينيات حتى التسعينيات. وكان القتلى هم من حراس القرى وزعماء إقطاعيين، أو أفراد من عوائل أو قبائل تعادي الـPKK، أو من عناصر من PKK انقلبوا ضدها. أو انتقدوا المنظمة أو قائدها أو تم الاشتباه فيهم. لكن قطعاً لم تقم بذلك تجاه مجموعة عشوائية من مدنيين كُرد.

مازلت أذكر أيضاً ما قاله له زميلي الصحفي (س) في دياربكر عن العلاقة بين الـPKK وحراس القرى في قريتي أورتاسو وكول يازي: 'حراس القرى في قريتي روبوسكي وبيجوه لم يكونوا في يوم من الأيام هدفاً للـ PKK. إذ إنهم لم يختاروا العمل حراس قرى ولم يُستخدموا قط في العمليات القتالية'. بالمناسبة، لم يكن أغلب ضحايا القصف من حراس القرى، لأن العمل حارس قرية يتطلب أن يكون الشخص بالغاً.

يقول Jenkins إن الأقرب إلى المنطق هو أن القصف جاء نتيجة تقرير استخباري أو تحليل اعتمد على الصور المأخوذة من طائرات

الاستطلاع (درون) الأميركية. 'لو كان هذا التحليل قد اعتمد على مصادر بشرية أو إشارات لاسلكية، لكان ذلك معلوماً قبل فترة من الهجوم'.

أما عن رئيس الوزراء أردوغان فيقول: 'ربما كان أردوغان على دراية بهذا التقرير أو التحليل، لكن عادة لا تتم استشارته حول ما الذي يمكن فعله بهذه المعلومات. ربما يكون قد شارك في صوغ تعليمات القتال خلال العمليات على الحدود العراقية وفوقها، لاحقاً تم اتخاذ القرارات بناءً على هذه التعليمات؛ وموافقته ليست ضرورية لكل عملية'.

إن تحديد المستوى الهيكلي الذي اتخذ فيه قرار تنفيذ القصف يعتمد، وفقاً لـ Jenkins، في جزء كبير منه على طبيعة 'الأدلة ' التي تبرر القصف. يقول Jenkins: 'كلما اتُخذ القرار بشكل مبكر، زادت احتمالات اشتراك مسؤولين أرفع مستوى في اتخاذه'.

إذا كانت 'نظرية فهمان حسين' صحيحة، فإن ذلك يعني أن رئيس الوزراء أردوغان كان على الأغلب على دراية بالشائعات أن قيادياً من الـ PKK سيقوم بعبور الحدود من تلك المنطقة، لكن ليس على دراية بالقرار بأن القصف سيتم في تلك الليلة، لأن ذلك قد اتخذ، كما يتضح الآن، في اللحظة الأخيرة. لكن هذا لا يعفيه من المسؤولية السياسية: فالجيش تحت قيادة الحكومة. هذا ما يدفعني على الفور إلى رفض نظرية بأن القصف الذي قام به الجيش كان من أجل وضع أردوغان في

موقف محرج. لذلك كان اتخاذ القرار في اللحظة الأخيرة ببساطة قد تم بشكل متسرع، وبالتالي لم تكن العملية مخططة بدقة.

بالإضافة إلى حدث آخر، هامّ برأيي، كان وقع في الصيف الذي سبق القصف. إذ قدم كل من إشك كوشانير، القائد العام للجيش، وقادة القوات البرية والجوية والبحرية استقالاتهم واختاروا التقاعد المبكر. كان ذلك تماماً قبل الاجتماع السنوي الذي تتم فيه الترقيات العسكرية، ولأول مرة كانت الأدوار معكوسة: فقد فرض الرئيس غول ورئيس الوزراء أردوغان رأيهما بدل أن يتبعا الترشيحات كما جرت العادة. ماذا كانت الحجة هنا؟ أراد الضباط ترقية زملائهم المشتبه في علاقتهم بمخطط الانقلاب، لكن غول وأردغان رفضا رفضاً قاطعاً. لأول مرة في التاريخ التركي يتصرف العسكر في حالة كهذه بما تمليه القيم الديمقراطية التي يجب عليهم اتباعها: التخلي عن دورهم السابق. لقد تم النظر إلى 'التقاعد المبكر' على أنه اللحظة التي تمثل النهاية الحاسمة للنفوذ السياسي الكبيرالذي كان يتمتع به الجيش. قد لا يكون نجدت أوزال، خلف كوشانير، ديمقراطياً من الأعماق – فكل الضباط الكبار بنوا مواقعهم القيادية في سنوات الانقلابات والعقلية السائدة كانت بأن الجيش هو الذي يقود السياسة- لكن يبدو على الأقل أنه يطيع الحكومة. تماماً كقادة القوات البرية والجوية والبحرية.

الانتقال إلى دياربكر

قررتُ في بداية أيلول ٢٠١٢ أن أقرن القول بالفعل والانتقال للعيش في دياربكر. لم أتخل عن شقتي في إسطنبول: أحببتُ هذا المكان، صاحب الشقة لم يرفع إيجارها إلا مرة واحدة طوال سبع سنوات، لم أتخل عنها لكي لا أضطر إلى البحث عن سكن من جديد في حال قررت العودة إلى إسطنبول، الأمر الذي سيكلفني دفع إيجار أغلى بمئات الليرات لشقة مماثلة في الموقع نفسه، كما يمكنني بذلك الاحتفاظ بالشقة وبإيجار أقل عن طريقة تأجيرها لمستأجر يحل محلي موقتاً. بالمناسبة، السكن في دياربكر أرخص نوعاً ما: سأسكن مع صديقة، وسندفع معاً ٣٢٥ ليرة، أي إنني سأدفع حوالى ٦٥ يورو في الشهر للسكن.

قررت الرحيل بالباص الذي يستغرق حوالى ٢٤ ساعة، بينما الطائرة تستغرق ساعة ونصف الساعة، لكن السفر بالباص أرخص خصوصاً من ناحية عدم دفع أي مبلغ عن الحمولة الزائدة. لم آخذ معي الكثير من الأغراض لكن وزن البساطين وحدهما يتجاوز العشرين كيلوغراماً الذي هو الحد الأقصى المسموح به في الطائرة دون تكلفة زائدة. اشتريت بطاقتين بحيث يكون لدي مقعدان فأكون مرتاحة في جلوسي ومستمتعة بالسفر باتجاه الجنوب الشرقي.

عندما وصلت حوالى منتصف الليل، بين الحادية عشرة والنصف والثانية عشرة والنصف، ووقفت مع أغراضي في شارع خالٍ معتم

وهادئ أمام المبنى الإسمنتي الذي يضم سكني الجديد، ظهر فجأة شاب وقال ’مساء الخير، هل أنت بحاجة إلى مساعدة؟‘ فأجبت ’لو سمحت‘. حملت حقيبتي اليدوية وحقيبة الظهر وسحبتُ خلفي الحقيبة الكبرى ذات الدواليب الصغيرة. بينما قام هو بحمل الحقيبة الأخرى ووضع البساط الملفوف بالأكياس على كتفه. دخلنا المبنى، حيث قام بوضع الأغراض بشكل منظم أمام شقتي، وتمنى لي ليلة سعيدة وغادر.

كم تمنيت لو تمكن جيراني في حي Üsküdar في إسطنبول، مشاهدة هذا الاستقبال. أولئك الجيران اللطفاء الذين عبروا بنظرات اشمئزاز عندما علموا قبل عدة أشهر بأنني قضيت عدة أسابيع في دياربكر وشرنك. تمنيت لو كانوا قد أتوا معي وشاهدوا كم هو رائع هذا الجزء من البلاد، كم هو جميل هذا المكان المشكّل من مروج خضراء ومناطق مقفرة وصخرية، وكم هم الناس هنا مضيافون ومؤازرون.

إن كلمة ترحيب، التي تقال بشكل روتيني، تبدو هنا بين الكُرد أن لها معنى أقوى من أيّ مكان آخر في تركيا. صحيح أنها متجذرة في عمق الثقافة، لكن هذه ’الهوية المسيّسة‘ برأيي تجعلها أكثر وضوحاً. وهذا ما يسبب انقسام ’العالم الخارجي‘ إلى مجموعتين إحداهما تساند هذه المجموعة وأخرى لا تفعل ذلك. عند زيارة مناطقهم والاستماع إلى قصصهم، تكون بذلك من ’المجموعة المساندة‘ وبالتالي يتم استقبالك بترحيب حار.

بالمناسبة، هذا لا يعني أنه يتم النظر إلى المجموعة غير المساندة،

باشمئزاز أو بعين الكراهية. ليست هناك كراهية ضد الأتراك ولم أسمع قط أي كُردي يبتهج عندما يسمع بموت جنود أثناء القتال مع الـ PKK. على العكس تماماً: الكُرد يقولون بأن الجنود هم أيضاً 'أولادنا'، كما هم مقاتلو الـ PKK. فالكُرد أيضاً مجبرون على أداء الجندية الإجبارية وبالتالي معرّضون للقتل. لا يقوم الإعلام الكُردي بالتهليل للنصر عندما يكون هناك جنود مقتولون، على العكس من التكرار اللانهائي في التلفزيون التركي عندما تتوافر صورعن الهجوم على معسكرات الـPKK.

صودف مرة أن وقع في نهاية آب ٢٠١٢ حادث لميكروباص للجيش في طريقه من شرنك إلى حكاري، بالقرب من قريتي أورتاسو وكول يازي. فركض القرويون إلى مكان الحادث لتقديم المساعدة. إن تفاجؤ الإعلام التركي، الذي ظهر من طريقة إيصال الخبر، بالمساعدة التي تلقاها المصابون من قبل سكان هذه القرى، يعطي صورة واضحة عن النظرة التركيّة تجاه الكُرد. ما الذي كانوا يتوقعونه؟ هل كانوا يعتقدون أن القرويين قد ذهبوا إلى مكان الحادث للتشفي والسخرية؟

إن ما يسيطر على الرأي العام التركي هو 'مشكلة الإرهاب'. ففي الوقت الذي ينكر الأتراك وجود كُردستان، فإن الكثير من الأتراك لا يدركون هم أنفسهم بأنهم لم يعبروا قط حدود هذه الدولة غير الموجودة، لا فكرياً أو عملياً أو عبر مشاهدة قناة أو قراءة مجلة كُردية. فالفكرة السائدة هي أن الجنوب الشرقي منطقة لا تمكن

زيارتها، حيث يعيش الإرهابيون، وحيث العنف فقط، وحيث الأتراك مكروهون فيها.

هناك تطور سريع في مستوى التعليم في تركيا، لكن هذا لا يعني أن الذين حصلوا على مستوى عالٍ من التعليم ينتقدون دولتهم: حتى في الجامعات التركية – التي مازالت تحت إشراف مجلس التعليم العالي YÖK، ولا تتمتع بالحرية الأكاديمية – لا يحتل النقد والتفكير الحر موقع الأولوية. وبالمعيار نفسه ليس بالضرورة أن يكون خريج الجامعة قادراً على التحدث بالإنكليزية: مازال معظم خريجي الجامعات لا يتقنون إلا لغة واحدة فقط ما يعني أنهم لا يشاهدون أو يقرأون الإعلام الخارجي.

عندما ألتقي أتراكاً قد بدأوا يشتكون الأشياء التي عكرت حياتهم، أسألهم كيف استطاعوا التخلص من تأثير الدولة فأكتشف بأنهم إما كانوا في الخارج، ضمن برنامج تبادل طلابي مثلاً، وإما أنهم ينتمون إلى الأقليات. في إحدى المرات في إسطنبول أسرّت إليّ زميلتي التركية التي تثق بي، بأنها مثلية قائلة: ’صدقيني هذا كافٍ لتغيير نظرتك إلى تركيا‘.

بِدِل إينجو: إلى الجبال

لم أقابل بدل إينجو (١٦) قط. إذ إنني على الأقل لم أتعرّف إليه من الصورة الموجودة في تلفون والدته بيدين (٥٢ عاماً). التي تقول: ’انظري شعره الأشقر، وقامته الطويلة. أجمل من الآخرين‘.

نحن الآن في صيف ٢٠١٣، وقد مضى شهران ونصف الشهر على مغادرة بدل. لقد رحل فجأة عندما كان مع الآخرين بالقرب من الحدود يساعد على نقل بعض الرمال، حيث كانت العائلة كلها منشغلة بإعمار منزلها. تقول بيدين بالكُردية: 'بعد عدة أيام تلقينا رسالة من المنظمة بأنه فعلاً قد انضم إليهم'.

بدل هو أول فتى من قريتي أورتاسو وكول يازي يلتحق، بعد ٢٨ كانون الأول ٢٠١١، 'بالمنظمة' أي بالـPKK. كان القصف قد أودى بحياة أصدقائه سافاش وبلال ومحمد وأورهان الذين كانوا في الخامسة عشرة من عمرهم. يعمل بدل في التهريب أيضاً منذ كان في الثانية عشرة من عمره، لكن عدم وجوده في تلك الليلة كان محض مصادفة. يقول أخوه الأكبر قدري (٢٣ عاماً): 'كان هؤلاء الأولاد الخمسة يفعلون كل شيء معاً، النزهات، والذهاب إلى مقهى الانترنيت. كانوا ينسقون لقاء اليوم التالي أيضاً'.

تعيش العائلة على أطراف قرية أورتاسو، على الطريق الترابي الذي يؤدي إلى الحدود. وقد كانوا، في تلك الليلة، قد سمعوا طنين طائرات الاستطلاع (الدرون) والطائرات المروحية العسكرية، لكن ذلك لم يكن بالأمرغير الاعتيادي. كما أن الشاحنات العسكرية الثلاث التي مرت أمام منزلهم وسدت الطريق باتجاه الأسفل، لم يكن أمراً مقلقاً، إذ إنه كثيراً ما يتم إغلاق إحدى الطرق المستخدمة في التهريب. يقول قدري: 'كنا نأكل المكسرات والتمر عندما سمعنا صوت

القذائف، لكن هذا لم يقلقنا فهذه أصوات اعتدناها في هذه المنطقة. لكن فجأة سمعنا صوتاً مدوياً فارتعبنا، وكان بدل خائفاً للغاية. أصدقاؤه الحميمون كانوا هناك، فكان يرتجف'.

منذ ذلك الوقت أصبح بدل كثير الوجود في البيت وقليل الكلام. 'هل سمعه أحد يتكلم عن نيته الالتحاق بالجبال؟' سألتهم. فأجاب قدري: 'لا، هذا الأمر لا يتحدث به أحد وإنما ينفذه بنفسه'. أما أمه فقالت: 'لكنه كان هادئاً ذلك الصباح'. وفيما إذا ما كانت العائلة قلقة حيال ابنها الصغير، أجاب قدري: 'لا، نحن نعرف الناس الذين ذهب إليهم. فهو سيتلقى دعماً نفسياً، وهو ما يتلقاه كل من ينضم إليهم، لكن الكل يحن إلى عائلته وهذا أمر صعب بالنسبة إلى كل شخص. هل تعلمين بأنهم يعلمون من ينضم إليهم الكتابة في حال لم يكن قادراً على ذلك؟ ويلعبون الكرة الطائرة. نعم هناك احتمال بأن يضطر إلى القتل'. هو يقوم بالمقارنة نفسها التي أسمعها كثيراً: الـ PKK يقتل دفاعاً عن النفس ضد الاعتداءات التي تقوم بها الدولة منذ عقود ضد الكُرد، تماماً كقيام المرأة باستخدام العنف ضد من يحاول اغتصابها. تقول الأم بيدين بأنها تقلق بشأن ابنها أحياناً. 'عندما أكون في المنزل أبكي كثيراً. أفكر فيه وأتخيل سماع صوته'. حلم قدري مرة بأنه كان يتحدث مع أخيه الصغير: 'سألته: «بدل هل ستعود إلى البيت مرة أخرى؟» فأجاب: «لا. هذا طريق لن أحيد عنه أبداً»'.

الفصل الخامس

الأرض

هناك من مدخل المقبرة وحتى شاهدات القبور صفٌ طويل من نساء أقارب ضحايا القصف. كل واحدة منهن تمسك لوحة عليها صورة فقيدها. ومن الأسفل عند المدخل الرسمي للمقبرة أتت مجموعة من النساء صاعدات إلى الأعلى. حولهن مجموعة كبيرة من الصحفيين موجهين كاميراتهم بشكل رئيس إلى المرأة التي في المقدمة والتي ترتدي لباساً بسيطاً مكوناً من بنطال أسود وقميص وسترة بأزرار ووشاح أبيض. وأنا واقفة قي المقبرة أراقب المشهد عن بُعد.

الزائرة هي سيلفي كيليجدار أوغلو زوجة كمال كيليجدار أوغلو زعيم حزب CHP، أكبر حزب معارض. لقد أتت مع عدد من البرلمانيات من حزب CHP للتعبيرعن الدعم لأهالي أولوديرى. إنها زيارة في يوم غير عادي: ١٣ أيار عيد الأم.

كانت بكيزا في صباح هذا اليوم قد فتحت هدية إسرى ووضعت سكاكين التقشير في أحد جوارير المطبخ، وبعد الفطور كنا قد سرنا باتجاه المقبرة. وقفت بكيزا في الصف مع النساء ومعها محمود الذي كان هادئاً بشكل لافت للنظر في هذا اليوم. وأنا أقف مع هوليا وسينام

وإسرى، وعلى مقربة منا بعض الفتيات، أما أوزكان فقد كان بصحبة بعض الأصدقاء.

مرت سيلفي على طول صف نساء أقارب الضحايا، تمسك صور الضحايا وتقدم التعازي وتتكلم معهن وأحياناً تمسح دموعها غير مهتمة بالصحافة. وبالقرب من القبور بدأ الناس بالصلاة وكذلك فعلت سيلفي أيضاً، واضعة الوشاح الأبيض على رأسها.

تم التوجه بعد ذلك، إلى حيث تقف باصات جاهزة لنقل الجميع مسافة قصيرة إلى الجزء السفلي من قرية كول يازي الواقع على الطريق الرئيس. حيث سيتم تناول الغداء في بيت أحدهم. أمام المدخل تجمعت كومة كبيرة من الأحذية وفي الداخل كانت الأرض مفروشة ببساط طويل وعليه عدد لا يُحصى من مناسف الأرز وصحون من لحم الدجاج وجاطات السلطة، بالإضافة إلى الخبز الموزع على طول البساط. جلست سيلفي والبرلمانيات في إحدى الغرف يتقاسمن جلسة الطعام مع بقية نساء القرية. الغرفة الأخرى ممتلئة أيضاً، والأولاد يتحركون هنا وهناك. كانت نساء حزب الـ CHP قد جلبن معهن بعض الهدايا: ألعاب سيارات صغيرة للأولاد وألعاب دمى للفتيات، وألبسة ملونة للنساء.

تحدثت سيلفي إلى الصحافة، قائلةً بأنها ستفعل ما بوسعها من أجل إبقاء ذكرى القصف حية. وبأن التحقيق يجب أن يكون دقيقاً وبأن على الحكومة أن تقدم اعتذارها. سألتُ الأهالي عن رأيهم

بالزيارة، فكانوا جميعهم دون استثناء متفقين بأنهم يقدرون زيارة السيدة كيليجدار أوغلو. 'لقد شاركتنا في العزاء وهو أمر رائع'، رد أحدهم معبراً عن الشعور العام. 'لكننا لا نعتقد بأنها تستطيع فعل الكثير في أنقرة. فحزب الـCHP لا يحكم ولا يملك صوتاً قوياً في البرلمان. لكن نحن سعداء بأن مجيئها لفت اهتمام الاعلام'.

أثناء الحديث، بعد الغذاء، أمسكت إحدى النساء التنورة الملونة، التي تلقتها كهدية، وجعدتها وهي غاضبة وكأنها تريد أن ترميها من النافذة وهي تقول بتذمر: 'تنورة بورود ملونة، ما هذه الفكرة، ألا يعلمون أننا في عزاء؟'. حدث ذلك بعيداً عن أعين الصحافة التركية وعن سيلفي أيضاً. كانوا قد غادروا القرية تواً. لكن الأهالي كانوا سعداء بحضور الصحافة، فكل القنوات التلفزيونية الهامة بثت في تلك الليلة أخبار الزيارة وصورها. كما قامت الصحف بالشيء نفسه في اليوم التالي. فقد تم بشكل رئيس نشر حديث سيلفي كيليجدار أوغلو، وقلما تم نشر شيء عن أقارب الضحايا، لكن هذه مجرد تفاصيل غير هامة، فالمهم هو أنه تم بهذه الزيارة انتزاع مأساة القصف من صفحة النسيان التركية.

تقرير لجنة التحقيق البرلمانية: أسئلة أكثر من أجوبة

في آذار ٢٠١٣ قدمت لجنة التقصي البرلمانية تقريرها النهائي الذي تضمن معلومات كثيرة لاعلاقة لها بالبحث المطلوب القيام به

لكشف حقيقة عملية القصف. حيث تقرأ في هذا التقرير، على سبيل المثال: بأن عدد المدارس الابتدائية في قريتي كول يازي وأورتاسو كافٍ وبأن هناك مدرسة إعدادية واحدة، وبأن هناك طرقات إلى المروج، وبأنه تم القيام بخطوات لمد أنابيب الصرف الصحي وتأمين مياه شرب صالحة، وبأن العمل جارٍ على تطويرالطاقم الطبي والمعدات في المستوصفات الطبية.

كما تضمن التقرير أن كل مواطني الدولة، بغض النظر عن معتقداتهم وأعراقهم وانتماءاتهم السياسية، يشعرون بالأسى العميق على الحادث الذي أودى بحياة ٣٤ مواطناً. وتضمن أيضاً قائمة بأسماء الأشخاص والمنظمات التي قامت بزيارة القريتين كي لا يتركوا أقارب الضحايا وحيدين في هذه المأساة ويقاسموهم آلامهم.

تحدث التقرير كذلك عن الاستفزازات العدائية التي وقعت في الأيام التي تلت القصف، كالتي حدثت مع قائممقام أولوديرى. وبأن نشر حراس القرى خلال الجنازات كان لضمان الأمان والتصدي لاستفزازات المنظمة الإرهابية الانفصالية. وذكر بأن تغطية التوابيت 'بألوان مختلفة' (ألوان كُردية، أحمر وأخضر وأصفر) كانت عملية استفزازية من قبل المنظمة الإرهابية وبأن بعض الناس لم يشعروا بالارتياح تجاه هذا الفعل.

كما جاء التقرير على ذكر القصف نفسه؛ لكن أكثر ما يلفت النظر هنا هو أن كل ما ورد هو مجرد ادعاءات بدون إثباتات. لا وجود لوثائق، واستجوابات بدون قسم، ولا ذكر لوجود محللين مستقلين.

أما الادعاء الأغرب هنا فهو يدور حول قيام مخبر مجهول بعد ٥ أيام من القصف بمراجعة السلطات. وإفادته عن التقائه في شمال العراق مقاتلين اثنين من الـ PKK، وثقا به وأخبراه بأنهما قد قررا الانضمام في يوم القصف نفسه إلى مجموعة المهربين لكي يتمكنا من زيارة أهلهما في تركيا.

'أنظري هنا'، يقول ليفيت غوك، عضو البرلمان عن الحزب المعارض CHP والعضو في لجنة التحقيق، خلال لقائي إياه في مكتبه في البرلمان في أنقرة، مشيراً إلى زاوية المكتب حيث كومة كبيرة من تقرير قام، لعدم رضاه عن التقرير الرسمي، شخصياً بكتابته عن القصف. تناول نسخة منها وتصفحها ووضع أصبعه على فقرة من الصفحات الأولى: 'هنا، قصة المخبر'. رسمتُ دائرة حولها وتأملتها بدقة في البيت.

في البداية قرأت تصريح المخبر ك.أ، الذي تم تدوينه في نهاية فصل «التقويم والخلاصة» من التقرير الرسمي للتحقيق. يقول التصريح بأن ك.أ هو مقاتل في الـ PKK وقد سلّم نفسه للسلطات بعد ٣ أيام من القصف وأبرم اتفاقاً مع المدعي العام: وهو ألّا تتم ملاحقته في مقابل المعلومات التي يدلي بها. وصف المخبر ك.أ كيف كان قد تحدث مع مقاتلين آخرين من الـ PKK يحملان اسمين حركيين، جودي كوي وكاظم. يقول ك، أ بأن جودي كوي أخبره بأنهما، جودي

وكاظم، انضما إلى مجموعة المهربين التي تم قصفها. فقد أرادا حسب ما قيل العبور إلى الجهة المقابلة من الحدود لزيارة الأهل في تركيا.

كما أفاد العميل ك، بناءً على كلام جودي كوي، بأنه عندما اقترب هو وكاظم، كونهما جزءاً من المجموعة، من الحدود التركية وسمعا صوت الطائرات، ابتعدا قليلاً عن المجموعة لكي يختبئا بين الصخورعندما بدأ القصف. وحالما غادرت الطائرات بعد إلقاء القذيفة الرابعة، عادا وتفحصا مجموعة المهربين ولاحظا بأن الجميع قد مات. فعادا مباشرة إلى قاعدتهما في العراق لأنهما توقعا قدوم الجيش إلى مكان القصف حالاً.

حسب التقرير الرسمي، كانت إفادة العميل قد تمت بتاريخ ٢ شباط ٢٠١٢ (أي بعد مرورأكثر من شهر على القصف) أمام المدعي العام في المدينة الحدودية سلوبي وفي محكمة الجرائم الكبيرة في دياربكر. لكن في شهر شباط ٢٠١٣ ظهرت القصة فجأة في الجرائد، مستندة إلى مصادر مجهولة. في الحقيقة ليس هناك أي دليل على وجود هذا العميل، ولا يوجد ضمن الصور الملتقطة بطائرات الدرون أي شيء يدعم ما أفاد به الشاهد.

استندت اللجنة، حتى ذلك الحين، في تحقيقاتها إلى صور طائرات الدرون الموجودة في ما يُسمى بـ«تقرير Aselsan». تعتبر Aselsan أكبر شركة تركية متخصصة بشؤون الدفاع تابعة للجيش

التركي. كان خبراء Aselsan موجودون أثناء مشاهدة الصور من قبل أعضاء اللجنة في شباط ٢٠١٢. وفي آذار ٢٠١٢، أي بعد ٣ أشهر من القصف، أرسلت هذه الشركة النتائج التي توصلت إليها من الصور إلى لجنة التحقيق. حيث ذكرت بأن صورما بعد القصف تظهر ذهاب الناس وعودتهم من وإلى مكان القصف، لكنها لم تمكنا من تحديد هويتهم ونشاطهم. فهذا أمر صعب التحقق منه عبر الصورالملتقطة بالكاميرات الحرارية، لكن ذهاب القرويين بعد القصف إلى الموقع لنقل الجرحى والمتوفين، هو أمر لا نقاش حوله ولا أحد يستطيع إنكاره.

وافقت اللجنة بكاملها على تقرير Aselsan المهني، وتم اعتماده كواحد من المصادر لكتابة تقريرها الخاص بها. في ١٤ تشرين الثاني ٢٠١٢ قررت اللجنة البدء بكتابة هذا التقرير.

يزعم ليفينت غوك أن أعضاء اللجنة من حزب العدالة والتنمية قد قاموا في شباط ٢٠١٣ بتعديل النتائج التي توصل إليه تقرير Aselsan في أعقاب ما ورد في الصحافة حول المخبر. يمكن الاطلاع على تفسير حزب العدالة والتنمية للفيديوهات الملتقطة بطائرات الدرون في التقرير النهائي. وهو يدور حول الدقائق الخمس بين الساعة ٢٦:٠٠ و٣١:٠٠، أي بعد ساعتين من انتهاء القصف. يخلو تقرير Aselsan من أي تفسير، بل يكرر فقط ذكر ’أشخاص‘ يركضون من الشمال إلى الجنوب وبالعكس، ويقدّر عددهم. لقد تم في التقرير النهائي للجنة اعتبار الأشخاص الذين كانوا يركضون في الدقائق الخمس حوالى الساعة ٣٠:٠٠ على أنهما مقاتلا الـ PKK جودي كوي وكاظم.

كما ذكر التقرير النهائي أن كاظم في الحقيقة هو فرهاد وأن جودي كوي هو في الحقيقة ب.ي. وأنه فقد اثنين من أخوته في القصف، وبالتالي قد يكون من عائلة إينجو، والذي هو الاسم العائلي لـ٢٦ ضحية من ضحايا القصف.

سمى ليفينت غوك الظهور المفاجئ لهذا المخبر بالـ 'المنقذ' لأعضاء اللجنة عن حزب العدالة والتنمية. بعبارة أخرى: وجوده هو ما يحتاجون إليه لتعزيز فرضيتهم بأن الطريق يُستخدم من قبل مقاتلي الـPKK وبأن عناصر من الـ PKK كانوا من ضمن المهربين.

كما لاحظ غوك بأن التأويل الجديد وغير المصرّح به للصور الملتقطة عن طريق طائرات الدرون لا يتوافق مع إفادة المخبر. لذلك كتب: 'إذا كان القصف الرابع والأخيرقد حدث في الساعة ٢٢:٢٤ وكان جودي كوي وكاظم، حسب تصريحهما لـ ك.أ، قد انسحبا مباشرة بعد القصف، لماذا إذاً، لا يظهر هروبهما في الصور الملتقطة إلا بعد ساعتين من القصف؟'

ثمة أمر آخر غريب. فمن المفترض أن يكون مقاتلا الـ PKK قد تثبتا، قبل عودتهما إلى العراق، بأن كل المهربين قد ماتوا. لكن كان هناك ثلاثة مصابين بجروح طفيفة وثمانية بجروح خطرة، حيث تم إنقاذ واحد منهم أما السبعة فقد توفوا أثناء نقلهم إلى القرية من قبل القرويين. هل يُعقل أن لا يكون الرجلان، اللذان يحملان الاسمين الحركيين جودي كوي وكاظم، قد شاهدا ١١ ضحية وهم على قيد الحياة؟

أما عن هوية المخبر ك.أ، في حال وجوده فعلاً، فمن المستحيل معرفتها. فقد تم وفقاً للتقرير الرسمي إطلاق سراحه بعد أخذ تصريحاته ومن بعدها اختفى.

'وهنا' يقول ليفنت غوك مرة أخرى وهو يتصفح تقريره الخاص، مشيراً هذه المرة إلى تصريحات إلهان بولوك، قائد الفرقة ٢٣ من الشرطة العسكرية في محافظة شرنك. تصريحات كان بولوك قد أدلى بها – لا أستطيع أنا أيضاً المساعدة في ذلك – من جديد في تقرير آخر، تم إعداده بأمر من وزارة الداخلية. كان قد قام بكتابته على عجل بعد القصف وتم بسرعة ختمه بالسري. سمُح لأعضاء اللجنة بالاطلاع عليه عدة مرات لكن بعد كل قراءة وتفحص (لم يُسمح بنسخ التقرير أو تصويره) كان عليهم إعادته.

في تقرير وزارة الداخلية يقول إلهان بولوك بأن فهمان حسين الذي يحمل الاسم الحركي باهوز إردال كان الهدف السياسي – العسكري الوحيد في المنطقة، ما يدعم النظرية التي تقول بأن الدولة كانت تنوي قتله. وحول المسار الذي يسلكه المهربون، قال: 'يُستخدم المسار،بالإضافة إلى التهريب، من قبل السكان بشكل يومي في أعمال مثل تجميع أعشاب وأخشاب الحرق'.

كما يذكر بولوك بأن عدم حصول أيّ رد فعل من قبل المجموعة على القذائف والطلقات التي سبقتها، هو دليل على الفرضية التي تقول إن المجموعة تتبع الـ PKK. فقد تابعت المجموعة سيرها بشكل طبيعي بعد سماعها صوت الطلقات، وهذا ما يقوم به مقاتلو الـ PKK

لأنهم يعلمون بأنها مجرد طلقات هدفها التخويف. ومع ذلك يقول الرائد محمد أولجينسوي الذي يخدم في المنطقة في تقرير وزارة الداخلية: 'لدي شكوك حول ذلك. لقد كان هذا التناقض هو ما منعنا من الاحتفال بتدمير العناصر الإرهابية'.

كما قام عضو اللجنة البرلمانية، المعارض ليفينت غوك باقتباس كلام رئيس دائرة الأمن في محافظة شرنك، المدوّن في تقرير وزارة الداخلية، الذي يقول فيه: 'وفقاً لمعلوماتنا ليست المنطقة المذكورة هي منطقة إرهابيين بل تُستخدم من قبل المهربين'.

لا يذكر التقرير الرسمي للجنة التحقيق البرلمانية، التقرير السري الخاص بوزارة الداخلية وبالتالي لا وجود لتصريح للمسؤول الأمني في المنطقة أيضاً.

لم يتناول التقرير النهائي أسئلة هامة من قبيل: من حلل الصور الملتقطة من قبل طائرات الدرون ومن استنتج بشكل قطعي أن هذه الصور هي لمقاتلي الـPKK؟ ما هي طبيعة التعليمات القتالية للعمليات التي تتم عبر الحدود مع العراق؟ لماذا استمر القصف حتى بعد إعلام القرويين للسلطات العسكرية بأن الذين تم قتلهم هم مهربون، وحتى بعد أن تواصل مختار قرية كول يازي هاتفياً مع أقرب مخفر عسكري؟ لماذا وقع القصف؟ من أعطى الضوء الأخضر ببدء العملية؟

التحقيق: السرية خط أحمر

بقيت، حتى بعد انتهاء المقابلة، على تواصل مع أرطغرل كوركجو، من حزب الـBDP المناصر للكُرد، وفي آذار تبيّن أن التقرير أصبح جاهزاً. كان قد اطّلع على التقرير النهائي لكنه لم يستطع تزويدي بنسخة منه، حتى بعد أن وعدته بأنني لن أقوم بنشره إلا بعد أن يتم نشره رسمياً، وذلك لأنه لم يكن شخصياً يمتلك نسخة منه. قال لي: ’تصوري، لم يُسمح لنا بأخذ نسخة من التقرير الذي أعدته لجنة نحن أعضاء فيها، كانوا خائفين من قيامنا بتسريبه إلى الصحافة. أما موعد نشر التقرير فهو أمر ليس لي علم به وقابل للتغيير في كل لحظة‘.

كانت السرية برأيه هي الخط الأحمر طوال الأربعة عشر شهراً التي استغرقتها التحقيقات. حيث يقول: ’كانت كل الاجتماعات مغلقة، بما فيها جلسة مشاهدة الصور الملتقطة بطائرات الدرون، بالرغم من عدم وجود أي أساس قانوني لهذا الإجراء. لقد طالبت، من أجل تشكيل تصور أوضح، بالاطلاع على الصور الملتقطة من خلال الطائرات الأميركية حول المنطقة الحدودية مع العراق، لكن ذلك قوبل بالرفض: قد يؤدي ذلك إلى تلاعب القوى الأجنبية بالتحقيق‘. لقد بدا متجهماً وفاقداً للأمل وهو يقول ذلك.

كما حالت السرية دون تحقيق رغبة أعضاء اللجنة في التحدث مع الضباط المسؤولين الكبار غير الضباط المحليين بمن فيهم قادة

القوى الجوية والبرية وقائد أركان الجيش، بالإضافة إلى رئيس الوزراء أردوغان باعتباره أعلى سلطة سياسية.

كانت السرية تشمل أيضاً الأدلة المادية، هذا في حال وجودها، التي لم يُسمح لأعضاء اللجنة بالاطلاع عليها، فعلى سبيل المثال، لم يُسمح بالتحقق من عدد المكالمات التي تم التقاطها عبر أجهزة اللاسلكي، والتي تم اعتمادها في التقرير بناءً على تصريحات شفهية صادرة عن قادة عسكريين محليين، وكذلك الإثبات على وجود المخبر المجهول، والتسجيلات التي تتضمن إفادته، أو إمكانية تعقبه والسماح للجنة باستجوابه. صور المنطقة المحيطة، وخريطة طوبوغرافية للمساحة الصغيرة التي وقعت فيها المأساة، والتي تضم أيضاً مواقع النقاط العسكرية.

لم تكن النتائج التي تضمنها التقرير الرسمي نتائج بالمعنى الدقيق للكلمة، بل أقرب إلى كشف فني عن الوضع الأمني في شمال العراق، وعن وجود فهمان حسين في تلك المنطقة، وحول المخبر المجهول وحديثه مع جودي كوي وكاظم، وعن الصور الملتقطة بواسطة طائرات الدرون وحول توقيت إقلاع الطائرات والمطار المستخدم... إلخ. إنها مجرد معلومات كان قد ورد ذكرها سابقاً في التقرير، والآن يتم تكرارها على أنها استنتاجات. وهي تدور فقط حول معلومات مصدرها القادة المحليون وباقي المسؤولين في المنطقة. أما لماذا تم اعتماد هذه المعلومات فقط على أنها استنتاجات ولم يتم الاستماع إلى روايات ومعلومات الأقارب والناجين، فهذا أمر غير واضح حتى الآن.

صرفت كثيراً من الوقت في قراءة تفاصيل التقرير الرسمي وبدائله المقدمة من قبل عضوي اللجنة ليفينت غوك من الحزب الجمهوري CHP وأرطغرل كوركجو من حزب السلام الديمقراطي BDP، حتى وصلت تدريجاً إلى الرسالة الأكبر من وراء التقرير الرسمي: إنه ليس تقريراً لتقصي حيثيات القصف، بل مجرد عرض عن الوضع الأمني في ذلك الجزء من شمال العراق. الملاحظ في التقرير المكون من ٨٣ صفحة هو ذكر كلمة «إرهابي» ٨٦ مرة وكلمة «إرهاب» ٩٣ مرة.

في البداية كنت مندهشة من إدراج اسم فهمان حسين القيادي في الـPKK على أنه المفتاح إلى القصف، لكن أعضاء اللجنة من حزب AKP وضعوا اسمه في التقرير لكي يدعموا «نظرية الحادث غير مقصود» عوضاً عن العمل لتوضيح عملية القصف. والأنكى من ذلك: تم في التقرير الحديث عن الرابط بين الوضع الأمني و'التهديد الإرهابي' بشكل موسّع بحث تحوّل فيه الضحايا والقرويون إلى متهمين واعتبارهم أعواناً للإرهابيين.

في الرأي العام التركي لا يستحق الإرهابيون أي رحمة – وهذا يشمل، بالنسبة إلى القوميين الأتراك، أعوان الإرهابيين، إن مجرد القيام مرة واحدة بربط عملية قصف أولديرى بالقتال ضد الإرهاب، ومجرد التصريح مرة واحدة فقط بأن الضحايا وأقاربهم كانوا على علاقـة مع الـPKK، هو أمر كفيل بالقضاء بشكل فعال على أي تعاطف كامن. وهو يحول أيضاً، دون طرح أي سؤال محرج حول: ما الذي حدث بالضبط في تلك الليلة ولماذا؟

أما كون أردوغان على علم بالقصف قبل وقوعه، فهو أمر يدخل في باب التخمين. يقول ليفينت غوك عضو اللجنة عن حزب CHP، المقتنع بذلك: في اليوم نفسه الذي حصل فيه القصف كان هناك اجتماع شهري لمجلس الأمن القومي يناقش القضايا السياسية والعسكرية الهامة في البلاد. 'فلا بد أنه تمت مناقشة وجود فهمان حسين، القيادي في الـ PKK، في المنطقة والإجراءات التي يجب اتخاذها'.

لكن لا يمكن تأكيد ذلك. إلى أيِّ مدى تمت مناقشة تفاصيل العملية الوشيكة في عصر ذلك اليوم، يعتمد أيضاً على تعليمات القتال السارية على المنطقة وعدم وضوح مدى تطبيقها. فضلاً عن ذلك، لم يتم ذكر اللحظة التي تم فيها اتخاذ قرار القصف: إذ إنه في البداية كان قد تقررالقيام بعملية عسكرية بريّة ولكن في لحظة ما تلقى الجنود الأوامر بالانسحاب، لذلك من المحتمل أن يكون قرار القصف الجوي قد اتُخذ في اللحظة الأخيرة. لا يذكر التقرير الرسمي شيئاً عن ذلك.

للمزيد من الإيضاح تحدثت مع لالى كمال، الخبيرة في الشؤون العسكرية والصحفية في جريدة Taraf. التي ذكرت بحذر أن لجنة التحقيق البرلمانية «لم تنجح في الوصول إلى الحقيقة، وذلك يعود جزئياً إلى سلطة الجيش في تركيا التي لاتزال خارج السيطرة. صحيح أن العلاقة بين رئيس الوزراء أردوغان والجيش هي جيدة، الأمرالذي يبدو وكأن أردوغان يملك السيطرة عليه لكن الواقع مختلف. في ظل الأنظمة التي تسودها الديمقراطية الكاملة كان الجيش على الأغلب

قد تصرف بحذر أكبر. إذ إن التحري عن عملية بحجم أولوديرى كان سيتم بشكل دقيق. لكن ضمن الوضع السياسي الراهن لا أحد يستطيع أو مستعد أن يضمن قيام الجيش بتوفير كل المعلومات'.

لم ترغب لالى كمال أن تعقب على السؤال فيما إذا كان القصف حادثاً عرضياً أو لا. لكنها تقول: 'حتى لو كان القصف حادثاً غير مقصود كما تدعي الحكومة، فإنه حادث متهور. لنفترض بأن مجموعة المهربين ضمت عناصر من الـPKK فهل هذا مبرر لقصفهم وهم ليسوا في حالة هجوم؟ يبدو أنه في هذا البلد ليس هناك مكان لقيمة حياة الإنسان'.

قرّر أعضاء اللجنة من حزب الـ AKP بأغلبيتهم، بأن يتم نشر التقرير في ٢٠ آذار ٢٠١٣. صرّح إلهان شينار للإعلام بأن القصف لم يكن متعمداً قط، وبأن السبب هو سوء التواصل بين السلطات المدنية والعسكرية وبأن الحادث وقع في سياق التهديدات الإرهابية في منطقة شمال العراق.

قامت الصحافة التركية باستنساخ هذا التصريح، المتناسب مع نهجها، بحذافيره ونشره، كما قام الكثير منها، في تغطياتها الإخبارية، بنشر فقرات عن الوجود المحتمل، لكن غير المثبت، لعناصر من الـPKK ضمن مجموعة المهربين. بعضها أشار إلى أن التقرير تم اعتماده بالأكثرية التي تتكون من أعضاء اللجنة من حزب الـAKP وأن أعضاء اللجنة الثلاثة من الأحزاب المعارضة قد رفضوا التقرير. لم تقم أي منها بالبحث بنفسها أو توجيه أسئلة نقدية لرئيس اللجنة شينار.

نوروز ٢٠١٣: بدء عملية السلام

لم يكن هناك توقيت استراتيجي لنشر التقرير أكثر من التاريخ الذي تم اختياره. غداً،٢١ آذار، عيد نوروز؛ العيد الأهم عند الكُرد، بداية الربيع وبالتالي بداية السنة الجديدة.

الاستعدادات لعيد نوروز ٢٠١٣ جارية على قدم وساق. منذ نهاية ٢٠١٢ تواصلت حكومة أردوغان، عبر جهاز الاستخبارات القومي MIT، بشكل علني مع أوجلان قائد الـ PKK حول إنهاء قرابة ٣٠ سنة من القتال بين الـ PKK والدولة. بعدما كان أوجلان محروماً فترة طويلة من الزيارات في سجنه في جزيرة أميرالي التي يمكث فيه منذ تاريخ اعتقاله ١٩٩٩، بدأت القوارب مع بدء السنة الجديدة تبحر ذهاباً وإياباً في بحر مرمرة بالقرب من ميناء بورصة. لايزال محامو أوجلان ممنوعين من زيارته في جزيرة أميرالي، ولم يُسمح إلا لأخيه محمد، بالإضافة إلى برلمانيين من حزب الـ BDP المناصر للكُرد. يتشاورون مع الزعيم الكُردي المعتقل حول استراتيجية عملية السلام وينقلون رسائل من الـ PKK وإليه في المعسكرات في كُردستان العراق وممثلي الحركات السياسية الكُردية في أوروبا.

بقي الناس أسابيع عدة يتهامسون فيما بينهم عما قد يحدث خلال نوروز. الشيء الواضح بالنسبة إليهم هو أنه ستتم قراءة رسالة من أوجلان، أما المحتوى فهو لايزال في حيز التخمينات. هل هو وقف إطلاق نار نهائي وتسليم الأسلحة، بعد أن قام الـ PKK بذلك عدة

مرات بشكل مؤقت من أجل حث الحكومة على إيجاد حل سياسي للقضية الكُردية وبالتالي إيقاف دوامة العنف؟ أم هل هو انسحاب الـPKK إلى خارج تركيا؟ هل قدمت الحكومة التزامات بإطلاق سراح أوجلان أو وضعه قيد الإقامة الجبرية كمرحلة انتقالية على طريق إطلاقه يوماً ما؟

يتم الاحتفال بنوروز إما في ٢١ آذار وإما يوم السبت الذي يليه في حال كان ذلك مناسباً، وفي أغلب الأماكن في اليوم نفسه. يقوم الحزب المناصر للكُرد عادة بتنظيم الاحتفالات التي تتضمن دائماً خطابات لسياسيين.

لكن هذه السنة الأمر مختلف: لتحقيق أكبر نسبة حضور في احتفالات نوروز دياربكر، المكان الذي ستتم فيه قراءة رسالة أوجلان، فقد جرت الاحتفالات في مدن الجنوب الشرقي وفي إسطنبول وإزمير وآضنه وميرسين وباقي المدن التي يعيش فيها الكُرد بكثرة، قبل أسبوع من هذا اليوم بحيث لم يكن أحد مضطراً للاختيار بين الاحتفال في مدينته والاحتفال التاريخي في دياربكر.

كان الوقت مبكراً عندما وصلتُ يوم الخميس ٢١ آذار ٢٠١٣ وأنا أرتدي تنورة مزهرة وتي شيرت (إنه الربيع أخيراً) إلى ساحة نوروز العملاقة في ديار بكر. كان قد تم إخبار وسائل الإعلام بضرورة وصولها مبكراً بعض الشيء لكي تتمكن من أخذ مواقعها المحجوزة بجانب المنصة تماماً قبل بدء ازدحام الناس. أجواء الاحتفال واضحة؛

فالموسيقى تعزف والمنصة اكتملت باللمسات الأخيرة، بالإضافة إلى بالونات وطعام وأعلام وشعارات والكثير من صور أوجلان ومقاتلي الـPKK القدامى الراحلين، وفي منتصف الساحة هناك موقد ناري ضخم مجهّز سيتم إشعاله لتكون نار نوروز الرمزية.

وأنا أمشي بخطوات متسارعة باتجاه المنصة، سمعت صوتاً يناديني من الخلف: 'فريدا!'؛ كثيراً ما كان الناس ينادونني بهذا الاسم لصعوبة لفظ فريدريكا من قبل الكثيرين في تركيا. التفت وكان لابد أن أفكر للحظة لأن السيدتبن اللتين نظرت إليهما كانتا هنا تماماً خارج سياق حالتهما العادية مع انطلاق احتفالات المدينة الكبيرة: إنهما اثنتان من نساء قرية كول يازي اللتان فقدت كل منهما ولداً في القصف. تعانقنا وتحدثنا بعض الوقت. قالتا لي بأنهما تجلسان بالقرب من المنصة، وتواعدنا على اللقاء هناك بعد قليل.

سرعان ما امتلأت الساحة وتجمع العشرات من الزملاء الصحفيين المحليين والدوليين في المكان المخصص للصحافة، المعزول عن بقية الضيوف بحواجز ترفرف عليها أعلام تحمل صور أوجلان. هناك الكثير من المعارف والأجواء مريحة ويتم بشكل دائم تقديم الشاي والشمس مشرقة- كان عليّ أن أنتعل صندلاً! - ومنصة الأشخاص المهمين ممتلئة بأعضاء حزب الـ BDP، وضيوف من خارج تركيا وقيادات من الحركة الكُردية. تم بشكل رمزي تخصيص مقعد فارغ لـ سكينة جانسيز التي ولدت ونشأت في ديرسيم وكانت في

١٩٧٨ من مؤسسي الـ PKK: كان قد تم اغتيالها مع ناشطتين كُرديتين في باريس في كانون الثاني ٢٠١٣. قمنا أنا وكل زملائي بأخذ صورة لمقعدها الفارغ، مع إدراكنا أنها لم تكن تستطيع الحضور حتى لو كانت على قيد الحياة؛ كانت ممنوعة من دخول تركيا.

ليس هناك أي وجود للشرطة، فعملية السلام قد بدأت. هناك تغيّر إذ إن وجود أعلام عليها صور أوجلان وكذلك صور لمقاتلين معروفين ماتوا في السنوات الثلاثين الماضية، لم تشكّل سبباً لنشوب القتال. فالحركة الكُردية لديها قوات الانضباط الخاصة بها التي توجد دائماً أثناء المناسبات والتظاهرات وقادرة بشكل ممتاز على تهدئة أعمال الشغب المحتملة بمساعدة الحضور.

إنه منتصف النهار وحان وقت قراءة رسالة أوجلان. أخذت مكاني خلف الشاشات في أعلى نقطة بجانب المنصة كي أستطيع رؤية حشود الجماهير: مئات الآلاف أو ربما بلغ العدد المليون بحسب ما سمعت من كثيرين. بجانبي يقف رجال مشغولون بربط البالونات على شكل باقة من الألوان الكُردية بحيث تكون جاهزة لإفلاتها في الهواء الطلق بعد الانتهاء من الخطاب. في الجانب الآخر أستطيع تماماً، من بين المنشآت، رؤية المنصة، حيث بدأت بير ڤين بو لدان، عضو البرلمان عن حزب BDP، بقراءة رسالة أوجلان بالكُردية – لم تكن لغتها قوية، هذا ما سمعته من الناس الذين بجانبي. عندما انتهت من القراءة، بدأت زميلتها سيري سوريا أوندر بقراءة النسخة التركية. الحشود في حالة سكون تقريباً، لكن التلويح بالأعلام لم يتوقف.

أما الجديد الذي تم الحديث عنه فهو: 'لقد وصلنا إلى النقطة التي تدفعنا إلى القول: لتسكت أصوات الأسلحة وتفسح في المجال لصوت الفكر والسياسة، وقد حان الوقت لوحداتنا للانسحاب إلى خارج الحدود. وأنه على الأتراك الذين يعرفون الأناضول القديمة على أنها تركيا، أن يعلموا بأن حياتهم مع الكُرد تعود إلى اتفاق تاريخي من الأخوة والتضامن تحت راية الإسلام'. بعبارة أخرى: الكُرد والأتراك وكل المجموعات الأخرى التي تُغني تركيا والتي ذُكرت في الخطاب، يجب أن تسير معاً إلى مستقبل جديد.

كان رد فعل مئات الآلاف هيجاناً من الفرح، إذ تم إطلاق البالونات في الهواء وتم تشغيل جهاز أطلق القصاصات الفضية اللماعة فوق رؤوس الحشود. وصدحت الموسيقى وبدأ الرقص.

في منصة الشخصيات الهامة جلست اثنتان من نساء قرية كول يازي، تحملان لوحة عليها صور لـ ٣٤ رجلاً وفتى من قريتيهما. لا أحد يعيرهما الانتباه. أما أنا، فبالكاد أجرؤ على سؤالهما عن شعورهما؛ تهزان كتفيهما ولا تتفوهان بأي شيء.

الهدنة ومحادثات أوسلو (٢٠٠٨ – ٢٠١١)

لقد فكرت ملياً في الحدث الأبرز في نوروز ٢٠١٣. ففي يوم واحد وخلال ٥ دقائق سريعة انقلب دعم الحركة السياسية الكُردية من تأييد الكفاح المسلح إلى مباركة إنهائه. مازلت أفكر في ما قالته

الناشطة الحقوقية والسياسية الكُردية ليلى زانا في ٢٠١٠: 'السلاح هو ضمانة للكُرد. ما دامت المسألة الكُردية غير محلولة، يبقى السلاح ضمانة للكُرد'. وما قالته كولتان كيشاناك، التي تشارك صلاح الدين ديمرتاش في زعامة حزب الـ PDB في البرلمان، أثناء مؤتمر صحفي كنت حاضرة فيه في ٢٠١٢: 'هل رأيتم في حياتكم منظمة مسلحة ذات هدف سياسي تتخلى عن سلاحها قبل أن تحصل على أي تنازل من الطرف الثاني؟'

أحسست بميل ذي مفعول رجعي يدفعني إلى رفع إصبعي في الهواء والقول: 'نعم، الآن أعرف منظمة كهذه'. بالطبع، لم يلقِ الـPKK السلاح بشكل نهائي في ٢١ آذار ٢٠١٣ ولم يسلّم أسلحته، لكن كلمات أوجلان لم تترك حيزاً كبيراً للعودة إلى العنف. ليس لأنني ضد السلام، وليس لأنني لا أرحب بوقف إطلاق النار، فكل انخفاض في عدد الضحايا هو أمر مرحب به، لكن كل ما في الأمر هو أنني لم أستطع استيعاب المسألة؛ لماذا الآن، فالحكومة لم تقدم أيَّ التزامات من طرفها؟ هل توصّل الكُرد فجأة إلى أن الضمانة ليست ضرورية؟

أعتقد بأن الجواب يكمن في حقيقة أن كلمات أوجلان خلال نوروز لم تطرح شيئاً جديداً. ففي بداية التسعينيات كانت هناك عملية سلام قد بدأت بمبادرة من الرئيس الراحل تورغوت أوزال وبمشاركة الزعيم الكُردي جلال طالباني كوسيط، حيث إن التفاوض مع أوجلان مباشرة لم يكن بالأمر السهل في تلك الفترة. حينذاك أعلن زعيم

الـPKK هدنة وتم تمديدها لكن أوزال توفي بسكتة قلبية قبل الوصول إلى نتائج ملموسة. يزعم الكثير من الكُرد بأنه 'قُتل!'، رغم عدم وجود دليل على ذلك إلا أن موت الرئيس كان موضوعاً متكرراً في الأخبار التركية.

كما كان أوجلان قد دعا قبل اعتقاله في ١٥ شباط ١٩٩٩ بعدة أشهر، إلى إنهاء العنف واتباع المفاوضات كسبيل للوصول إلى حل. سمعت ذلك في خريف ٢٠١٣ من أحد الشهود المقربين، خلال مؤتمر مصغّر مغلق في إسطنبول حول وضع الكُرد في تركيا والعراق وإيران وسوريا. عُقد هذا المؤتمر وفق مبدأ تشاتام هاوس، الذي يعني عدم إعلان أسماء الحضور أو ما تم الحديث عنه، لكن كان من بين الحضور أستاذ جامعي كان قد تحدث مع أوجلان ساعات عندما تم ترحيله من سوريا في ١٩٩٨ وذهابه إلى إيطاليا. يقول هذا الأستاذ: 'كان أوجلان حينذاك مقتنعاً بأن الكفاح المسلح ليس فعالاً، وبأنه محبط جداً من عدم انفتاح الدولة التركية على الحوار'.

قد يدعو ذلك إلى التهكم لكن أوجلان كان في إيطاليا محاصراً تماماً، واعتقاله كان قاب قوسين أو أدنى بعد أن قامت سوريا، التي استضافته مدة ٢٠ عاماً، بتركه وحيداً، ولم تسمح له دول كثيرة بالنزول على أرضها، وهو يبحث عن ملجأ، فصار مثل بطاطا ساخنة تمرر من دولة إلى أخرى. فلم يكن مستغرباً أن يقوم في ظرف كهذا بمحاولة إنقاذ نفسه بإعلانه فشل الكفاح المسلح.

لكن كل ذلك بقي مجرد كلام. حيث يتضح من خلال تقرير مفصل مذكور في كتاب Blood and Belief للكاتبة أليزا ماركوس، بأن أوجلان منذ لحظة مغادرته سوريا في ٩ تشرين الأول ١٩٩٨ وحتى اعتقاله في نيروبي كينيا في ١٤ شباط ١٩٩٩، كان لا يزال مقتنعاً بأنه سيجد مكاناً يلتجئ إليه. عندما كان في إيطاليا من منتصف تشرين الثاني ١٩٩٨حتى منتصف كانون الثاني ١٩٩٩، لم يكن يتوقع قط أنه بعد عدة أشهر سيكون جالساً وحده في سجن في جزيرة أميرالي قرب إسطنبول. طالبت تركيا حينذاك بتسليمه لكن إيطاليا مثلها مثل بقية الدول الأوروبية، لا تسلم السجناء إلى الدول التي تطبق حكم الإعدام. كان أوجلان، كسجين مقيم في شقة في ضواحي روما تحت رقابة مشددة، يلتقي قيادة الـ PKK، ويتحدث مع الصحفيين ويستقبل المتعاطفين و يتبادل الأفكار مع كل زواره من أمثال الأستاذ الجامعي الذي قابلته لاحقاً في إسطنبول.

بالمناسبة دعوة أوجلان الآن للسلام أو الحرب لا تغيّر من حكم الإعدام الذي تم استبداله بالمؤبد.

أدخلت عملية اعتقال أوجلان الـ PKK في أزمة. ففي آب ١٩٩٩ بعد شهرين من الحكم عليه بالإعدام، أعطى أوامره لمقاتلي الـPKK في تركيا بالانسحاب وإنهاء الكفاح المسلح. على أمل أن يتبعه حوار مع الحكومة للوصول إلى سلام دائم. كما تم استبدال المطالبة بالحق في الحصول على دولة خاصة، إلى المطالبة بالحصول على حقوق

ثقافية وسياسية كاملة للكُرد. كان للانسحاب نتائج مأسوية على الـPKK، فلم يكن الجيش ينوي ترك المقاتلين يغادرون دون معركة أو ضربة وقد فعلها وهاجم الكريللا وقتل منهم الكثير.

لم يأت قرار الحوار من فراغ، فقد تم في الحقيقة إعطاء عدد من التعهدات، مثل السماح باستخدام اللغة الكُردية في الإعلام، ولكن هذه الالتزامات لم تكن منذ زمن طويل تفي بمتطلبات الحركة السياسية الكُردية التي تطالب على سبيل المثال: بالحرية الكاملة في استخدام اللغة الكُردية. فضلاً عن ذلك لم تأت هذه التعهدات عبر مفاوضات. فالحكومة تعمل، منذ ٢٠٠١ تحت قيادة حزب العدالة والتنمية وحتى الآن، بمفردها، كما أن النخبة الكمالية مازالت تمسك بحزم بمفاصل أجهزة الدولة، بما فيها السلطة القضائية. وكان قد تم إسكات الحركة السياسية الكُردية تماماً؛ ففي ٢٠٠٣ تم حظر حزب الـ HADEP (حزب الشعب الديمقراطي) عن طريق المحكمة الدستورية بتهمة الانفصالية. لم تكن هذه هي المرة الأولى التي تقف فيها المحكمة العليا ضد الحركة السياسية الكُردية: ففي ١٩٩٣ و١٩٩٤ تم حظر الأحزاب التي سبقت الـ HADEP، وهي حزب HEP و حزب DEP على الخلفية نفسها. كما أنها لم تكن المرة الأخيرة، حيث تم في ٢٠٠٩ حظر حزب DEP، الذي خلف الـ HADEP. وهو الحزب الذي سبق الحزب الحالي BDP.

أعلن أوجلان في ٢٠٠٤ أسباب تعثر محاولاته للحصول على

حقوق الكُرد بالسبل الديمقراطية. فالهدنة تم اختراقها، واندلع العنف، وخصوصاً منذ ٢٠٠٦، ما أدى إلى المفاوضات في عام ٢٠٠٨. في أيلول من ذلك العام بدأت محادثات سرية للغاية عُرفت باسم محادثات أوسلو، حيث التقى ممثلون عن الـ PKK وممثلون عن الاستخبارات التركية MIT في عاصمة النروج للتفاوض على عملية السلام. كما كانت المحادثات مع أوجلان جزءاً من العملية؛ فقد قام ممثلو الاستخبارات التركية بزيارة أوجلان والتحدث معه في سجن جزيرة أميرالي عدة مرات.

ولدعم العملية، التزم الـ PKK عدة مرات وأحياناً من جانب واحد بوقف إطلاق النار. في النهاية لم تؤدِ محادثات أوسلو إلى نتائج ملموسة، وفي تموز ٢٠١١ توقفت فجأة بشكل نهائي. فالحكومة اتهمت الـ PKK بقيامه بهجوم في منتصف تموز على موقع عسكري في محافظة دياربكر، وقتل ١٣ عسكرياً، الأمر الذي جعل الاستمرار في المفاضات عملية مستحيلة. أما الـ PKK فقد وجه تهمة للحكومة بأنها لم تكن تريد أن تضع على طاولة المفاوضات أية اقتراحات جدية. كما اتهم الـ PKK الحكومة بافتقارها إلى أيِّ مبادرة لوقف العنف الذي كان يندلع بين حين وآخر أثناء المفاوضات. في شباط ٢٠١١ أعلن الـPKK انتهاء العمل بالهدنة، لكنه احترمها عملياً حتى انتخابات حزيران.

بقيت محادثات أوسلو سرية فترة طويلة، لكن في صيف ٢٠١١

تم تسريب تسجيلات صوتية عن المفاوضات التي فشلت مما اضطر أردوغان إلى الاعتراف بأن الحكومة كانت على تواصل مع الـPKK. وتجنباً لاتهامه بالتعامل السلس مع الـ PKK، أعلن سياسة متطرفة: سوف يتم التعامل من جديد مع هذه المجموعات بشدة وحزم.

وهكذا اندلعت فترة عنف غير مسبوقة. بحيث توصلت مجموعة الأزمات الدولية International Crisis Group المشهورة، بناءً على أرقام السجلات العامة، إلى الاستنتاج بأنه في الفترة بين تموز ٢٠١١ ونوروز ٢٠١٣ قُتل ٩٢٨ شخصاً في المعارك: منهم ٣٠٤ من جانب الدولة (عسكر، شرطة، حراس قرى)، و٥٣٣ مقاتلاً من الـPKK و ٩١ مدنياً بمن فيهم ٣٤ في قصف أولوديرى.

‘حداثة ديمقراطيّة‘

على الرغم من العنف وسقوط الكثير من القتلى، فقد حدث خلال السنوات الأربع السابقة تغيّرٌ مهم بين الناس، فالحكومة اعترفت بأنها تواصلت مع الـ PKK ومع ذلك لم يبدِ الشعب التركي أي معارضة؛ لم يعقب ذلك تظاهرات كبيرة، ولم يخسر حزب العدالة والتنمية الذي كان قد فاز بالانتخابات البرلمانية في حزيران ٢٠١١، أي دعم في استفتاءات الرأي. لقد كان الحزبان المعارضان في البرلمان، CHP وMHP، بشكل أساسي هما من حاولا استثمار المحادثات التي أجرتها الحكومة مع ‘زعيم الإرهابيين‘ و‘قاتل الأطفال‘، لكن دون نتيجة تُذكر.

وهذا ما جعل إعادة إحياء عملية السلام ممكنة. لم ينتظر رئيس الوزراء أردوغان تسرّب الخبر إلى الصحافة، بل أعلن في منتصف كانون الأول ٢٠١٢ بثقة كاملة بالنفس أن الحكومة قد بدأت محادثات مباشرة مع أوجلان منذ شهر.

للمرة الأولى منذ اعتقال أوجلان في ١٩٩٩ سُمح لبرلمانيين عن حزب الـ BDP المناصر للكُرد بزيارة أوجلان. فتم وضع القارب في الخدمة لزيارة جزيرة أميرالي؛ بعد أن كان هذا القارب مركوناً (منذ صيف ٢٠١١ لم يكن مسموحاً لأحد أن يزور الزعيم وكان يتم رفض كل طلب تقدم به محاموه تحت ذرائع رسمية منها أن القارب قد يصاب بعطل أو أن الأحوال الجوية في بحر مرمرة سيئة جداً). وكان موفدو الـ BDP يتشاورون مع الزعيم الكُردي ويتصرفون كمراسلين: كانت المراسلات بين أوجلان ومعسكرات الـ PKK في كُردستان العراق والحركة الكُردية في أوروبا نشيطة، كما كان موفدو الـ BDP يذهبون شخصياً إلى معسكرات الـ PKK في الجبال من أجل التشاور. كل ذلك كتحضير للنوروز والخطوات التي ينبغي القيام بها في عملية السلام.

للمرة الأولى منذ تأسيس منظمة ثوار كُردستان ولاحقاً الـPKK، يحصل أوجلان على فرصة ويقوم باغتنامها للتحدث بنفسه إلى كل الشعب التركي عما كان قد سعى إليه منذ ١٩٩٨: إنهاء العنف وتمهيد الطريق للحوار السياسي. في خطابه في نوروز قال، بعد إعلانه الهدنة

والانسحاب إلى خارج تركيا: 'هذه ليست نهاية نضالنا بل هي بداية لنوع جديد من النضال'.

كانت كل العيون في تركيا متجهة في هذا اليوم إلى دياربكر، الكل يستمع إلى أوجلان، والزعيم يتوجه لأول مرة منذ انطلاقة الـ PKK إلى الشعب التركي:'لم يكن في يوم ما نضالاً ضد عرق أو دين أو طائفة أو مجموعة معينة، ولن يكون أبداً. نضالنا كان دائماً ضد القمع، والجهل، والظلم، والافتقار إلى التنمية وكل أشكال الضغط. وبمناسبة نوروز أدعو كل الناس من أصول أرمنية وتركية وآشورية وعربية وباقي الأصول أن يروا شعاع الحرية والمساواة بشكل واضح كما يفعل الكُرد'.

يفكر أوجلان، كما يقول برلمانيان من حزب الـ BDP، ملياً في التاريخ المشترك للكُرد والأتراك، وخصوصاً فترة تأسيس الجمهورية التركية والفترة التي سبقتها. فقد أشار إلى حقيقة أن الجنود الكُرد والأتراك قاتلوا جنباً إلى جنب واستشهدوا خلال الحرب العالمية الأولى وبعدها في حرب الاستقلال من أجل تشكيل الدولة الجديدة. وبأن الكُرد والأتراك شكّلوا معاً الجمعية الوطنية في ١٩٢٠. يقول:'من تاريخنا المشترك تنبع حاجة متبادلة لبناء مستقبل مشترك'.

وبهذا يكون قد وضع الكرة في ملعب الحكومة.

إذاً، أوجلان يتمنى وقف إطلاق النار والبدء بالحوار، وهذا ليس

بالجديد. لكن أليست دعوته إلى مشاركة الكل في بناء دولة أساسها الحرية والديمقراطية والمساواة، وتوفيرها مكاناً لكل الهويات، بعيدة كثيراً عن المبادىء التأسيسية؟ هل تخلى عن مطلب كُردستان المستقلة وعن مطلب حرية تقرير المصير داخل تركيا؟

لماذا ذكر فقط تلك الفكرة المثالية المسماة بـ 'الحداثة الديمقراطية' ولم يتحدث عن الحكم الذاتي والتعليم باللغة الكُردية من أجل الحفاظ على اللغة من الزوال وعلى الرابط مع التراث الثقافي الكُردي وعن مئات الكُرد الذين يقبعون في السجون لأسباب سياسية وعن المدنيين الذين لا يتمتعون بحماية الدولة ويُقتلون ولا تتم معاقبة الجناة؟ لماذا يريد أن يكون زعيماً للكل بدل أن يكون للكُرد؟ كيف يستطيع الكُرد العمل مع الأتراك من أجل مجتمع ديمقراطي حقيقي إذا كانوا لا يتمتعون بحقوق كاملة؟ أليس من الأجدى النضال من أجل هذا أولاً بدلاً من وضع أفكار مستقبلية مثالية كهذه والتي تحتاج إلى أجيال لكي تتحقق وربما لا تتحقق؟ أود لو أستطيع إجراء مقابلة مع الزعيم لكي أحرجه بهذه التساؤلات، لكن ويالالأسف، غير مسموح في الوقت الحاضر، للصحفيين بركوب القارب الذاهب إلى جزيرة أميرالي.

حوادث القتل التي وقعت في التسعينيات والتي لاتزال دون حل

منذ خريف ٢٠١٢ تنتصب شواهد على ٣٤ كومة في مقبرة قرية كول يازي؛ كلها من الغرانيت الأسود ومسورة أيضاً بحجارة من النوع نفسه. لاتزال مغطاة تحت الورود والنباتات الصناعية الملونة، لكنها مع ذلك: سوداء، ثقيلة، قاتمة، بائسة.

وهكذا يقبع هنا، تحت تراب كُردستان آلاف الكُرد الذين قضوا بسبب العنف. بعضهم له قبر معروف يهتم به أقرباؤه، كما هو الحال في كول يازي. وفي أحيان كثيرة تحت التراب دون حجرة أو شاهدة على مثواه الأخير. والمقابر الجماعية ليست نادرة في هذه المنطقة. هناك مشتركات بين تلك الضحايا وضحايا قصف أولوديرى: الدولة هي المسؤولة عن ذلك وترفض البحث عن حقيقة الأمر. وأقارب ضحايا التسعينيات وكذلك ضحايا أولوديرى يطالبون أسبوعياً بالاهتمام بمصيرهم. ففي دياربكر وإسطنبول هناك تجمع للنساء اسمه 'أمهات السبت'، حيث يتجمعن كل سبت، أما في كول يازي فإن نساء أقارب الضحايا يتجمعن كل يوم خميس.

يحملن معهن صورة لأب أو زوج أو ابن أو ابنة، من الذين لم يسمعوا عنهم أي شيء قط، لكن نادراً ما يصلن إلى جريدة أو نشرة أخبار. لم يخفت الاهتمام بتجمع أمهات السبت فقط، بل أيضاً بضحايا

أولوديرى بعد السنة الأولى. كم هي طويلة لائحة ’جرائم القتل غير المحلولة من قبل الدولة‘، ولاتزال في ازدياد.

ثمة خريطة لتركيا رسمتها منظمة حقوق الإنسان IHD، ووضعت عليها أعلاماً صغيرة ترمز إلى كل المقابر الجماعية في تركيا. من السهل ملاحظة كثافة هذه الأعلام على منطقة جنوب شرقي البلاد. غالباً باللون الأحمر، وأحياناً بالأصفر. يرمز الأحمر إلى ’مقابر جماعية ‘ متوقعة والأصفر يعني ’مقابر جماعية مستكشفة‘. التخمينات مستندة إلى تصريحات شهود وسكان القرى المجاورة، وأحياناً إلى اعترافات قتلة أبدوا لاحقاً أسفاً وندماً كبيرين.

إن تحريات منظمة الـ IHD دقيقة جداً، إذ إنها أعدت في هذه الأثناء قائمة ليس بأماكن المقابر فقط، بل بتواريخ حصول الدفن والأعداد التقريبية للضحايا أيضاً.

لكن قائمة المقابر الجماعية في محافظة دياربكر المعدة من قبل منظمة IHD طويلة وغير واضحة نوعاً ما فيما يخص الاسم الجغرافي، بسبب ذكر بعض القرى باسمها الكُردي، وبعضها الآخر بالتركي. على أيِّ حال، يُعتقد بوجود قبور حوالى ٣٠ شخصاً في قرية زيره منذ عام ١٩٩٣، و٢ بالقرب من ايركينجي منذ عام ١٩٩٤، و١٧ في جوار كوسكا منذ ١٩٩٨. في محافظة بيتليس: ٣٣ منذ ١٩٩٤ عند قرية كوكارسو، و٤ في السنة التالية قرب جاكال سوغوت، و٢٧ منذ ١٩٩٧ في خزان ماء. محافظة شرنك: ٢٤ منذ ١٩٩٤ عند جيفرا، ٥٢

في قبور مجهولة في مقبرة مدينة سلوبي. أما أقدم مقبرة جماعية فيُعتقد أنها تعود إلى عام ١٩٢٥، محافظة بينغول: عائلة تم حرق منزلها أثناء انتفاضة الشيخ سعيد. هناك مقابر جماعية تعود إلى عامي ١٩٣٧ – ١٩٣٨ مدونة في القائمة، تضم رفات حوالى ٢٥٠ شخصاً؛ تقع المقابر الثلاث في قرية جميش غيزمك وآليجيك في محافظة ديرسيم.

يبلغ العدد الإجمالي للمقابر الجماعية المذكورة في قائمة منظمة IHD ٢٥٣ مقبرة جماعية تضم ما يقدر عدده بـ ٣٢٤٨ شخصاً.

فرق الموت العسكرية

إن المسؤول عن أغلب عمليات القتل هو JITEM، دائرة الاستخبارات ومكافحة الإرهاب التابعة للجيش التركي، التي تم تأسيسها في نهاية الثمانينيات لمحاربة الـ PKK، والتي تم حلها على الأغلب في نهاية التسعينيات أو بداية هذا القرن. حدث ذلك بالتزامن مع فرض قانون الطوارئ (OHAL بالتركية) على ١٠ محافظات في جنوب شرقي تركيا، التي كانت شبه مغلقة وكانت السلطات فيها فوق القانون.

كانت JITEM منظمة غير قانونية ولاتزال قيادة الجيش التركي تنكر وجودها. لكن هناك إثباتات دامغة تؤكد العكس. فقد اعترف أحد مؤسسيها، الجنرال والي كوجوك الذي تقاعد في عام ٢٠٠٠، بأنه كان من قيادات الـJITEM. بالإضافة إلى توافر مصادر أخرى كثيرة

تم الكشف عنها: كشهادات عملاء الـ JITEM السابقين الذين فروا من تركيا، وأشهرهم عبدالقادر آيغان الذي بدأ مقاتلاً في الـ PKK وتم تجنيده لاحقاً من قبل JITEM وهو الآن لاجئ سياسي في السويد.

تحدث آيغان في مقابلات مع مختلف أجهزة الإعلام العالمية بشكل علني عن أساليب JITEM، وكذلك فعل اثنان من زملائه السابقين. لقد كان مجرد تجوال سيارة الرينو البيضاء ماركة طوروس المصنعة في تركيا، في مناطق الـ OHAL (محافظات كانت محكومة بقانون الطوارئ) كفيلاً بزرع الرعب في قلوب سكان المنطقة. مازال الناس هنا يتحدثون عن تلك الأيام: عندما كنا نسمع بوجود هذه السيارة في الجوار كنا نتوقع حدوث عملية خطف واختفاء. فالذي يتم أخذه بسيارة طوروس عن طريق JITEM لا يعود حياً. يقول عبدالقادر آيغان:'كنا نقتل الناس على الأغلب ليلاً، عندما لا يوجد عساكر. كنا نستجوب الناس ولم يكن ينجو أحد'.

لم يكن تأسيس هذا التنظيم غير القانوني موجهاً بالدرجة الأولى ضد عناصر الـ PKK، فهذه مهمة القوات البرية والجوية. بل كان نشاطه مركّزاً ضد الكُرد الذين تربطهم علاقة بالـ PKK أو المشتبه في ارتباطهم، وضد الذين يعتزون بتعاطفهم مع الحركة (والذين كانوا في الغالب من عامة الناس) وضد المثقفين الكُرد وأحياناً ضد الناس بدون تعيين.

كانت عملية اغتيال الكاتب موسى عنتر هي إحد ى أشهر عمليات

JITEM، إذ إنه يعتبر أحد أهم رموز الحركة السياسية الكُردية الأوائل: كان قد دين لأول مرة في عام ١٩٥٩ لأنه كتب شعراً باللغة الكُردية؛ بلغ مجموع السنوات التي قضاها في السجن حوالى ١٢ عاماً. في ٢٠ أيلول ١٩٩٢ طلب منه بعض الرجال الذهاب معهم للمساعدة على حل نزاع على ملكية قطعة أرض، التي تبين فيما بعد أنها لم تكن سوى خديعة للتخلص منه وبالفعل تم قتله.

لاتزال قضية اغتيال عنتر أو Apê Musa ('العم موسى' باللغة الكُردية)، والتحريات المتعلقة بها هي حديث الجرائد بشكل منتظم. صوره منتشرة في كل مكان من كُردستان، كما تمت تسمية جائزة صحفية هامة باسمه تُمنح في ذكرى وفاته. لا يتم الحديث عن آلاف الضحايا الذين سقطوا على أيدي JITEM إلا عندما يتم اكتشاف مقبرة جماعية أو عندما يتم التعرّف إلى بقايا الجثث. عندئذ تظهر صور أهالي الضحايا في الجرائد الكُردية وهم يقومون بعملية إعادة دفن، وأحدهم كيس يحتوي على ما تبقى من الجثة بعد كل هذه السنوات.

خلال سفري أسمع أحياناً عن الذين لم يتم استكشافهم والتعرّف إليهم بعد. ففي نهاية ندوة سياسية في دياربكر، تقدمت سيدة باتجاهي وهي تحمل بيدها صورة. سألتني عن جنسيتي وفيما إذا كان لدي وقت للتحدث؟ أخبرتني كيف أتت الشرطة في أحد الأيام إلى منزلها تبحث عن زوجها، كانا قد تزوجا حديثاً، في بداية التسعينيات. لم يكن حينذاك زوجها في البيت، لكنه قرر لاحقاً الذهاب بنفسه إلى مكتب

الشرطة للاستفسار. لو لم يفعل ذلك لعادوا للسؤال عنه، هكذا كان يعتقد. شاركتني هذه المرأة في ذكرياتها: ’قلت له يجب أن لا تفعل ذلك،لأننا نعرف بأن بعض الناس قد اختفوا، لكنه مع ذلك ذهب. قال لي: «لم أرتكب أي خطأ، لا يمكنهم اتهامي بأي شيء، إذاً، لماذا لا أذهب؟» هذه كانت آخر كلماته التي مازلت أسمعها‘.

شارك في هذه الندوة سياسيون مقربون من الحزب الحاكم AKP. لذلك أتت إلى هذا المكان طلباً للمساعدة. رأيتها هذا الصباح وهي تري صورة زوجها إلى أحد السياسيين وتسأله عما إذا كان يستطيع مساعدتها في البحث عنه.

مركز فني متخصص بالبحث عن المفقودين

كان تنظيم JITEM يقوم بتشويه الجثث بالأسيد لكي لا يتم التعرف إليها، ويرميها في الحقول والأنهار وتحت الجسور وكذلك آبار حقول الشركة الوطنية التركية للنفط والغاز على مقربة من قاعدة عسكرية في مدينة سيلوبي على الحدود العراقية. لقد أعطت ’آبار الموتى‘ هذه، أسماءً رمزية لمواقع الردم. أخبرني طاهر إلجي، المحامي في قضايا حقوق الإنسان، أثناء مقابلة في مكتبه في دياربكر في كانون الثاني ٢٠١٢ بأنه عندما يتم العثور أحياناً على جثث: ’تقوم السلطات بأخذها ودفنها في مقابر مجهولة، في مقبرة عشوائية لا على التعيين‘.

عُثر في كانون الثاني ٢٠١٢ أثناء القيام بأعمال الترميم، على مقبرة جماعية في قلب مدينة دياربكر القديمة. قيل آنذاك بأنها مقبرة تعود إلى التسعينيات، لأن المقبرة اكتُشفت تماماً بجانب مكتب JITEM. لم يستطع إلجي خلال المقابلة أن يدلي بأي شيء في هذا الخصوص: «نحن نعلم بأن مكتب JITEM كان موجوداً في هذا المكان، ولدينا معلومات عن أساليب التعذيب التي كانت تجري هنا والتي كانت تنتهي بموت الكثيرين لكن لا نستطيع أن نجزم بأن هذه المقبرة هي نتاج أفعال JITEM. قد تعود إلى زمن انتفاضة الشيخ سعيد في العشرينيات أو تكون مقبرة تخص الأرمن المقتولين، أو ربما أشياء آخرى».

تم فحص البقايا البشرية في مختبر التحاليل الجنائية. وبعد شهرين أُعلن أنها تخص بقايا عظام بشرية تعود إلى أكثر من مئة عام، وبأنها تضم عظام حيوانات أيضاً. لكن الشكوك ما زالت باقية. هناك الكثيرون ممن لا يثقون بالتقارير الرسمية.

يقول طاهر إلجي، أحد مؤسسي الفرع التركي لمنظمة العفو الدولية والعضو في منظمة حقوق الإنسان التركية IHD، منذ بداية نشاطه في ١٩٩١، حول تحقيقات كهذه: ’على الحكومة أن تُقنع المجتمع بأنها عملت ما بوسعها من أجل الوصول إلى الحقيقة ومعاقبة الفاعلين‘. وهو يعلم بأن هذه الثقة ليست موجودة. ويرى أن مختبر التحاليل الجنائية في الوقت الحاضر هو جهة موثوق بها بشكل معقول، ولكن مازالت هناك حاجة إلى فعل المزيد من أجل الحقيقة.

يقول إلجي: 'يتوقف عملنا كمحامين على المدعي العام، فهو من يسمح لنا بالكشف عن مقبرة وهو الذي يجب أن يقود البحث. قبل ١٠ سنوات لم يكن هناك أي استعداد من هذا القبيل، وفي هذه الأيام يتوقف الأمرعلى شخصية المدعي العام الذي تخاطبه؛ للأسف ليس هناك نهج محدد'.

يرى إلجي ومحامون آخرون عاملون في قضية المفقودين والمقابر الجماعية وجوب إنشاء مركز وطني فني متخصص، حيث يوفر الخبرة، ويحتوي على قاعدة بيانات DNA لمقارنة المواد الجينية لأفراد عائلة المفقودين بالبقايا المستكشفة، وحيث يستطيع المحامون والمدعون العامون والخبراء الفنيون على السواء تبادل المعلومات. كما يمكن بوجود مركز كهذا فتح المقابر وتفتيشها دون الحاجة إلى تقديم طلب من قبل أيّ عائلة. فعلى سبيل المثال، يقول إلجي: ' قبل أسبوعين قدّم أحد الجنود معلومات إلى المدعي العام عن عمليات قتل وقعت في سيلوبي في عام ١٩٩٣. فدعيت إلى هناك لأنها تخص معلومات شبه مؤكدة عن مفقودين معروفين، فهي قضية عندي اطلاع عليها تماماً'. غالباً تخص عائلات ليس لها أي فكرة عن مكان موت أولادها ودفنهم. يقول إلجي: 'يتحتم على العائلات التي تريد البحث عن رفات أحبتها أن تتقدم بطلب إلى النيابة العامة عن طريق محامٍ كي يتم السماح بالحفر في مكان معين. لكن أماكن المقابر الجماعية المحتملة ليست دائماً محددة، لذلك يتم على الأغلب البحث في كامل المنطقة'.

هناك إمكانية للحصول على معلومات عن تلك الأحداث من أناس كانوا شهوداً على ذلك التاريخ، لكن غالبيتهم مازالوا خائفين من التحدث. كما يمكن الحصول على معلومات بهذا الخصوص من خلال المواكبة الدقيقة للصحف. ففي عام ٢٠٠٩ كنت قد تحدثت مع إلجي عبر الهاتف عن قصة «موتى الآبار». في ذلك الوقت كان عبدالقادر آيغان، العضو التائب من تنظيم JITEM، يدلي مرة أخرى بتصريح في مقابلة صحفية عن معلومات جديدة عن أحد المقتولين الكُرد الذي كان إلجي نفسه مكلفاً من قبل العائلة لسنوات بالبحث عنه. وبناءً على هذه المعلومات الصحفية تمكّن إلجي من متابعة الإجراءات القانونية.

أما المشكلة الأخرى فيما يخص التفتيش عن المقابر الجماعية، فهي أن الحكومة لا تراعي بشكل دقيق ما يسمى بروتوكولات مينوستا (Minnesota Protocols)، التي صيغت من قبل مجموعة من خبراء جنائيين ومحامين وخبراء حقوق الإنسان، وهي معتمدة عالمياً معياراً في البحث عن قضايا كثيرة كالإعدامات التي تمت بدون محاكمات وعمليات الإبادة. يوضح البروتوكول القواعد التي يجب اتباعها في فتح المقابر الجماعية، وما هي الطريقة المثلى في جمع الأدلة عن هوية الضحايا والفاعلين وظروف القتل، وكيفية تشريح الجثة والنقاط التي يجب التركيز عليها في حالات قتل كهذه. فضلاً عن ذلك توصي هذه القواعد بتشكيل لجنة تحرّ خاصة حيادية في حال كان البحث يدور حول قتلى كانت الحكومة على اطلاع على موتهم.

عملياً، تواجه منظمات حقوق الإنسان في تركيا معضلة. القتل تم

عن طريق الدولة، لكن الصراع الذي تمت خلاله عمليات القتل لايزال مستمراً، لذلك لا تقوم الحكومة بأي مبادرة لتشكيل لجنة مستقلة.

كما أن العديد من منظمات حقوق الإنسان لديها آراء مختلفة حول طريقة تفتيش القبور بين الفتح السريع أو توخي الحذر. لا شك بأن السرعة حاسمة في ضمان الجودة العالية للـDNA، لكن الاحتراس ضروري لمنع تخريب الـ DNA أو الاتساخ. فعلى سبيل المثال، استخدام حفارات هيدروليكية، كما يحدث، في فتح مقبرة جماعية يؤدي إلى ضياع فرصة تصوير البقايا البشرية في مواقعها الأصلية، وضياع إمكانية تجميع أكبر كمية ممكنة من مواد يمكن الحصول منها على الـDNA، مثل الشعر بجانب الجماجم.

لهذه الأسباب لا تقوم أحياناً مجموعة IHD المنشغلة في قضية المقابر الجماعية، بتقديم طلب لفتح المقابر. يقول طاهر إلجي الذي لا يرى ذلك خياراً: 'تجب المحافظة على سلامة الـ DNA المتوافر حتى لو لم يتم اتباع المعايير الدولية دائماً'. فقد مر وقت طويل، يتابع إلجي:' نشأت في محافظة شرنك التي كانت تعيش تحت قانون الطوارىء حتى عام ٢٠٠٠. ضمن هذا الحالة من غياب القانون، كان بحث المواطنين عن مساعدة قانونية ضد انتهاكات حقوق الإنسان أمراً محفوفاً بالمخاطر. الكثير من الحالات لم تبدأ إلا بعد عام ٢٠٠٠'.

لم تمس هذه المسألة إلجي شخصياً فقط لأنه كُردي عاش ورأى الكثير من الأهوال أثناء عمله محامياً مبتدئاً في التسعينيات في محافظة شرنك، وعانى منها، ففي عام ١٩٩٣ اعتقل مع ١٥ زميلاً حيث تم

تعذيبهم على يد قوات الدرك. ثم تعرض إلجي للاعتقال مرات كثيرة، وكانت هناك مخططات لاغتياله، بالإضافة إلى عرقلة عمله.

في آذار ٢٠١٢ كان إلجي موجوداً في المكان الذي كان يتم فيه التفتيش عن مقبرة جماعية هامة بالنسبة إليه. كان من المرجح أن تكون جثة شقيقه رمضان موجودة فيها. فقد تم التوصل إلى مكان المقبرة من خلال معلومات أدلى بها جمال تميزوز أثناء استجوابه بتهمة العمل مع فرق الموت في ذلك الوقت، وهو العسكري الوحيد الذي تمت محاكمته. استغرقت عملية التعرف إلى الجثة وقتاً طويلاً، لكن في ربيع ٢٠١٣ انتشر الخبر: إنها جثة رمضان الذي اختفى في عام ١٩٩٤.

عندما تجتمع (أمهات السبت) أسبوعياً في إسطنبول ودياربكر، يحملن صور أحبائهن الذين فقدوهن، كذلك يفعل أيضاً، أقارب الضحايا في أولوديرى كل يوم خميس في المقبرة.

بعد أسبوع تماماً من عيد نوروز وبالتحديد في ٢٧ آذار ٢٠١٣، وبينما كانت تركيا لا تزال تستمتع بإعلان السلام، قامت بإضافة حادثة قصف أولوديرى إلى قائمة عمليات القتل التي ارتكبتها الدولة والتي لاتزال معلقة تنتظر الحل. وهو اليوم الذي قامت به لجنة حقوق الإنسان في البرلمان، التي تعتبر لجنة أولوديرى لجنة فرعية منها، بالتصديق على تقرير التحريات. كان ثلاثة أعضاء من اللجنة منتمين إلى أحزاب المعارضة، ليفينت غوك من حزب CHP، أرطغرل كوركجو من حزب BDP، أتيلا كايا من حزب MHP، قد قدموا اعتراضاً لتعديل التقرير لكن دون جدوى.

اليوم الـ ٥٠٠ على القصف

كنتُ مع العشرات من أهالي قريتي أورتاسو وكول يازي جالسين على أرض صخرية ننظر إلى المكان الذي تم قصفه. نحن على بعد مئات الأمتار من المكان، الذي لم يتسن لي حتى هذه اللحظة الاقتراب منه أكثر من ذلك. قبالتنا وعلى بعد حوالى ٥٠ متراً تقف دبابة وإلى جانبها صف من الجنود. لقد سوروا المكان بشريط ذي لونين، أحمر وأبيض، ووضعوا لوحة مكتوب عليها: منطقة عسكرية ممنوع الاقتراب.

وعلى مسافة قصيرة منهم باتجاه الأعلى، هناك مجموعة صغيرة يبدو أنها مكونة من أقارب الضحايا، يصل عددهم إلى حوالى ١٥٠ شخصاً. كانوا قد طلبوا بكل هدوء من الجنود أن يفسحوا لهم الطريق للمرور، لكن عندما لم يحصلوا على أي استجابة، تسلقوا الجبل المحيط بالبقعة المطوّقة. كانت غايتهم إحياء ذكرى الضحايا في المكان نفسه الذي ماتوا فيه وذلك بوضع ٣٤ وردة قرنفل على المكان. كانت بكيزا هناك أيضاً مع ابنها البكر أوزكان، يتسلقان الجبل.

نحن في ١١ أيار ٢٠١٣، اليوم الـ ٥٠٠ على القصف. إذ يتم عدّ كل يوم يمر دون إحقاق العدالة للضحايا، وفي بعض الأيام يتم إحياء ذكراهم بشكل أكبر من ظهيرة أيام الخميس المخصصة لهذا الغرض. في ذكرى مرور ٢٥٠ يوماً على القصف كان هناك أيضاً إحياء للذكرى، حينذاك ووجه الأهالي بالغازات المسيلة للدموع ورشاشات المياه

لمنعهم من الوصول إلى الطريق المؤدي إلى الجبال. يبدو أن الجنود لديهم هذه المرة تعليمات مغايرة.

بقيت ساعات وأنا أشعر وكأنني أشاهد فيلماً. على اليمين من مجموعتنا، يمتد الطريق الذي سلكناه عند قدومنا إلى هذا المكان، وعلى بعد مسافة قليلة من ذلك تقع ساحة صغيرة منبسطة حيث تقف الباصات الصغيرة والجرارات الزراعية التي استخدمناها لقطع المسافة القصيرة الأولى من قرية أورتاسو. وقبالتنا إلى اليمين حقلٌ ذو سياج، وقبالتنا تماماً الطريق إلى مكان القصف مطوّق بالعسكر.

في الوقت الذي كان أقارب الضحايا يحيون ذكرى موتهم في الأعلى، سمعنا فجأة أصوات هيليكوبتر على يميننا، تحلق بشكل منخفض باتجاهنا وهي تهبط بهدوء على ساحة تقع قبالتنا. فتحت الأبواب ونزلت مجموعة من الجنود يحملون الدروع والهراوات. تكرر الأمر ثلاث مرات وهي تحمل تعزيزات.

لاحقاً وأنا أقرأ تقرير لجنة تقصي الحقائق، استعدتُ هذا المشهد، إذ إن الجيش يعلل سبب عدم استخدامه المروحيات في عمليات الإنقاذ بعد القصف من أجل نقل المصابين بأقصى سرعة إلى المشفى، بقوله: «لا توجد ساحة لكي تهبط عليها المروحيات».

ركض الجنود على مسار محيط الساحة باتجاه البوابة المغلقة. فوجئت عندما رأيت أحد القرويين وهو يركض ويفتح البوابة لهم. سألته وأنا مندهشة: ’لماذا قمت بذلك؟‘ فأجاب ’أنا أعرف كيف

تُفتح البوابة، ربما هم لا يعرفون ذلك. كما تعلمين هم عساكر يؤدون الخدمة الإلزامية ولا يستطيعون فعل أي شيء حيال وجودهم هنا'. مر العسكر وخوذهم على رؤوسهم بالقرب منا فلاحظت بأنهم مازالوا في مقتبل العمر. أحدهم فقد درعه بفعل قوة الهواء الصادرة عن مروحة الهيليكوبتر.

تفرّق الجنود على التلال واختبأوا بين الأحراج. كنا نراقبهم ورأينا أحدهم يقوم بتصويرنا. أتمنى أن تكون صورتي واضحة فذلك سيكون إثباتاً على أنني لم أذهب مع الآخرين إلى الأعلى؛ إذ إن ذلك يعتبر عبوراً للحدود بطريقة غير شرعية؛ في حالات كهذه يتم تغريم المواطنين الأتراك، أما بالنسبة إليّ كأجنبية فإن ذلك يعني الترحيل بشكل مؤكد وقد يصل إلى حد المنع من دخول البلاد مدة ٥ سنوات.

بعد أن انتشر الجنود، نزل أحد أقارب الضحايا إلى الأسفل للتشاور معهم. كما تحدّث معهم أيضاً واحد من المجموعة المتبقية. إذ إن القرويين يريدون التحقق من عدم تعرضهم للاعتقال وهم في طريقهم إلى الأسفل. عدة مرات تسلق المفاوض الممر الجبلي إلى الأعلى وإلى الأسفل بين مجموعة أقارب الضحايا على الجبل والجنود في السهل.

استغرق هذا الأمر ساعات، ونحن نراقب ذلك ونتناول بعض الطعام بين الحين والآخر؛ البعض قد جلب معه خبزاً وجبناً وتقاسموه، والبعض الآخر يبحث في الجوار عن شيء يؤكل، وبشكل خاص اللوز غير الطازج.

لم تجر أحاديث كثيرة؛ كانت الماعز هي موضوع الحديث بعض الوقت. تشعر بعض النسوة بالانزعاج من أنفسهن لترك عملية حلب الماعز على كاهل الأخريات مرة أخرى. لو كان الجيش قد سمح لهن بإحياء الذكرى في الصباح، لما حصل كل هذا ولكانت كل واحدة منهن قد تابعت يومها بشكل اعتيادي بعد ساعة أو اثنتين.

أخيراً، وصلتنا نتائج المشاورات: علينا نحن المراقبين الابتعاد قليلاً والانتظار، ثم بإمكان الذين شاركوا في مراسم الذكرى التي أُقيمت على الممر الجبلي، النزول دون أن يعتقلوا.

تنحينا جانباً عن الطريق الذي سلكناه عند المجيء، وجلسنا من جديد ونحن نأكل بعض اللوز ونحاول قدر المستطاع متابعة ما يحدث. من هذا الموقع لا نستطيع رؤية مكان القصف. مازلنا نستطيع رؤية الجبل الذي تسلقه الأهالي لإحياء الذكرى، حيث نشاهدهم وهم ينزلون إلى أسفل الجبل. مشينا قليلاً باتجاههم. يضع الكثير من الشبان الوشاح على وجوههم، لكي لا يتم التعرف إليهم من قبل كاميرات الجيش. إنه مشهد مدهش: الأمهات باللباس التقليدي وقد حلّو أغطية رؤوسهن وهن يمسكن أولادهن الملثمين، والكل يرفع علامة النصر في الهواء.

كالعادة بكيزا هادئة. إنها المرة الأولى التي تزور المكان الذي فقد فيه أوصمان حياته. ’كنت أريد منذ فترة طويلة أن آتي إلى هنا، فهذا المكان يجعلني حزينة ولكن غاضبة جداً أيضاً‘. تقول بكيزا.

بعد شهر على مرور اليوم الـ٥٠٠ على الحادثة تلقى أقارب الضحايا، الذين أحيوا ذكرى رحيل أحبتهم على الممر الجبلي، رسالة من المحكمة: على كل شخص دفع غرامة مقدارها ٣٠٠٠ ليرة (حوالى ١٠٠ يورو)، نتيجة العبور غير القانوني للحدود. كان يعني لبعض العائلات دفع ١٥ ألف ليرة. كانت غرامة بكيزا عن نفسها فقط.

لا أحد مستعداً أو يستطيع دفع الغرامة، مازالت طلبات الاعتراض قيد الدراسة. النتائج غير مضمونة، اتضح ذلك عندما سألت المحامين عن رأيهم. في أسوأ الأحوال يتم سجن الناس أو مصادرة حاجاتهم حتى يتم تسديد قيمة الغرامة. ما الذي يمكنهم مصادرته من بيوت الناس في القرى، فأغلى ما يملكونه هو التلفزيون.

ابتداءً من اليوم الذي تلا يوم إحياء الذكرى تابع المهربون نشاطهم على المسار نفسه إلى الجهة المقابلة من الجبل، دون أي عائق كالعادة. والوضع كما هو حتى الآن: الطريق مفتوح وحر للنشاطات غير القانونية مثل التهريب، لكن الويل للذي يسلك الطريق نفسه الذاهب إلى المكان الذي فقد فيه أحد أقاربه من أجل إحياء ذكراه.

الفصل السادس

الأفق

جلست سميرة على الأرض في المطبخ تقطع البندورة التي تم قطفها من حديقة خضار العائلة في قرية زيفيه. جلستُ بجانبها وبيدي كأس من الشاي. إنه خريف ٢٠١٢ وقد بلغت تواً سن الثامنة عشرة. توقفت سميرة منذ بضع سنوات عن الذهاب إلى المدرسة ومن المرجح أنه لن يطول الوقت حتى تتزوج. أحاول ألّا أكلمها عن القصف الذي أودى بحياة شقيقها بدران؛ أي مجرد دردشة عادية. فسألتها: 'هل تفكرين في الزواج؟' نظرت إلي بشراسة وقالت: 'لن أتزوج أبداً' فسألتها: 'لم لا؟' فأجابت: 'مات الأولاد'.

هذا ما يحدث على الأغلب عندما أستهل أيَّ حديث مع أغلب الناس في القرية، سرعان ما يتحول الكلام مباشرة إلى حديث عن القصف. فعلى سبيل المثال، كنت خلال الزيارة نفسها في الخريف في ضيافة إحدى العائلات وعندما أردت العودة إلى بيت بكيزا رافقني أحد أولادهم، فهم لا يتركونني أمشي وحدي في الظلمة رغم تقارب البيوت وعدم وجود أي خطر.

كنت قد تحدثت معه إحدى المرات، فهو طالب متفوق في

المدرسة وكان يدرس بجد لكي يتمكن من دخول الجامعة. كان يشتغل أحياناً في التهريب، القصف خطف منه عدداً من أصدقائه. ولمجرد البدء بالحديث، سألته:'كيف هي أحوال الدراسة؟' فكان جوابه: 'لن أذهب إلى المدرسة بعد الآن'. شرح لي بأنه في الأشهر الأخيرة من السنة الماضية لم يتمكن من التركيز على الدروس: 'لقد فقدت الحافز بسبب ما حدث. فانخفضت درجاتي الدراسية ولم أنجح في أيِّ مادة. أردت إعادة السنة لكن مدير المدرسة لم يقبل إلا في حال دفع مبلغ محدد لم يكن باستطاعتنا دفعه. لذلك توقفت عن الدراسة'. والآن يحاول العمل بأكبر قدر ممكن؛ فهو يشتغل بالتهريب أكثر من قبل.

لم يغيّر القصف فقط حياة العوائل التي فقدت ولداً أو زوجاً أو أباً، بشكل جذري بل حياة القرية بأكملها. إذ أصبحت الزيجات تتم دون حفلات زفاف. دعاني مرة عرفان، عضو حزب الـ BDP، لمشاهدة صور هذه الأفراح في مرحلة ما قبل القصف: مرج أخضر كبير بين الجبال يرقص عليه ضيوف حفلة الزفاف رقصة الكوفنده،رقصة كُردية تُؤدى في الحفلات والتظاهرات. أربع خطوات مائلة إلى الأمام (بدءاً من اليمين)، ثم لمسة صغيرة بالرجل اليسرى بجانب اليمنى، ومن ثم أربع خطوات إلى الوراء باتجاه اليمين، بدءاً باليسرى ثم وثبة صغيرة، ومن جديد، أثناء ذلك يعلق كل رجل أو امرأة خنصره بخنصر الرجل أو المرأة التي بجانبها وبهذا الشكل صعوداً ونزولاً. وخلال الرقص

تتوسع حلقة الدبكة: تدخل الحلقة من أي نقطة كانت وترقص معهم. يمسك الرجل أو المرأة في رأس الدبكة غير المغلقة منديلاً بيده ويهزه في الهواء بالتناغم مع الموسيقى- لون المنديل عادة أحمر مع أخضر وأصفر، وأحياناً أبيض- هكذا تتعلم الكوفنده، وكونك غريباً تشارك في الرقص فإن مشاركتك إياهم في الرقص محل تقدير كبير في نفوسهم. أما بالنسبة إلى قريتي كول يازي وأورتاسو فإن الكوفنده أصبحت شيئاً من الماضي، وربما نهائياً.

في رثاء زوج بكيزا

كنت في أحد أيام الخريف مدعوة للغداء عند محمد وليلى، شقيق زوج بكيزا وزوجته. وكانت سينام وهوليا موجودتين أيضاً. فجأة دخل رجل وفي يده أوراق وتم الترحيب به بحرارة. لقد جاء من أجل بكيزا. لذلك ركضت سينام إلى البيت وبعد قليل عادت مع بكيزا. الرجل هو عبد الرحمن أديان، فنان من مدينة بورصة في غرب تركيا. وقد كتب لكل عائلة من عوائل ضحايا القصف قصيدة شعر. وكذلك لبكيزا وجاء شخصياً لإلقائها.

في رثاء أوصمان قبلان (١٤ أيار ١٩٨٠ - ٢٨ كانون الأول ٢٠١١)

الشمس
سُرق لونها، والآن معطفها القطني خجلٌ حقاً

إبرة خياطة قميصه تحك رقبته بقسوة

ياقة قميصه تهرأت من العرق

أوصمان

خمس حمائم تسكن في قلبه

حمائم في قفص في كوخ من بيت

من تحت الباب، عبر النافذة يدخل البرد

السقف يسرب، المزراب يدلف؛ مع ذلك كان سعيداً

صحيح أن أنوف حمائمه كان تدلف

لكن ليس من قطرات المطر

يا للبؤس

حياة شاقة تلك التي مرت

بكيزا

تنظف ملابسه وتلفها و تعيد نشرها سنة بعد أخرى

في شمس الظهيرة حيث تصبح ملساء بنسيم المساء

ثياب أوصمان دائماً كانت تُلطف في الريح

إلى أن خرجت روحه من ثيابه في ليلة عاصفة

خمسة أولاد مكسورين ترك وراءه

وزوجة مكسورة القلب في حداد

ما هذا الذي يحني رجلاً

ويحدق إلى عينيه

ليس لدى العالم مكان لأيتام الرجل
لحمائمه وأمهم لم يعد هناك إلا قفض مهشم، فقير، المعطف القطني خجل

بكاء بكيزا كان صامتاً في البداية
عيناها باردتان وقاسيتان
حزنها رثاء حزين يجعل القلب الحجري ينزف
لا يمر يوم دون مرور تيار متواضع من أمام بابها
نهر الوقت لا يستطيع التدفق دون حزن

رجال طوال القامة ذوو بشرة مسمرة
المعركة مع الفقر رسمت خطوط جباههم
غالباً ما يقهر الموت الفقر
هي هكذا ببساطة، نساء ممشوقات ومسمرات وفقيرات
يحملن أطفالهن الأقوياء في الصباح
انتبه قال الرجال لأوصمان
'الذي لا يصلي يوم الجمعة، سيكون وحيداً في جنازته، لا أحد إلى طاولته'
–لا تقلقي يا عمتي
'العالم سيسمع بموتي، جنازتي ستكون حاشدة بالناس'

سرواله المتهرئ عند ركبتيه شاهدٌ على صلواته
مات!
ذكرى الحبيب هي آخر ما رأى
أوصمان، ورقة حرة سقطت من غصنها،
سجينٌ الآن، مقيدٌ إلى دفتره

لم تفهم بكيزا القصيدة، فهي باللغة التركية. لكنها لاحقاً قالت لي بأن ذلك غير مهم: ’لقد أثر فيّ أن يقوم أحدهم بكتابة قصيدة عن زوجي. إن عدم قدرتي على فهمها هو أمر قليل الأهمية بالنسبة إليّ‘.

أخبرني الفنان آديان خلال لقائنا في دياربكر بأنه منشغل في ترجمة قصائده إلى الكُردية. عندما تقابلنا في القرية خلال عيد الأضحى من عام ٢٠١٢ كان قد أنهى ترجمة قصائده الـ ٣٤ أو الأحرى مرثياته. قبل كتابة كل مرثية تحدّث مع عائلة الضحايا وأصدقائهم. يقول آديان: ’أردت أن يتخيل الأهالي أحباءهم الذين فقدوهم أمامهم عندما يسمعون القصيدة. أعتقد أنني نجحت في الكثير من الحالات‘.

جمعت القصائد في كتاب حمل اسم حجرة الحدود رقم ١٥ في إشارة إلى المكان الذي وقع عنده القصف.

إن عبدالرحمن آديان نفسه هو ابن لزواج كردي – تركي وقد عاش جزءاً من حياته في منطقة Van الكُردية. يقول عبد الرحمن بأنه يريد بعمله أن يكون شاهداً على عصره. ’لذلك كتبت قصيدة عن القصف بعد وقوعه مباشرة، لكنني لم أكن راضياً عنها. فسافرت في الربيع إلى

قريتي أورتاسو وكول يازي، وتعرفت إلى الناس وتابعت أخبارهم بدقة وبالتفصيل'.

كلّمني عن قصيدة '٣٣ طلقة' للشاعر أحمد عارف، التي لاتزال تحيي ذكرى حادثة عام ١٩٤٣، التي قتل فيها الجيش التركي ٣٣ مهرباً كُردياً على الحدود مع إيران، قائلاً : 'تلك هي قوة الشعر، فهي لاتزال حية بعد كل هذه السنين'. برأيه لم يمت في القصف فقط ٣٤ شخصاً بل العدد نفسه من العوائل، والقرية كلها أيضاً، لا بل كل المنطقة ماتت في ٢٨ كانون الأول ٢٠١١. 'وفي تركيا لا أحد في الواقع يهتم بذلك. إنها مأساة؛ المشاعر الإنسانية تلاشت من هذا البلد'.

ذكّرني هذا بما قاله مرة أحد الكتّاب الكُرد عن أم تركيّة فقدت ابنها خلال الخدمة العسكرية، في معركة مع الـPKK. فقد قالت بأن ألمها أكبر من ألم الأم الكُردية التي فقدت ابنها، لأن الأم الكُردية لديها أطفال كُثر وتستطيع بسهولة تقبل فقدان أحدهم. 'هذا هو نمط البلد التي نعيش فيه، حيث أمهات يتحدثن بهذه الطريقة'؛ يقول الكاتب الذي لم يلم الأم على تفكيرها هذا.

يأمل الشاعر آديان أن تساعد قصائده الـ ٣٤ الناس على تحمّل مأساة القصف. يقول: 'في وقت ما سيصبح كل ما حدث تاريخاً، لكن الوقت الآن مبكر للحديث عنه، خصوصاً مع الأقارب. عندما أشاهد الأمهات يبكين... أجدهن دون أمل ودون عون. يطالبن أردوغان بالاعتذار، يطلبن التعاطف من الذين تسببوا بأذاهن. شيء تنفطر له القلوب'.

اعتذار عن ديرسيم – وماذا عن أولوديرى؟

تسري منذ شهور شائعات عن اعتذار سيصدر عن أردوغان. سيكون ذلك خبراً مدوياً وسيرحب به أقارب الضحايا على الأغلب. إن أيَّ اعتذار، برأيي، هو سابق لأوانه ما لم يسبقه تحقيق دقيق حول المجزرة. كيف يمكن للمرء أن يتأسف على فعل وهو يكنس الحقائق بشكل متعمد إلى تحت السجادة؟

في نهاية تشرين الثاني ٢٠١١ كان رئيس الوزراء أردوغان قد قدم في البرلمان بشكل مفاجئ، اعتذاره عن عمليات ديرسيم التي وقعت في ثلاثينيات القرن الماضي. من المحزن القول بأن هذا الاعتذار جاء، بالرغم من مرور ٧٣ عاماً، متسرعاً جداً ولأسباب خاطئة.

ما الذي حدث بالضبط؟ كانت ديرسيم مؤخراً موضوع نقاشات عدة أيام في البرلمان. وقد حدث ذلك نتيجة مناقشة وقعت فيما بين أعضاء من حزب الـCHP، أكبر أحزاب المعارضة. حيث تجرأ عضو البرلمان عن منطقة ديرسيم من حزب الـCHP وبشكل قوي على القول بأن المجازر في ذلك الوقت كانت مخططة وبأن الأوامر أتت من أتاتورك، ما أدى إلى نقاش حاد؛ فقد هاجم الكثير من أعضاء البرلمان عن حزب الـCHP زميلهم من ديرسيم لأن أتاتورك هو مؤسس هذا الحزب، كما أنكر أعضاء الحزب بأن تنفيذ المجزرة قد تم من قبل زعيمهم العظيم.

كان لاعتذار أردوغـان علاقة بأصول زعيم حزب الـ CHP،

كيليجدار أوغلو الذي ينحدر من ديرسيم أيضاً وفقد أفراداً من عائلته في المجازر. أقحم أردوغان نفسه في النقاش الداخلي لـ CHP وصارهو وكيليجدار أوغلو يتبارزان في كسب النقاط أحدهما من الآخر عدة أيام. اعتذار أردوغان المفاجئ وضع كيليجدار أوغلو في موقف حرج، عندما قال: ' إن الحزب الذي يجب عليه أن يواجه تلك الأحداث هو ليس حزب العدالة والتنمية (AKP) بل حزب الشعب الجمهوري (CHP) الذي يتحمل مسؤولية تلك المأساة الدموية وهو الذي يجب أن يقوم بمعالجتها'.

بالإضافة إلى هذه الطريقة المخجلة في كسب النقاط السياسية على حساب آلام آلاف الناس، فإن الاعتذار يجب أن لا يتم على شكل إصدار مرسوم. إن الاعتذار الذي يحمل حسن النية يتطلب قبل كل شيء البدء بنقاش هادئ وصادق ومفتوح حول ما حدث بالضبط؛ لماذا حدث ولماذا يجب الاعتذار.

لكن رغم الاعتذار، مازالت الرواية الرسمية للدولة تقول بأنه كان هناك تمرد في المنطقة شكّل حينذاك تهديداً للجمهورية وأن الجيش قمعها لأسباب شرعية. طالما الحالة هي كذلك، فما الذي يدعو للاعتذار؟ إنه أمر يجب أن ينظر إليه بغرابة أيضاً الأتراك الذين تم شحنهم ولايزال في المدراس برواية الدولة لتلك الأحداث التاريخية. هذا التناقض لا بد أن يدفعهم إلى التساؤل: لماذا يعتذر رئيس وزرائنا عن عمليات مبررة؟

إن الاعتذار الصادر من فراغ ليس هو المنهج الصحيح في مواجهة التاريخ. بل بوضع كل المحرمات التاريخية على الطاولة ومعاينتها من كل الجوانب مع كل الذين لهم صلة بها. وفتح الأرشيف بأكمله وتحديد من تثبت مسؤوليته بكل شفافية، وملاحقة الجناة بكل الوسائل، والاستماع إلى روايات الناس وذكرياتهم، والإحساس بآلامهم. ومن ثم بعد كل ذلك يأتي الاعتذار.

هكذا يجب التعامل مع ما حدث في ديرسيم، ومع ما حدث أخيراً، في أولوديرى أيضاً. فالخطوة الأولى الضرورية هي: البدء بالتحريات عن طريق لجنة فرعية مشكلة من لجنة حقوق الإنسان التابعة للبرلمان، ثم: القيام بتحقيقات جدية دقيقة. النظرية التي أقدمها في هذا الكتاب – بأن القصف تم بهدف قتل القيادي في الـPKK فهمان حسين، الذي لم يكن هناك– تبقى مجرد نظرية، بالرغم من أنها أكثر الاحتمالات منطقيةً وفقاً لما نملك من معطيات، لكنها تبقى فرضية. أما الحقيقة الثابتة فهي تظهر حالما يتم تحرير الوثائق السرية، وحالما يتم استجواب المتورطين بشكل حر، وعندما تكون الدولة منفتحة على أيّ نتيجة حتى لو لم يرضها ذلك. بعد ذلك فقط، يكون الاعتذار مناسباً.

لا أعتقد بأن أردوغان سيكون رئيس الوزراء الذي سيقدم اعتذاراً صادقاً عن قصف أولوديرى؛ بل سيقوم بذلك من سيخلفه في المنصب، إذ إن أردوغان غير مؤهل لخوض انتخابات ٢٠١٥ كرئيس وزراء. ربما

لن ننتظر طويلاً لسماع اعتذار قائم على مصلحة سياسية كما حدث في اعتذار ديرسيم. الاعتذار الصادق يتطلب إعادة هيكلة كامل المنظومة التي جعلت هذا الفعل ممكناً. وهذا سيأخذ بعض الوقت. في هذا الصدد تمكن الاستفادة من تجارب دول أخرى في التعامل مع أفعال مشابهة.

لنأخذ على سبيل المثال، حادثة الأحد الدامي التي راح ضحيتها ١٤ متظاهراً عُزلاً برصاص الشرطة في إيرلندا الشمالية في مدينة Londonderry في ١٩٧٢. بدأت التحريات مباشرة، وكانت تهدف بالدرجة الأولى إلى كشف ملابسات المذبحة وحماية المسؤولين عنها من الانتقام.

بقي أقارب الضحايا وكل المجتمع الكاثوليكي سنوات يطالبون بإجراء تحقيقات جدية، وقد تحقق ذلك بعد اتفاقية الجمعة العظيمة في عام ١٩٩٨ التي شكلت النهاية الحاسمة للنزاع المسلح في إيرلندا الشمالية. بعد ذلك فقط، أي بعد أن تغيرت عقلية الدولة بشكل جذري، استطاع التحقيق أن يجد الأرضية التي تؤدي فعلاً إلى الحقيقة.

لقد استغرق ذلك حتى عام ٢٠١٠، تاريخ صدور التقرير. وكانت الخلاصة: إطلاق النار لم يكن مشروعاً، إذ لم يشكّل المتظاهرون أي خطر. وعليه أعرب رئيس الوزراء البريطاني ديفيد كامرون نيابة عن الحكومة عن 'أسفه العميق'، عندئذ فقط حصل أقارب الضحايا والمجتمع الكاثوليكي على العدالة بعد ٣٨ سنة.

وكذلك انتفاضة سويتو التي راح ضحيتها ٢٠٠ طالب برصاص الشرطة في حزيران ١٩٧٦ هي مثال آخر. لم يتم التحقيق في تلك المجزرة إلا بعد إلغاء الفصل العنصري في جنوب أفريقيا في بداية التسعينيات؛ في عام ١٩٩٦ بدأت لجنة الحقيقة والمصالحة جلسات الاستماع حول الأحداث، أي بعد ٢٠ عاماً.

من أجل القيام بتحقيق جدي ومستقل حول القصف يجب أن تتغير أولاً أمور جوهرية في تركيا.

الدولة تحمي نفسها

تعود معرفتي الأولى بالمسألة الكُردية إلى بداية التسعينيات. كنت حينذاك قد أنهيت دراستي في مدرسة الصحافة في مدينة Zwolle وانتقلت إلى مدينة Utrecht، وعملت متطوعة في تحرير جريدة Frontaal، النشرة الشهرية الشبابية لمنظمة العفو الدولية في هولندا التي لم تعد موجودة الآن. حيث كنا نقوم كل شهر بـ ’حملة كتابية‘ نطلب فيها من القراء توجيه رسائل إلى سلطات دولة ما للمطالبة، على سبيل المثال، بإطلاق سجناء سياسيين أو بالبحث عن ’مفقودين‘. وكانت إحدى هذه الحملات تدور حول تركيا.

كانت القضية تتعلق بولدين قاصرين «فُقدا» على أثر اعتقالهما من قبل الشرطة بين مدينة غازي عنتاب، الواقعة تماماً على حدود المنطقة الكُردية، ومدينة دياربكر. حيث أخذا من ميكروباص بتهمة حيازتهما

جريدتيّ Özgür Gündem وzadiya Welat المحظورتين، واللتين لم تكونا في ذلك التاريخ تطبعان في جنوب شرقي البلاد لكونها خاضعة لقانون الطوارئ، بل خارج هذه المنطقة وكان يتم تهريبهما إلى داخل المنطقة الكُردية. فُقد الولدان اللذان كانا يحملان الجرائد دون ترك أيِّ أثر. راجع أهلهما أقسام الشرطة لكن قيل لهما بأنهما غير موجودين هناك.

كانت تلك قضية مثالية بالنسبة إلى جريدة Frontaal. إذ إن قراءنا كانوا يقومون أيضاً بتوزيع الجرائد، الأمر الذي سهّل ربط القضية بسياق كلامهم: 'هل لديك جولة توزيع صحف؟ حسناً، هؤلاء الأولاد الكُرد في تركيا أيضاً، لكنهم واجهوا مشكلات كبيرة'. لم يكن لدي أيُّ اطلاع على الصحافة الكُردية، ولم نقل لقرائنا بأن الصحف الكُردية ليست مجرد نشرات محلية إنما جزء من معركة سياسية. لأن ذلك لم يكن هو الموضوع : بل «اختفاء» الأولاد لمجرد قيامهم بنقل الجرائد، وهذا ظلم أردنا تحفيز قرائنا على تناول أقلامهم والكتابة عنه.

أصبحت «اختفاءات» كهذه من الماضي، مثلها مثل عمليات القتل العشوائي التي كان تنظيم JITEM ينفذها في التسعينيات. لكن هل هذا يعني أن تغيراً أساسياً قد حصل؟ لا. في الوقت الحاضر لم يعد المجتمع الكُردي يتعرض للتخويف بالقتل أو الاختفاء والإسكات بل بسجن المئات. بقي جوهر المشكلة هو نفسه: لم يكن إنشاء الدولة يهدف في المقام الأول إلى حماية مواطنيها بل إلى حماية نفسها. مازال الأساس هو الدولة وليس مسألة حقوق الإنسان أو بناء الديمقراطية.

ثمة قضية قانونية توضح هذا الأمر بشكل جلي، ألا وهي القضية المرفوعة ضد الجنرال السابق فالي كوجوك الذي كان، وهو ما اعترف به شخصياً، أحد مؤسسي تنظيم JITEM، التابع للشرطة العسكرية والذي قام بتنفيذ اغتيالات في جنوب شرقي تركيا في تسعينيات القرن الماضي. تقاعد هذا الجنرال في عام ٢٠٠٠ وكان مستمتعاً بشيخوخته، حتى تاريخ اعتقاله في كانون الثاني ٢٠٠٨ لكن ليس على خلفية جرائمه في جنوب شرقي البلاد، بل لتورطه المزعوم في التخطيط للانقلاب على حكومة رئيس الوزراء أردوغان.

تم الحكم عليه في عام ٢٠١٣ بالسجن المؤبد. كانت الإثباتات في القضية المرفوعة ضد المتآمرين المتهمين بالانقلاب على حزب الـ AKP، ضعيفة: قام فريق من خبراء أجانب مستقلين بفحص مواد تجريمية قُدمت لهم في القضية وتوصلوا إلى أن جزءاً منها مزوّر.

هكذا أضحى الآن واضحاً أن فالي كوجوك سوف يقضي بقية حياته خلف القضبان استناداً إلى أدلة مشكوك في صحتها عن قيامه بتهديد السلطة. لم تتم محاكمته قط عن فترة الإرهاب التي مارسها تنظيم JITEM في الجنوب الشرقي من البلاد، أو الإعدامات غير القانونية التي ربما كان على اطلاع عليها في التسعينيات. لقد كان إثبات تورطه بهذه الجرائم أسهل من إثبات تورطه في الانقلاب. لم تكن هناك حتى مجرد عملية تقصٍ عنه فيما يخص جرائمه في جنوب شرقي البلاد.

يتضح أيضاً، من خلال الإصلاحات التي قامت بها تركيا حتى الآن بأنها تسعى من أجل إعطاء الكُرد حرية أكثر. ثمة تقدم لا يقبل الجدل، يتمثل بشكل أساسي في قبول مناقشة المسألة الكُردية؛ لم يعد الكُرد يُسمون بـ 'أتراك الجبل' كما كان الحال سابقاً، وتم الاعتراف بالكُردية كلغة وأصبح النقاش عن ذلك يدور بشكل علني. مع ذلك، من يراقب عن كثب الإجراءات التي اتخذتها حكومة أردوغان، يدرك أنها تقوي الدولة، ورجال السلطة، وليس المجتمع الكُردي.

خرافة النظام القضائي التركي

اعتباراً من أيلول ٢٠١٢، أصبح بإمكان التلامذة بدءاً بالصف الخامس الابتدائي في المدارس الحكومية، تعلم اللغة الكرُدية (ولغات ثانوية أخرى) كمادة اختيارية. لكن ماذا يعني ذلك عملياً؟ يتحدث الأولاد مثل أوزكان وإسرى وسينام وهوليا ومحمود قبل أن يدخلوا المدرسة، فقط اللغة الكُردية المتأثرة بشكل كبير باللغة التركية، وليس اللغة الكرُدية النقية. عندما يدخلون المدرسة تصبح الكُردية ممنوعة بشكل مطلق ويتعلمون التركية فقط. وحالما يتم التحقق من إتقان التركية عندئذ فقط يُسمح لهم بساعتين في الأسبوع لتعلم لغتهم الأم – فقط خلال هاتين الساعتين– أما بقية الساعات الدراسية فهم مجبرون على تعلم التركية مع استمرار منع لغتهم الأم.

فضلاً عن ذلك، فقد أعلن رئيس الوزراء أردوغان في عام ٢٠١٣

السماح للمدارس الخاصة من الآن فصاعداً بالتدريس باللغة الكُردية. للوهلة الأولى تبدو خطوة متقدمة لكن عند التمعّن فيها جيداً تبدو غير ذلك. ليس فقط بسبب قلة المدراس الخاصة في جنوب شرقي البلاد وعدم قدرة معظم الكُرد على تحمل نفقاتها، بل لأنها قبل كل شيء ذات عواقب قانونية.

فالدستور التركي يحدد بشكل صريح أن اللغة التركية هي اللغة الوحيدة للتعليم في كل المؤسسات التعليمية. وعليه فإن الطريقة الوحيدة لتحقيق الخطة دون المس بالدستور هي اعتبار اللغة الكُردية لغة أجنبية، إذ إن القانون يعطي استثناءً للغات الأجنبية. فهذا القانون يسمح على سبيل المثال بإنشاء مدارس ألمانية وإنكليزية في تركيا. التعريف يحدد بأن أي لغة هي أجنبية إذا كانت هي اللغة الرسمية لدولة أخرى. وهذا في الواقع ينطبق على اللغة الكُردية التي هي إحدى اللغتين الرسميتين في العراق.

بالنسبة إلى الكُرد الذين يعيشون منذ أجيال على أرض أصبحت تسمى تركيا، هي إهانة أن توسم لغتهم بـ «الأجنبية»، وقبولهم ذلك يعني موافقتهم على اعتبار اللغة التركية اللغة الوحيدة الأم في تركيا.

ثمة أسطورة عنيدة عن النظام القضائي التركي. تقول بأن القانون يسري على جميع المواطنين وهذا مكفول بالبند ٦٦ من الدستور: 'كل شخص تربطه مع الدولة التركية علاقة مواطنة هو تركي'. البند يدل على أن كلمة 'تركي' هي مفهوم قانوني صرف، يُستخدم في وصف

الهوية الوطنية لكل مواطني تركيا بغض النظر عن منبتهم، وبأن الهوية الإثنية الثقافية والدينية هي شأن خاص ولا علاقة للدولة بها.

لكن فكرة المساواة يتم تقويضها في بقية النظام التشريعي بما فيها ديباجة الدستور وتشريع المحاكم، من خلال تعزيز فكرتيّ 'التركية' و'التريك' بطرائق عديدة. بعبارة أبسط: كامل النظام التشريعي التركي يتنفس الإثنية التركية وتاريخها وثقافتها ودينها ولغتها.

يمكن العثور على مثال صغير عن هذه الهيمنة التركية في ديباجة الدستور. فهي تشدّد على 'المصالح القومية التركية، ومبدأ وحدة تركيا غير المسموح تجزئتها، والقيم التاريخية والأخلاقية التركية'. ترى الأقليات المعترف بها مثل اليونانيين والأرمن بأنها مستثناة من هذا التعريف، أما باقي الأقليات مثل العلويين والكُرد فهي مكرهة على التكيف معه.

ما دام هذا النظام القانوني باقياً دون تفكيك، فإن الحال هو نفسه مع كل إجراء تتخذه الحكومة لتخفيف الحاجة الكُردية. ليس التدريس باللغة الكُردية هو المثال الوحيد على الطريقة التي بها يتم تطبيق هذه الإجراءات باستخدام حيل قانونية؛ الأمر نفسه ينطبق على بقية الإجراءات.

لنأخذ مثلاً السماح باستخدام الأحرف x, w,q. فهذه غير موجودة في الأبجدية التركية، بل في الكُردية. كانت هذه الأحرف مثلها مثل اللغة الكُردية غير محظورة رسمياً بتاتاً. لم يكن ذلك ضرورياً لأن

التركية كانت اللغة الوحيدة المسموحة ولم يكن ممكناً منع الكُردية لأنها لم تكن معترفاً بوجودها أساساً لذلك لم يكن حظرها رسمياً ممكناً طالما لم يتم الاعتراف بوجودها.

ليس واضحاً حتى الآن الطريقة التي ستقوم بها الحكومة بتحرير الأحرف x,w,q. من حالتها العدمية. قد يكون من الأسهل لو تتم إضافة هذه الأحرف إلى الأبجدية التركية. لكن مرة أخرى هذا سيعني تأكيد هيمنة اللغة التركية بدل إعطاء الكُردية حرية أكثر. في كل الأحوال للقيام بذلك يجب أيضاً إعطاء الحرية لثلاثة أحرف أخرى لا توجد في الأبجدية التركية بل في الكُردية: ê , û, î.

تلفزيون كُردي حكومي: تلفزيون فارغ المحتوى

ليس القانون هو العائق الوحيد في وجه حل مسألة السماح باللغة الكُردية والتدريس بها، لكن أيضاً من الناحية العملية هناك معوقات لتطبيقها. فعلى سبيل المثال، هناك فقر كبير في عدد مدرّسي اللغة الكُردية في المدارس الحكومية. تستطيع جامعة ماردين - كلية اللغات الحية، تحت القيادة الملهمة لـ قدري يلدريم، توفير هذا الكادر مباشرة. ويستطيع أن يضع خطته التعليمية قيد التنفيذ حالما يتطلب ذلك ويدرّب آلاف المدرسين دفعة واحدة، لكن الحكومة لم تعط خطته أي اهتمام جدي حتى الآن. بل إن مجلس التعليم العالي مستمر في تقليص عدد الطلاب.

إذا كان في البداية قد تم اعتبار افتتاح الكلية مؤشراً على امتلاك الحكومة خططاً جدية لإدخال اللغة الكُردية في صفوف الآداب، إلا أنه مع الوقت تبين أكثر فأكثرعلى أنها مجرد واجهة مزخرفة. إن ما يقوم به قدري يلديريم وفريقه هو جهد مدهش؛ فهم يقومون بتطوير أساليب التعليم ومواد التدريس، ويدونون القصص الشعبية القديمة والأشعار. إن عدم استخدام نتائج عملهم خارج أسوار الكلية إلا ما ندر، ليس خطأهم.

يتم غالباً الاستشهاد بالقناة TRT6 الناطقة بالكُردية مثالاً على المنهج المتبع في منح الكُرد حقوقاً أكثر. بدأت القناة البث في ١ كانون الثاني ٢٠٠٩ وهي تعمل على مدى الساعة. قام أردوغان شخصياً بتدشينها وتحدث حينذاك ببعض الكلمات الكُردية. أتابع هذه القناة أحياناً؛ ليست أكثر من مجرد قناة خالية المضمون: عروض موسيقية، برامج حوارات غير نقدية، أخبار وفقاً لما ترغب فيه الدولة.

إذا أردت معرفة ما يحدث في المنطقة الكُردية والتي لا تريد الدولة عرضه، عليك التحوّل إلى القنوات الكُردية الفضائية التي تبث من أوروبا. حالياً قناة Stêrk TV (قناة النجمة). كانت حتى كانون الثاني ٢٠١٢ تحمل اسم RojTV، التي كانت تبث منذ ٢٠٠٤ برخصة دنماركية من مدينة Denderleeuw قرب بروكسل. كما أن RojTV بدورها كانت قد حلت محل قنوات أخرى كانت تبث من أوروبا منذ ١٩٩٥ لكن تم إغلاق جميعها استجابة للضغط التركي.

تتهم تركيا بشكل متكرر القنوات الفضائية الكُردية بأنها على علاقة مع الـ PKK وبأنها تقوم بالدعاية لهذا الحزب بالإضافة إلى التحريض على الكراهية. منذ وضع الـ PKK على قائمة المنظمات الإرهابية في أوروبا في عام ٢٠٠٢، أصبح للضغط التركي الساعي إلى إسكات القنوات الكُردية دعم أكبر في أوروبا على حساب حرية التعبير والصحافة. حسناً، قد تقوم القنوات الفضائية الكُردية بالدعاية للـPKK وتوفر له منصات إعلامية، لكن ألا يشبه ذلك ما تقوم به القنوات التركية من توفير منصات إعلامية للدولة التركية والقيام بالدعاية الإعلامية للجيش التركي؟

في الواقع تركيا ليست محقة في اتهامها لهذه القنوات بنشر الكراهية. فأنا أتابع قناة RojTV منذ سنوات وبشكل منتظم والقنوات التي حلت محلها، وعندما انتقلت إلى دياربكر طلبت تركيب لاقط ستاليت إضافي في شرفة الشقة التي انتقلت إليها لكي أستطيع مشاهدة كل القنوات الأخرى. لم ألاحظ بتاتاً أنهم يبثون الكراهية بل على العكس، يبثون برامجهم بعدة لغات (بما فيها التركية، الكرمانجي، الزازائي، الصوراني، الفارسية، والعربية) ويعيرون اهتماماً كبيراً للثقافات الأخرى التي توجد في كُردستان. كما أنه لا وجود لاحتفالات عند مقتل جنود ناتج من هجوم للـ PKK، كما أنهم لا يتورطون في خطاب معادٍ للأتراك، وهو ما يجب أن تتعلمه القنوات التركية. أما ما لا يمكن أن تجده في هذه القنوات فهو انتقادهم للـPKK. فهذه القنوات

تدين بوجودها للـPKK، المنظمة تهيمن على الحركة التركية – الكردية في أوروبا، التي من خلالها وُجدت القنوات الكُردية.

بعبارة أخرى، بدل أن تشكّل إضافة قناة TRT6 الحكومية الناطقة بالكُردية فرصة للتعددية الصحافية في تركيا، فإنها جعلتها أكثر تماثلاً. هذه القناة هي جزء من تكتيك لإسكات القنوات الفضائية الكُردية، بمساعدة الأوروبيين.

تتميز القنوات الكُردية الفضائية بسرعة نقل الأخبار. تعمل قناة Stêrk TV، والتي سبقتها، مع وكالة الصحافة الكُردية دجلة والفرات، التي تضم شبكة واسعة من المراسلين المحليين كـ عزيز الذي رافقني في زيارتي الأولى إلى قرية كول يازي. بالإضافة إلى أمين بال، أحد المراسلين المحليين من بلدة جبلية اسمها بيت الشباب على بُعد ساعتين من قريتي كول يازي وأورتاسو، والذي كان أول الواصلين إلى مكان القصف. فهو يعمل مع وكالات متعددة منها وكالة دوغان للأنباء التي تتبع للشركة الإعلامية نفسها التي تنشر صحفاً كبيرة في تركيا مثل حريات وراديكال، ويملك ورشة صغيرة للإلكترونيات لكنها كثيرة الزبائن، في الشارع الرئيس في بلدة بيت الشباب، زرته وتحدثنا عن تلك الليلة؛ ليلة القصف.

لقد ذكر عدة مرات بأنه فعلاً يريد ترك مهنة الصحافة. لديه طفلتان صغيرتان ويقول: 'أريد فقط أن أسعدهما وأصرف وقت راحتي معهما، لم أعد أستطيع تحمل رؤية الجثث والمآسي أكثر من ذلك،

لكن في الوقت نفسه أشعر بالمسؤولية'. دفعه الشعور بالمسؤولية هذا إلى تصوير القصف مع بداية بزوغ النهار، حوالى الساعة الخامسة والنصف، بعد القصف، 'لقد صُدمت مثل أي شخص. كان الناس يبكون وأنا أيضاً. كصحفي من المفروض أنني قد اعتدت ذلك، فخلال عملي شاهدت جثثاً كثيرة، لكن هذا...'.

يقول أمين بال بأن خشيته الكبرى حينذاك كانت من عدم قدرته على إرسال الصور. 'في مكان القصف لم يتوافر لي اتصال بالانترنيت، لذلك كان عليّ الرجوع إلى القرية حيث إشارة الانترنيت أقوى. من حسن حظي أنني حصلت على ذلك قبل وصولي إلى الطريق. ماذا لو كان تم اعتقالي من قبل الجيش، ماذا لو حجزوا المواد التي معي؟ لكن لحسن الحظ لم يحدث ذلك. أرسلت الصور إلى دوغان ورويترز وأسوشيتدبرس والعديد من الأصدقاء. انتشرت بسرعة وظهرت مباشرة على الفيس بوك والتويتر'. يبدو أن الصور التي رأيتها على التويتر عندما استيقظت صباح يوم القصف هي الصور التي كان قد أرسلها أمين'.

قدمت قناة RojTV حوالى الساعة الواحدة صباحاً تقريراً عن القصف. في ذلك الوقت كنت، مثل أغلب الأتراك، لا أملك ستالايتاً كي أتمكن من مشاهدة القناة. عندما صدر قرار إغلاق RojTV، في كانون الثاني ٢٠١٢ احتج أهالي قريتي كول يازي وأورتاسو: بدون قناة RojTV كيف يمكن لقصتهم أن تصل إلى العالم؟ من يستمع إليهم، من يستطيع أن يكتب عن أحوالهم دون رقابة؟

الشعوب تملك حق تقرير المصير

إن حرية الكُرد ليست مجرد افتتاح قناة تلفزيونية باللغة الكُردية، كما أن ساعتين من التدريس باللغة الأم لأطفالٍ تم تتريكهم لا تمتان إلى الحرية بشيء. بل إن هذه الإجراءات هي فقط تأكيد للحقيقة التي نعرفها، بأن الدولة تحتفظ لنفسها بالسلطة الحصرية في منح الناس «حقوقاً» ضمن الإطار القمعي للنظام. بدل إعطاء الكُرد «حقوقاً» كهذه، يجب منح هذا الشعب المتجذر في التاريخ، الذي أعاد اكتشاف نفسه وشكّلها من جديد، مساحة لكي يعبر عن هويته. فقد نجح خلال الثلاثين سنة الماضية في تشكيل أمة بكل معطياتها: وعي متنامٍ بهويته الخاصة وتاريخه، وأبطال قوميون تاريخيون مثل الشيخ سعيد وسيد رضا، وجرائد ومحطات تلفزيونية خاصة به، وأعياد ومناسبات قومية ولغة وثقافة متجددة، وتنظيم سياسي متين.

كل الشعوب تملك حق تقرير المصير. هذا موضّح في الفقرة الأولى من المعاهدة الدولية المتعلقة بالحقوق المدنية والسياسية، وكذلك في المعاهدة الدولية الخاصة بالحقوق الثقافية والاجتماعية والاقتصادية اللتين تعودان إلى عام ١٩٦٦ والموقعتين من قبل تركيا. أما عن آلية تطبيق حق تقرير المصير فلا تذكر المعاهدة شيئاً، كما أن الأمم المتحدة لا تُقدم تعريفاً محدداً لمصطلح شعب، لكن لا أحد تقريباً يشك بأن الكُرد يشكلون شعباً. يُعتبر الكُرد أكبر مجموعة إثنية في العالم بدون دولة خاصة بها.

فضلاً عن ذلك، الكُرد شعب يطالب بحقوقه، وهنا هو بيت القصيد: كل شعب يقرر بنفسه مقدار الحقوق التي يطالب بها. فأغلب سكان فريزلاند (في شمال هولندا) لا يطالبون بمنطقة حكم ذاتي وبرلمان خاص بهم ولا ينزلون إلى الشوارع للمطالبة بنظام تعليمي خاص بمناطقهم. بينما طالب الاسكوتلنديون ببرلمان خاص وحصلوا عليه، كما طالب الباسكيون في إسبانيا بحكم ذاتي ونظام تعليم يُدرس بلغتهم وحصلوا عليهما. فقد أصبح أطفال الباسك، حسب ما وصلني، منذ ذلك الحين يتكلمون اللغة الباسكية بطلاقة مثلها مثل الإسبانية.

لم يتم الدخول في تفاصيل مطالب الكُرد بشكل عملي ومحدد.

الحكم الذاتي هو أحد المطالب، لكن الشكل الدقيق لهذا الحكم يمكن تحديده من خلال النقاشات والمفاوضات. بالنسبة إلى تركيا أيُّ شكل من الحكم الذاتي هو أمر غير قابل للنقاش. فنظام الإدارة المركزية للدولة هو المبدأ الأساسي للجمهورية. في حين أن النظام الفيدرالي بالنسبة إلى بلد كبير مثل تركيا هو ليس حلاً غيرمنطقي، تماماً مثل ألمانيا. بالمناسبة لا تطالب الحركة الكُردية بذلك من أجل الحصول على نوع من الإدارة الذاتية لكُردستان فقط، بل من أجل كامل البلاد. لكن مبدأ «الوحدة في إطار التنوّع» ليس له دعم يذكر في تركيا.

التعليم باللغة الأم هو مطلب آخر، لكن تطبيق ذلك بشكل دقيق هو أمر لم يتم بالشكل الذي تراه الحركة الكُردية. فالمشروع الأخير الذي تقدم به حزب BDP إلى البرلمان، يقترح نظاماً تعليمياً باللغة

الكُردية في المناطق ذات الغالبية الكُردية بالإضافة إلى تدريس اللغة التركية كمادة إلزامية بحيث يتعلم الأولاد اللغتين. لم يبدِ أي حزب في البرلمان استعداده لمجرد مناقشة المسألة.

لكن المطلب الأهم هو دستور جديد يكون أساساً يجب الاستناد إليه في أيِّ تغيير قانوني مقبل. فالدستور الحالي هو الدستور الذي وضعه قادة الانقلاب العسكري في عام ١٩٨٢. على الرغم من إدخال تعديلات متكررة عليه لكن مبدأه الأساسي بقي دون تغيير: الدولة تحمي نفسها وليس مواطنيها.

يجب تغيير الدستور لأن الدستور العسكري بطبيعته غير ديمقراطي، وهو أمر تتفق عليه جميع أحزاب البرلمان. وكلها ممثلة أيضاً في اللجنة التي تعمل على تجديد الدستور. كان من المفترض أن تقدم اللجنة اقتراحاتها في نهاية ٢٠١٢، لكن لم تصل إلى أيّ اتفاق إلّا على النقاط غير الخلافية. وعندما يصل النقاش إلى حد يلامس المبدأ «الكل أتراك والكل مسلمون» عندئذ تظهر الخلافات التي يصعب حلها، وتعنّت أصحاب النزعة القومية التركية – الإيديولوجيا التي يقوم عليها كل من الحزب الحاكم AKP والحزبين المعارضين CHP وMHP. وعند أيِّ اقتراح يمس مبادئ الدولة، يتحول النقاش من مسألة حقوق إلى مسألة انفصال. لا يمكن إدراج أيّ مقترح في نقاشات اللجنة ما لم يكن هناك تصويت بالإجماع.

يبدو أن هذا الأمر، الذي يشغل تفكيري دائماً، يشبه ما حدث في جنوب أفريقيا حيث كان المزارعون البيض يمسكون بمفاتيح إنهاء

التمييز العنصري. ما تحتاج إليه تركيا هو رجل دولة يملك الشجاعة على القول: «إذا أردنا وصف تركيا بالديمقراطية علينا جميعاً العمل من أجل ذلك بشكل جدي ومن لا يريد عليه المغادرة». لكن تركيا ليس لديها رجل دولة يخاطر بمستقبله السياسي من أجل السلام وحقوق الإنسان. تركيا لديها رئيس حكومة يعشق السلطة.

قد تساعد الاتفاقيات الدولية الكُرد على نضالهم من أجل الحقوق. لكن ما دامت تركيا لا توقع الاتفاقيات ذات الصلة فإن لا أحد يستطيع إلزامها. مثال ذلك الميثاق الأوروبي للغات الإقليمية أو لغات الأقليات لعام ١٩٩٢، واتفاقية إطار العمل لحماية الإثنيات القومية لعام ١٩٩٥ . وهي اتفاقيات لم تصدر عن الاتحاد الأوروبي بل عن مجلس أوروبا وقد كانت تركيا في عام ١٩٤٩ أحد مؤسسيها. ثمة ٨ دول فقط من ضمنها تركيا من أصل ٤٧ دولة، رفضت توقيع اتفاقية الأقليات، أما اتفاقية اللغات الإقليمية فقد وقّعها أكثر من النصف.

وعلى صعيد التشريعات الداخلية أيضاً، لم تبدأ تركيا بأيِّ خطوة على مسار الاعتراف بحقوق الأقليات. بل على العكس، فإن القانون التركي مليء بمواد تشرعن إسكات الحركة الكُردية وقمع اللغة والثقافة الكُرديتين.

يُعد قانون الإرهاب أحد أكثر القوانين اللافتة للنظر والذي يعانيه الكُرد. فهذا القانون يجيز معاقبة كل أنواع الأنشطة بما فيها غير العنيفة والتصريحات أيضاً؛ تحت توصيف غامض كهذا يمكن إدراج أي نشاط أو قول. فعلى سبيل المثال، لسنوات درج الناس على نعت

أوجلان بـ«المحترم أوجلان»: هذا يعتبر انتهاكاً للقانون الذي يُجرّم «الإشادة بقائد منظمة إرهابية».

كما يتم اتهام الصحفيين بـ«بالقيام بالدعاية لمنظمة إرهابية» في حال نشروا وجهة نظر الـPKK. واتهام المحامين بـصلاتهم بـ«منظمة إرهابية» في حال قيامهم بمهمة الدفاع عن أشخاص معينين، ويُحاكمون بموجب القانون نفسه.

تدعو منظمات حقوق الإنسان مثل منظمة العفو الدولية و هيومن رايتس ووتش منذ سنوات، وكذلك المنظمات المحلية، تركيا إلى تعديل قانون الإرهاب. كما طالبت بذلك نقابات المحامين الدولية ونقابات الصحفيين، لكن تركيا تطلق وعود الإصلاحات لكنها لا تفعل شيئاً على أرض الواقع.

بالإضافة إلى قانون الإرهاب هناك أيضاً، القانون الذي ينظم الحياة السياسية، إذ إنه يشكّل مصدراً آخر للمشكلات. ففي الدستور وقانون الأحزاب السياسية هناك مواد استُخدمت في حظر ٥ أحزاب مناصرة للكُرد منذ مطلع تسعينيات القرن الماضي؛ كلها بتهمة «الانفصالية».

بدأت الإجراءات ضد أول هذه الأحزاب، حزب العمال الشعبي (HEP اختصاراً بالتركية)، بعد قيام البرلمانية الناشطة ليلى زانا، أثناء أداء القسم، بإضافة جملة باللغة الكُردية: «إنني أقوم بتأدية هذا القسم من أجل الأخوة بين الشعبين التركي والكُردي». كان ذلك في عام ١٩٩١؛ كان التكلم باللغة الكُردية ممنوعاً، خصوصاً في البرلمان.

بدأت الضوضاء في اللحظة التي حنت رأسها لتقرأ القسم من الورقة فبانت الألوان الكُردية، أحمر-أخضر- أصفر، على ربطة شعرها. حينذاك بدأ أعضاء من البرلمان بالضرب على الطاولات والصراخ معربين عن احتجاجهم بشكل هادر بحيث لم يعد يُسمع القسم. وعند تلفظها بالجملة الأخيرة باللغة الكُردية، دخل البرلمان في حالة هياج قوية. تم على أثرها الحكم على ليلى زانا بالسجن مدة ١٠ سنوات بتهمة الخيانة العظمى.

بالمناسبة، عادت ليلى زانا ودخلت البرلمان مرة أخرى، هذه المرة عبر لائحة حزب BDP. هناك برلمانيان آخران من الحزب نفسه يقبعان في السجن: سلمى إمراك وخطيب دجلة. إمراك منذ ٢٠٠٩ بتهمة «الانتماء إلى منظمة إرهابية» ودجلة منذ ٢٠١٠ بسبب «القيام بالدعاية لمنظمة إرهابية»، ولايزال الاثنان حتى الآن بدون إدانة. بالنسبة إلى كليهما هذه ليست المرة الأولى لاعتقالهما بسبب نشاطهما السياسي.

الاتحاد الأوروبي والنضال الكُردي

لماذا لا يُفصح الاتحاد الأوروبي بشكل واضح عن موقفه من الحقوق الكُردية؟ سؤال يوجه إليَّ غالباً من قبل الكثير من الكُرد، وأحياناً في لحظات غريبة، كما حصل في دياربكر عندما هاجمت الشرطة بالقنابل المسيلة للدموع تجمعاً كبيراً لإحياء ذكرى اعتقال

أوجـلان. أخرجت مفكرتي وقلماً من محفظتي، وبينما كنتُ مع المتظاهرين نغمض عيوننا بشدة لجعل الغازات تسيل مع الدموع، اقترب بعض الرجال وقالوا: «هل أنت صحفية؟ من أيِّ بلد أنت؟ من هولندا؟ لماذا لا يفعل الاتحاد الأوروبي شيئاً حيال هذه الأفعال؟ لماذا لا يقولون شيئاً؟ اشرحي لنا الأمر!».

قلت لهم بأنه في الثمانينيات والتسعينيات كانت هولندا لا تزال تولي اهتماماً لقيم حقوق الإنسان بشكل عام والكُرد من ضمنهم، لكن بعدئذ تغيرت أمور كثيرة. خصوصاً في السنة الأولى من الألفية الثالثة: الهجمات على مركز التجارة العالمي في نيويورك وانطلاق «الحرب على الإرهاب»، والصداقة التي كانت الولايات المتحدة وأوروبا بحاجة إليها مع تركيا التي تشكّل جسراً بين الغرب والعالم العربي، والسرعة التي انصاعت فيها أوروبا لضغوط الأميركان والأتراك في وضع الـPKK على قائمة المنظمات الإرهابية. لقد أدت الإصلاحات التي قام بها رئيس الوزراء أردوغان في بداية حكمه- الذي مرَّ عليه الآن أكثر من ١٠ سنوات- إلى اعتبار تركيا مرشحاً رسمياً لعضوية الاتحاد الأوروبي منذ ٢٠٠٥. إن الاقتصاد التركي المتنامي، مع النسبة العالية للشباب من سكان تركيا البالغ عددهم ٧٢ مليوناً هو سوق رائع للاقتصاد الأوروبي المريض. «إنها لعبة كبيرة، وأوروبا ببساطة لا تعتبركم ذات أهمية فيها»، بهذه الجملة ختمتُ جوابي.

مازلتُ أتذكر الخلاف الذي نشب بين تركيا وهولندا في ربيع

١٩٩٥، عندما أسس الكُرد في لاهاي «البرلمان الكُردي في المنفى». كانت تركيا غاضبة وسحبت سفيرها من هولندا. فقد وجدت تركيا بأن برلمان المنفى له ارتباط بالـPKK لذلك يجب حظره. وقامت الولايات المتحدة الأميركية في الوقت نفسه، التي كانت قد وضعت الـ PKK قبل ذلك بفترة على قائمة الإرهاب، بالضغط على هولندا.

لكن رئيس الورزاء الهولندي حينذاك، فيم كوك، لم يتراجع. حيث استند إلى حرية التجمع المنصوص عليها في الدستور الهولندي، قائلاً: «إذا تخلينا عن جزء هام من دستورنا من أجل الحفاظ على علاقات جيدة، فإننا ننزلق في منحدر خطر». كان محقاً في ذلك. قد تكون الـ PKK منظمة عنيفة، وصحيح أن البرلمان الكُردي في المنفى على علاقة بالـPKK، لكن المنفيين لم يكونوا من الذين حملوا السلاح وكانوا يسعون إلى إحداث التغيير بطرائق ديمقراطية.

وفي السنة نفسها منح الاتحاد الأوروبـي جائزة زخاروف المرموقة لـ ليلى زانا التي كانت حينذاك معتقلة بسبب جملة كُردية قالتها في البرلمان التركي. لقد وضعت أوروبا بهذا العمل تركيا بشكل علني تحت الضغط لإطلاق ليلى زانا واحترام حقوق الإنسان. لكن مع ذلك لم يُفرج عنها إلا بعد ٩ سنوات ليتسنى لها بعد ذلك الذهاب إلى بروكسل واستلام الجائزة.

هل يا تُرى لايزال ممكناً في هذه الأيام منح ليلى زانا جائزة زخاروف؟ لا أعتقد ذلك. ليس لأن نشاطها قد تغيّر. فقد أصبحت في ٢٠١١ عضواً في البرلمان من جديد ولاتزال ناشطة غير مستكينة في

الدفاع عن حقوق الإنسان. ولاتزال ملاحقة بشكل دائم؛ ففي ٢٠١٢ تم الحكم عليها بـ ١٠ سنوات سجن بسبب تصريحاتها في ٩ خطابات، ولاتزال القضية سارية في المحكمة العليا. لكن وضع الـ PKK على قائمة المنظمات الإرهابية في الاتحاد الأوروبي، أدى إلى خفوت التعاطف معها في أوروبا. لقد تحولت القضية الكُردية من مسألة حقوق إنسان إلى مسألة إرهاب. ولم يعد بعد الآن ممكناً تصور حصول اجتماع للبرلمان الكُردي في المنفى في مدن أوروبية أخرى - بعد تأسيسه في لاهاي واجتماعاته بعد ذلك في فيينا وموسكو وكوبنهاغن وأوسلو وروما وبروكسل- كما يزداد الضغط على المنظمات الكُردية في أوروبا ومنها هولندا. ففي عام ٢٠١٢ وحدها كانت هناك مداهمتان على اجتماعين للشبيبة الكُردية وتم اعتقال الحضور بتهمة الانتماء إلى PKK.

لم تؤد الاعتقالات على المستوى القضائي إلى نتائج تُذكر؛ لم يتم العثور على أيِّ أسلحة، ولم يكن هناك أيُّ «تدريبات إرهابية»، فضلاً عن أنه في المداهمة الثانية لم يجدوا أيَّ «مواد دعائية،» ولم تتم محاكمة أحد. لكن حرية التجمع تتعرض للضغط. أما الصحف التركية فقد تناولت ذلك على الشكل التالي: القبض على عناصر من الـ PKK في أوروبا! لكنها لم تذكر بأنهم لم يُحاكموا.

بالمناسبة، لا تُعقد اجتماعات كهذه من قبل جهات غير معروفة، بل من قبل منظمات تنضوي تحت الـ FedKom التي هي منظمة تضم

ثماني جمعيات كُردية في هولندا، وهي بدورها عضو في KonKurd، اتحاد الجمعيات الكُردية في أوروبا.

إن هذه الجمعيات هي نتاج الوعي الكُردي الذي نشأ من نضال الـPKK. وهي ناشطة على كل الجبهات: جمع التبرعات للحركة (التي تنتمي إليها الـPKK، لكن لم تستطع أي محكمة أوروبية إثبات تدفق هذه الأموال)، وتعليم اللغة، وتعزيز الثقافة الكُردية، والتظاهرات السياسية، وتقوم منذ سنوات بحملات المطالبة بالإفراج عن أوجلان. وتتفق مع الـ PKK في نظرته إلى المسألة الكُردية في تركيا: الحقوق الكاملة السياسية والثقافية للكُرد بما فيها شكل من الحكم الذاتي. أليس من المفروض أن تقوم أوروبا بدعم هذه المطالب بدل تجريم هذه الجمعيات استجابةً للضغط التركي؟

تركيبة دولية معادية للكُرد

إن جميع الحلول المقترحة من قبل الزعيم أوجلان المعتقل ومن الحركة السياسية الكُردية، تنطلق من فكرة إنشاء نظام يستمرالكُرد عبره في العيش في تركيا بكامل حقوقهم. يستند هذا الحل إلى تحليلهم للمشكلة: بأنه عند إنشاء الجمهورية تم تجاهلهم رغم أنهم حاربوا مع الأتراك في الحرب العالمية الأولى وبعدها خلال حرب الاستقلال التركية. الحل المقترح لا يهدد وجود تركيا ضمن حدودها الحالية، لأن الكُرد قاتلوا أيضاً من أجل الحدود نفسها، أو كما عبرعنه المفكر

الكُردي موسى عنتر، الذي اغتالته الدولة في عام ١٩٩٢، بقوله: «ما الذي يجعلنا نتخلى عن إسطنبول وإزمير للأتراك؟»

لكن تحليل المشكلة بطريقة مختلفة يؤدي إلى حل مختلف. هناك شخص واحد فقط في تركيا يقوم بذلك وبصوت عالٍ وواضح لعقود: عالم الاجتماع التركي إسماعيل بيشيكجي، الذي استحوذت عليه المسألة الكُردية منذ ١٩٦١ عندما قام بجولة ميدانية تتعلق ببحثه الأكاديمي في محافظة اليزا شمال دياربكر، لم يكن حينذاك قد تجاوز الـ٢٢ عاماً من عمره. بعد إنهاء دراسته التحق بالخدمة العسكرية الإلزامية في بتليس وشيمدينلي في المنطقة الكُردية أيضاً، ومن ثم التحق بجامعة أرضروم ثم جامعة أنقرة للتخصص في علم الاجتماع ودراسة المجتمع الكُردي.

لكن بحثه الأكاديمي لم يدم طويلاً: بعد انقلاب ١٩٧١ تم اعتقاله واستجوابه للمرة الأولى. ومنذ ذلك الحين لم تعد أي جامعة تفتح أبوابها له وبلغ مجموع ما قضاه في السجون التركية ١٧ عاماً وشهرين.

هكذا أصبحت عملية متابعة البحث الأكاديمي بالنسبة إليه مستحيلة، لكن ذلك لم يثنه عن الاستمرار في نشاطه، حيث أصبح همّه الأساسي هو نشر القضية الكُردية، وفي الوقت الحاضر يتكلم عنها أكثرمن النشطاء الكُرد أنفسهم وحتى أوجلان نفسه. يقول الباحث الهولندي والخبير في الشؤون الكردية مارتن فان برويسين: 'ينظر الكُرد إلى بيشيكجي كشخص يتحلى بقيم إنسانية عليا، فهو التركي

الوحيد الذي لم يتخل عنهم قط وتحمّل أخطاراً جسيمة متحدياً بمفرده دولة قمعية لا تعرف الرحمة'.

التقيت هذا المفكر المستقل والبارز في أيلول ٢٠١٣ في مؤسسة إسماعيل بيشيكجي في إسطنبول التي تضم مكتبة كبيرة مختصة بالمسألة الكُردية. وافق على المقابلة، وفيما أملت أن نستطيع خلال ساعة تبادل الأفكار، فإن الحديث استمر حوالى ساعتين ونصف الساعة حول المسألة الكُردية بشكل عام وقصف أولوديرى بشكل خاص.

يرجع أساس المسألة الكُردية، وفقاً لبيشيكجي إلى «خطأ تاريخي» وقع في السنوات التي تلت الحرب العالمية الأولى، والذي تمثّل في عدم قيام كردستان مستقلة. وهي مقاربة مختلفة تماماً عن مقاربة الحركة السياسية الكُردية التي ترى بأن جوهر المشكلة هو سياسة الصهر وإنكار وجود الكُرد في الجمهورية التركية. منطقياً يؤدي تحليل بيشيكجي إلى حل مختلف أيضاً: كردستان مستقلة. حيث يقول: بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى دافع الجميع عن حق الشعوب في تشكيل دولها، مع ذلك تم تقسيم كُردستان وتوزيعها بين ٤ دول. لم يكن الكُرد يدركون حقوقهم وإذا ما استمروا في ذلك، فإن المشكلة سوف تبقى دون حل'.

كان للقومية الكُردية وجود محسوس في سنة ١٩٢٠ في جنوب كردستان، التي تقع اليوم في العراق. يقول بيشيكجي: 'حينذاك عبّر

الشيخ برزنجي عن رغبته في أن يصبح ملك كُردستان لكن إنكلترا وفرنسا وعصبة الأمم لم تستمع إليه. فقد تعاونت مع الإيرانيين والأتراك والعرب، وفضّلت غض الطرف عن مطالب الكُرد[٤].

لايزال هذا هو الموقف الدولي كما كان عليه في الماضي، يوضّح بيشيكجي، وهو بذلك يشير إلى عام ١٩٤١، عندما اجتاحت قوات الحلفاء إيران واحتل الاتحاد السوفياتي شمال إيران. حينذاك أراد السوفيات ضم شمال إيران إلى الاتحاد السوفياتي ولكي تستميل السكان الكُرد لمصلحتها، عملت على تأجيج القومية الكُردية. ما نتج منه في بداية الأربعينيات تشكيل منطقة بقيادة كُردية ما لبثت أن تحولت بين عامي ١٩٤٦ و١٩٤٧ إلى جمهورية مهاباد. فكانت دولة تابعة للاتحاد السوفياتي ولم يتم الاعتراف بها من قبل المجتمع الدولي. يقول بيشيكجي: «إذن، لقد كان لدى الكُرد تطلعات لبناء دولة خاصة بهم، لكن الوضع القائم حينها، الذي لم يعط الكُرد حق الحصول على دولتهم الخاصة، لايزال مستمراً».

مع تأسيس الأمم المتحدة، التي خلفت عصبة الأمم، تمت مأسسة هذه المسألة، يقول بيشيكجي: «كان هدف المنظمة هو إيجاد حلول سلمية للمشكلات السياسية، لكن بالنسبة إلى الكُرد بقيت قضيتهم على حالها». وهنا يشير إلى قرارين هامين صدرا عن الأمم المتحدة؛ القرار ٦٣٧ لعام ١٩٥٢، والقرار ١٥١٤ لعام ١٩٦٠: « الأول يحدد بأن حق تقرير المصير للشعوب والأمم هو شرط مسبق للتمتع الكامل

بحقوق الإنسان جميعها. الثاني يدعو في عدد من البنود إلى وجوب تطبيق حق تقرير المصير بشكل عملي، بينما يؤكد البندان الأخيران على وحدة الدول القائمة. بموجب هذا حصلت ٥٧ دولة في أفريقيا كانت مستعمرة من قوى خارجية، على استقلالها، بينما لم يطبق ذلك على الشعوب المستعمرة داخلياً مثل الكُرد'.

ويضيف قائلاً: بأن الشعوب المستعمرة داخلياً هي تحت ضغط عسكري مباشر أكبر: «في كُردستان يوجد الجيش والمعدات العسكرية دائماً في الجوار وبالتالي يمكن نشرها مباشرة ضد أي انتفاضة مسلحة. هذا يختلف كلياً عما حدث في أنغولا على سبيل المثال: كانت سلطات الاحتلال البرتغالية بعيدة جداً، الأمر الذي جعل البرتغاليين أقل مرونة».

لقد نتج من هذا الضغط المباشر، بالإضافة إلى عدم وقوف المجتمع الدولي إلى جانب الشعوب المستعمرة داخلياً، مجازر مستمرة، يقول بيشيكجي. وهو يشير بذلك إلى ديرسيم ١٩٣٧ و١٩٣٨ وباقي الإجراءات القمعية العنيفة التي تعرض لها الكُرد في العقد الأول من قيام الجمهورية. وكذلك حلبجة في العراق ١٩٨٨. ففي هذا القصف الكيمياوي من قبل صدام حسين – الذي كان جزءاً من حملة كيمياوية ضد الكرد وشعوب غير عربية في العراق بين ١٩٨٣ و١٩٨٨ – قُتل حوالى ٥٠٠٠ شخص مباشرة، ومات في السنوات التي تلت الكثيرون بسبب المضاعفات والأمراض. يقول بيشيكجي: 'لقد

ارتكب المستعمرون كإنكلترا والبرتغال وهولندا الكثير من الجرائم لكن ليس بقدر الجرائم التي ارتكبت بحق الكُرد من قبل الدول التي تستعمر كُردستان'.

يُعتبر الكُرد البالغ عددهم ٤٠ مليوناً (التقديرات تختلف، لكن بيشيكجي يحتفظ بهذا الرقم) أكبر شعب بدون دولة. والذي لا يملك دولة، يبقى خارج المشهد الدولي. يوضح بيشيكجي ذلك بالعودة إلى القصف الكيمياوي على حلبجة في كردستان العراق: 'لم يصدر حينذاك أي رد فعل من المجتمع الدولي، بالإضافة إلى عدم امتلاك الكُرد لأي منبر من شأنه شد الانتباه إلى قضيتهم. كان هناك في فيينا، في السنة نفسها التي حدثت فيها مجزرة حلبجة، مؤتمر دولي عن الإبادة. أراد الكُرد الاشتراك فيه لأنهم عانوا ذلك مرات كثيرة، لكن المنظّمين رفضوا قبول مشاركتهم لأنهم لا يقبلون إلا ممثلين عن دول. الأمر الذي يعني وجوب تمثيلهم من خلال الدولة العراقية'.

يُسمي بيشيكجي ذلك بـ 'تركيبة دولية معادية للكُرد' ويوضح ذلك من خلال إعطاء مثال آخر على الصراعات المسلحة التي دارت من أجل حق تقرير المصير: 'حرب الجزائر دامت ٦ سنوات، وحرب فيتنام ٧سنوات، وكل الدول التي تشكلت بعد الحرب العالمية الثانية حققت وجودها من خلال طاولة المفاوضات. الانتفاضة الكُردية المسلحة في تركيا بدأت في ١٩٨٤ ولاتزال مستمرة بدعم هائل من الشعب الكُردي وتضحيات كبيرة. لم يكن لهذه الانتفاضة أن تُقمع دون مساعدة المجتمع الدولي'.

يرى بيشيكجي بأن مقولة إن زمن الدول القومية قد ولى، التي يرددها كثيرون ومنهم أوجلان، مقولة لا معنى لها. 'لاتزال الدول تتشكّل، وتخرج إلى الوجود'. فضلاًعن ذلك: ' تصرح قيادة الـPKK بعدم سعيها إلى دولة خاصة، لكن في الوقت نفسه يُحكم الكُرد من قبل دول قومية لا يهمها رأيهم بتاتاً'. يعتقد بيشكجي بأن فكرة أوجلان بعدم مطالبته بدولة مستقلة هي فكرة 'غير صحيحة'، خصوصاً بعد اعتقاله: 'أوجلان ليس حراً'. السجن هو سبب آخر في عدم قدرة الاثنين أبداً على تبادل الأفكار بشكل مباشر فيما يخص منظورهما لكُردستان والكُرد: عندما كان أوجلان حراً، كان بيشيكجي مسجوناً لسنوات، وعندما أصبح بيشيكجي طليقاً، اعتقل أوجلان'.

كُردستان مستقلة: حلم لمستقبل بعيد

ذكرت لبيشيكجي بأنه خلال لقاءاتي الكُرد نادراً ما سمعت أحداً يتكلم عن الرغبة في كُردستان مستقلة. وقلت له: 'أغلب الكُرد يجدون بأن كُردستان مستقلة هو حلم المستقبل لا بل مستقبل بعيد. فلماذا تدعو أنت إلى دولة؟' أجاب بأنه لا يقول للكُرد بوجوب السعي إلى دولة، بل يود أن يكونوا أوعى للطريقة التي يقسّمهم بها المجتمع الدولي. وأضاف: بأن 'الحصول على الاستقلال اليوم يختلف تماماً عما كان عليه الحال بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، فاليوم هناك لاعبون دوليون أكثر ومصالح أكثر بكثير من تلك المرحلة. على الكُرد أن يطالبوا أقله بدولة تركيّة فيدرالية'.

يوضّح بيشيكجي بأن عملية تقسيم كُردستان التي جرت في العشرينيات من القرن الماضي كانت هي المرة الثالثة: ' المرة الأولى كانت في بداية القرن السادس عشر حيث وقع جزء من كُردستان ضمن الإمبراطورية العثمانية والجزء الآخر في الإمبراطورية الفارسية، والمرة الثانية كانت في بداية القرن التاسع عشر خلال الحرب الإيرانية – الروسية. أرجو أن يصل هذا الكلام إلى الكُرد الذين تتواصلين معهم. ما أقصده هنا هو أن للتمزيق المستمر تأثيراً كبيراً في وعي الكُرد. فهو يسلبهم القدرة على تشكيل هوية ورؤية'.

وأنا أستمع إلى هذا الكلام، يقفز إلى ذهني مصطلح 'روح مستعمَرة'، التي وجدتها سابقاً مناسبة لوصف الطريقة التي يتعامل بها كثير من الكُرد مع مسألة التعليم باللغة الكُردية: لا يريد الكثير من الأهل تدريس أولادهم باللغة الكُردية بسبب خشيتهم من عدم تعلمهم اللغة التركية الأمر الذي قد يكون له تأثير في مستقبلهم في تركيا. هذا هو السبب في ضعف قدرة كثير من الشباب الكُرد على إتقان لغتهم أو حتى عدم إجادتها: عائلات لا تريد تدريس أولادها الكُردية خوفاً من القمع أو الضائقة الاقتصادية، بينما التدريس باللغة الأم إلى جانب دروس مكثفة باللغة التركية يمنح الأولاد كفاءات أكثر للنجاح في تركيا.

وهذا ما يثبته أيضاً، واقع مناطق يوجد فيها نظام تعليم مشابه، لنأخذ الباسك الإسبانية على سبيل المثال: الأولاد في الباسك يتعلمون اللغتين الأمر الذي يقوي ثقافتهم وهويتهم ويمنحهم فرصاً أكبر في

سوق العمل في المستقبل. في حين أن الكُرد الناشطين في الحركة السياسية والذين تعمّقوا في هذا النوع من الخلفيات فقط، يدعمون التدريس باللغة الكُردية وليس 'الكُرد العاديين' الذين أصبحوا يرون طريقة تفكير الدولة كما لو أنهم هم أصحاب هذه الطريقة.

ينطبق الشيء نفسه على الطريقة التي يتكلم بها الكُرد عن الأجزاء الأخرى من كُردستان؛ إذ إنهم يُسمون القسم التركي بشمال كُردستان، والقسم العراقي بالجنوب، والقسم الواقع في سوريا يسمونه بالغرب، وكُردستان إيران هي القسم الشرقي. لكن إذا ما نظرت إلى خريطة كُردستان ترى بأن هذا التقسيم غير منطقي. فالقسم الواقع في تركيا المسمى بالشمال، جزء كبير منه مثل محافظات حكاري وشرنك وسييرت بالإضافة إلى الأجزاء الشمالية من العراق، هي في الحقيقة كُردستان الوسطى. أليست كُردستان الجنوبية، هي عملياً الجزء الجنوبي للأجزاء التي تقع اليوم في إيران والعراق؟ ثم لماذا يتم إلصاق أسماء حدود الدول التي تحتل كُردستان إلى هذه التسميات عند الإشارة إلى هذه الأجزاء؟

إن مجزرة أولوديرى، وفقاً لإسماعيل بيشيكجي، هي جزء من الإبادة المستمرة ضد الكُرد من قبل الدول التي تحتل كُردستان. ولتوضيح ذلك يسترجع ما حدث في ١٩٦٠، حينذاك أراد الزعيم الكُردي مصطفى بارزاني (الذي لعب أيضاً دوراً في الدفاع عن جمهورية مهاباد في إيران في الأربعينيات) القيام بانتفاضة ضد السلطة

المركزية في بغداد من أجل الحصول على حكم ذاتي للكُرد. فقام بتنظيم مسيرة من منطقة بارزان، شمال شرقي العراق، إلى زاخو، بمحاذاة الحدود التركية والقريبة من الحدود السورية في الغرب، لكي يحصل على دعم لخطته.

يقول بيشيكجي: 'لم يحصل بارزاني على الدعم اللازم إلا عند وصوله إلى زاخو. حيث كتب له القرويون على الجانب التركي من الحدود، رسالة يعبّرون فيها عن دعمهم له، ومن ثم التحقوا بالمسيرة، وساروا باتجاه بارزان وخلال المسير كان عدد الأنصار في تزايد. فأصبح الدعم هائلاً إلى الحد الذي دفع بارزاني إلى إعلان الثورة في ١٩٦١'.

كان هؤلاء القرويون على الجانب التركي من الحدود قرب زاخو العراقية، هم سكان قرى منطقة أولوديرى؛ التي كانت موجودة قبل قيام الجيش التركي بحرقها وتسويتها بالأرض. يقول بيشيكجي:'الكُرد هناك كانوا دائماً أكثر ارتباطاً بجنوب كُردستان منه بتركيا. لقد تحولوا إلى حر\س قرى في الثمانينيات وحصلوا على راتب وسلاح من الدولة، لكنهم عملياً لم يخضعوا قط لسلطة رسمية. استمروا في التكلم بلغتهم الخاصة، ولم يقاتلوا بشكل فعلي ضد الكريللا، بالطبع ليس هناك شك بأن المهربين لم يكونوا مقاتلي كريللا؛ لكن هذا الأمر ليس مهماً بالنسبة إلى الدولة التركية'.

وهذا أيضاً يضعه بيشيكجي مرة أخرى في سياقه التاريخي. فيقول: 'هناك قصة تتعلق بنهاية ثورة الشيخ سعيد عام ١٩٢٥. حينذاك

أصدرت المحكمة حكماً بإعدام ٤٧ شخصاً من قادة الثورة. لكن فجر يوم الإعدام تم جلب ٤٦ سجيناً فقط. لذلك تم الأمر بإحضار أي رجل من السوق ليكتمل العدد، وهو ما تم فعلاً، لكن الرجل الذي تم إحضاره قال بأنه لا علاقة له بالثورة وثبت فعلاً أنه لا يكذب. لكن صاحب القرار أصر على ٤٧ شخصاً، لذلك سأل: «هل يتكلم التركية؟» فقالوا له لا. فأجاب «إذن لسنا بحاجة إليه». وتم إعدامه'.

يستطرد بيشيكجي قائلاً: 'كُرد روبوسكي أيضاً، ليس لهم أيُّ قيمة في نظر الدولة التركية'.

صراع سياسي وحداد شخصي

ستحتفل تركيا في عام ٢٠٢٣ بالذكرى المئوية لتأسيس الجمهورية. من الآن وحتى ذلك التاريخ سيتحتم على أوزكان، الابن البكر لبكيزا وأوصمان، المشاركة في تحمّل الأعباء المالية للعائلة من خلال العمل في التهريب. ولن تستطيع بكيزا منعه؛ قالت لي ذلك عندما كان أوزكان قد بلغ تواً الثانية عشرة من عمره: 'لن أسمح له بالذهاب الآن، لكن لا أستطيع الاستمرار في منعه. كل الأولاد يقومون بذلك وهو تواق للعمل معهم. بالطبع أنا خائفة لكن ما الذي يمكنني فعله؟'

أستطيع أن أتخيّل دخول إسرى الجامعة في ذلك الوقت، فقد نصح أستاذها العائلة بالاهتمام بتعليمها لأنها مجتهدة جداً. أخذت العائلة النصيحة على محمل الجد وتحمّل الجميع نفقات دراستها

لتحقيق هذا الهدف، حتى بكيزا التي تتلقى نوعاً من التعويض العائلي لإعانة الأطفال الخمسة، حيث دخل محمود أيضاً إلى المدرسة، وبعض التبرعات غير المنتظمة من مؤسسات وأفراد مستقلين. كما أنها تتلقى المساعدة من أناس يشعرون أن ما حدث يمسهم أيضاً. في زيارتي الأخيرة لاحظت استبدال الباب الأزرق العتيق المتهرئ لغرفة المعيشة، بباب جديد ومتين. تقول بكيزا: ’إنه هدية من نجار في إحدى القرى المجاورة‘.

لكن في المقابل، قد تكون إسرى تزوجت عند بلوغها العشرين من عمرها. هذا يتوقف على اجتيازها لامتحان القبول في الجامعة عندما تبلغ سن الـ ١٧ أو١٨ من عمرها. وإذا لم تنجح فإنها، وفقاً لعادات القرية، تتزوج مباشرة. كم سيكون رائعاً لو نجحت إسرى أو أحد الأولاد في بناء حياة أسهل نوعاً ما.

لكن أكثر ما يثير فضولي هو التغيّر الذي سيحدث مع بكيزا وكل الذين فقدوا أحبتهم في القصف في تعاملهم مع المأساة التي حلت بهم. بمعنى آخر، هل تبقى تركيا، التي سيمر ١٠٠ عام على ولادتها، دولة صلدة أم ستحدث بعض التغيرات العملية؟ هل تتحول إلى دولة تحمي مواطنيها أولاً، أم إنها ستستمر فقط في الاهتمام بنفسها؟

وإلى حين حدوث هذا التحوّل، ستبقى حقيقة القصف غير معلنة، وسيبقى أقارب الضحايا لعبة في الصراع السياسي. ولن تتوقف الحكومة عن فرك ملح الخطاب القومي على الجروح.

والحركة السياسية الكُردية تقوم بالتلاعب أيضاً. كان لدي ألم

في معدتي عندما كنت أستمع إلى رئيس حزب الـ BDP، صلاح الدين دميرتاش، يناشد أقارب الضحايا قبول دعوة الحوار مع رئيس الوزراء أردوغان في صيف ٢٠١٣، الذي كان في زيارة إلى محافظة شرنك لافتتاح مطار جديد. كان رد فعل بعض القرويين هو الامتعاض حسب ما تابعته على التويتر. كتب حكمت آلما، الذي فقد شقيقه نادر في القصف،على صفحة التويتر: 'نحن، أهل روبوسكي، لا نقبل إهانة أنفسنا بالجلوس إلى مائدة غداء مع رئيس الوزراء المسؤول عن المجزرة، والذي لايزال مستمراً في القتل مع كل كلمة يقولها في هذا الشأن'.

لكن في مساء اليوم نفسه اجتمع ٦ من أهالي الضحايا مع أردوغان، هل كان حكمت آلما متسرعاً وحاداً في رد فعله، أم ثمة أمر آخر؟ تواصلت مع ابنة أحد الستة الذين جلسوا مع أردوغان واستوضحتها الأمر. فكتبت تقول: 'في البداية لم نرغب في مقابلة أردوغان. والسبب في ذلك هو عدم تلقينا أي جواب عن مطالبتنا باجتماع كهذا منذ لحظة وقوع القصف. لذلك لم نقبل دعوته للقاء وقلنا:'لن نجلس إلى الطاولة نفسها'. لكن بعد ذلك قررنا لاحقاً الجلوس معه، بعد أن تم إقناعنا من قبل أناس لا نستطيع مخالفة رأيهم'.

قبل ذلك بحوالى ٦ أشهر أي في الذكرى الأولى للقصف، قال صلاح الدين ديمرتاش – الذي أقنع أقارب الضحايا – ولايزال يقول 'بأن المجزرة تحمل توقيع أردوغان. لم يكن في ذلك الوقت يقبل

مجرد التفكير بأن تقوم العائلات بمقابلة الشخص الذي برأيه هو المسؤول عن مقتل أحبائهم'.

لكن في الشهر نفسه، أي كانون الأول ٢٠١٢، تم الإعلان بأن الحكومة تتفاوض بشكل مباشر مع زعيم الـ PKK أوجلان للوصول إلى حل للقضية الكُردية. وقام الطرفان بالتحضير لوقف إطلاق النار. تم في دياربكر خلال احتفالات نوروز، العيد الكُردي، في ٢١ آذار ٢٠١٣، قراءة رسالة أوجلان. حيث أعلن فيها إنهاء الكفاح المسلح ودعا الجميع في تركيا إلى العمل من أجل الديمقراطية والأخوة وبروح حرب الاستقلال التي مرَّ عليها حوالى قرن من الزمن. ومع مطلع أيار بدأ الـ PKK بالانسحاب من تركيا إلى معسكراته في كُردستان العراق.

يبدو أن جلوس أهالي الضحايا مع أردوغان كان ضمن هذا الواقع السياسي، ولم يكن ممكناً رفض كلام صلاح الدين ديمرتاش. وهكذا ذهبوا إلى المقابلة. بعدها بيوم واحد قال ديمرتاش في مقابلة مع قناة IMCTV المستقلة: 'كانت عائلات روبوسكي مسرورة بلقاء رئيس الورزاء شخصياً. كانت فرصة للتعبير عن مشاعرهم أمام الشخص الذي يمثل أعلى سلطة سياسية في الدولة'.

في الحقيقة كلمة 'العائلات' تشمل المئات من أقارب الضحايا، لكن ديمرتاش قرر بأنهم كانوا 'مسرورين' كأنهم كائن واحد. استقصيت هنا وهناك، واكتشفت بأن معظم أقارب الضحايا لم يكونوا مسرورين على الإطلاق. بل كانوا مصابين بخيبة أمل لأن أردوغان لم يقدم لهم

أي شيء. حتى أن أحد المدعوين كان قد ترك الجلسة وخرج غاضباً ومحبطاً. في اليوم التالي كتبت الجرائد الموالية للحكومة عن الزيارة واصفةً إياها بالخطوة الهامة ضمن نهج الحكومة في التعامل مع جرائم القتل الجماعي. ووضعت صور أردوغان وهو يطير الحمام في افتتاح المطار.

لكنهم لم يذكروا نقل التحقيقات القضائية في مجزرة أولوديرى من المحكمة المدنية إلى القضاء العسكري. وعلى أثر ذلك بدأ أقارب الضحايا بالشكوى وباشروا تقديم عريضة تطالب بتحريات حقيقية، إذ إنهم لا يثقون نهائياً بأن المحكمة العسكرية سوف تبحث بشكل صادق ودقيق في العمليات العسكرية. يستطيع أردوغان، بما يملكه من ثقل نيابي في البرلمان، تغيير هذا القانون بحيث يصبح النقل ممكناً، لكنه لا يفعل ذلك.

(في كانون الثاني ٢٠١٤ قرر المدعي العام العسكري أن الجيش لا يتحمل أي ذنب عن القصف ولذلك لم تجر محاكمات. لم يبق أمام أقارب الضحايا غير التوجه إلى محكمة أوروبا لحقوق الإنسان.)

ثمة خاصية أساسية للهوية «المسيّسة» ألا وهي تحويل الحزن الشخصي إلى مطالب سياسية. وهذا تماماً ما تقوم به الحركة الكُردية في التعامل مع مجزرة أولوديرى. أتفهم ذلك، لكن الأمر مزعج أن ترى كيف يتم أحياناً عدم احترام الحدود الشخصية للناس. كم محدودة هي حرية التعبير عن الحداد على مصاب شخصي كبير: إن التخلف ولو مرة

واحدة عن الذهاب إلى العزاء الأسبوعي في المقبرة كل يوم خميس، وعدم الانضمام ولو مرة واحدة إلى الواقفين في الصف عند قدوم زائر مع صورة الفقيد الابن والأب، وعدم القبول ولو مرة رأي ديمرتاش بضرورة مقابلة أردوغان في حال رغب في ذلك. هو أمر مستحيل. فالصراع السياسي يتقدم كل شيء.

عندما ينتهي كل هذا، وعندما يتم نشر حقيقة مجزرة أولوديرى بشكل واضح على الطاولة وعندما تصبح المسألة الكُردية في حكم التاريخ، عندئذ فقط سيكون هناك وقت للحزن الشخصي.

كانون الأول ٢٠١٢: الذكرى الأولى

أربعة وثلاثون علماً أسود معلّقة على مدخل الطريق الرئيس في قرية كول يازي. إنه الفجر وأنا أقيم من جديد عند بكيزا وأولادها، لكنني سبقتهم في النزول بمفردي إلى القسم السفلي من القرية. سيأتون لاحقاً.

إنه يوم ٢٨ كانون الأول ٢٠١٢، أي بعد مرور سنة تماماً على القصف.

هناك تضامن كبير طوال اليوم. أقارب الضحايا من النساء يجلسن جنباً إلى جنب، كالعادة مع صور أحبابهن الراحلين في أحضانهن. ومحمود الصغير الذي كان البارحة مساءً يلعب وهو يلبس بيجاما

واسعة وجدها في مكان ما، هو هنا أيضاً ولايزال ينشر البهجة وهو يدور حول بكيزا ويمسك بقدميها.

قام رئيس حزب الـ BDP صلاح الدين ديمرتاش بإلقاء كلمة نارية حمّل فيها مسؤولية القصف لأردوغان. وكان هناك رثاء بصوت الفنان فرحات تونج. وفي المقبرة أقيمت الصلاة وأُلقيت الكلمات. عند نهاية الصباح كان الطريق وعلى الجانبين والساحة المجاورة قد امتلأت بآلاف الناس الذين وقفوا دقيقة صمت وهم يرفعون إشارة النصر. لكن مع ذلك لم يكن الحضور كما كان متوقعاً: فالدرك كان قد أغلق الطريق من محافظة حكاري، لمنع الكثير من الراغبين في المشاركة في الذكرى، من الوصول إلى قريتي كول يازي وأورتاسو.

عند منتصف النهار ربت أحدهم كتفي، فاستدرت: إنه ثروت إينجو، الناجي من القصف والذي فر إلى زاخو في كُردستان العراق. 'لقد عدتُ' قالها بنبرة جافة. قلت له: 'فقط من أجل المشاركة في الذكرى؟' فأجاب: 'لا، بشكل دائم، لم أعثرعلى عمل هناك'.

لقد أكد لي أنه هرب إلى العراق لأن السلطات كانت تضغط عليه. بعد فترة تحدثنا عن الموضوع فأخبرني عن الضغط الذي أحس به. 'تلقيت اتصالاً من قائد الجيش في المنطقة. الذي رأى بأنني يجب أن أدخل المشفى لإجراء فحوصات طبية. وبأن الذي حدث معي ليس بالشيء القليل لذلك ربما كنت بحاجة إلى مساعدة'.

لم أفهم ما يعنيه، حيث لم أر أن ذلك سبب كاف ليشعر بالخطر.

لكنه شرح لي بأنه استشف من العبارة السابقة بأن الدولة مازالت تنوي القبض عليه. وبأنه في المشفى ربما يقدمون له أدوية تؤثر في سلامته العقلية، وبالتالي تستطيع الدولة أن تبعده عن الموضوع على أنه مختل عقلياً ولا أحد سوف يثق بشهادته على القصف. وأردف قائلاً: ٬ وفي حال عدم الذهاب إلى المشفى بنفسي، فإنهم ربما كانوا سيستخدمون طرائقهم الخاصة لتنفيذ ذلك٬. كانت الشكوك كبيرة لذلك اجتمعت العائلة وقررت بالإجماع بأنه من الأسلم أن يغادر باتجاه زاخو.

عاد ليلة إحياء الذكرى. فقد غاب بما يكفي لزوال التهديد؛ هكذا يأمل. لقد اشتاق إلى عائلته وقريته وأبناء قريته. تقول واحدة من بناته التي تقف بجانبه وهي سعيدة بالعودة:٬أستطيع العودة من جديد إلى المدرسة٬ في زاخو كان الأمر صعباً، حيث يتكلمون لغة كُردية مغايرة وهناك مواد دراسية لم تكن تستطيع فهم محتواها.

الجو هنا بارد خصوصاً وأن الشمس، التي بقيت طوال اليوم ثابتة في السماء، بدأت بالمغيب. قاموا بإشعال النار ووضعوا حولها الكراسي البلاستيكية. ذهبت وجلست بالقرب من النار وتحدثت مع بعض الأشخاص ونحن نشرب الشاي. ليس لدي أيُّ فكرة عن برنامج الليلة.

ثم قال أحدهم بأن ٬الطلاب٬ بدأوا مسيرهم. يبدو أن جميع شبان المنطقة بدأوا مسيرة مشاعل من المقبرة باتجاه القرية نزولاً. ذهبت إلى الجهة الأخرى فرأيت المشاعل من بعيد. إنهم يتقدمون ببطء،

شعاراتهم مسموعة. ’دولة قاتلة، أجيبي‘، ’كُردستان هي مقبرة الفاشية‘، وعندما اقتربوا أكثر، شاهدت أوزكان، الابن الأكبر لبكيزا وأوصمان، في المقدمة وهو يحمل علماً كبيراً لمنظمة الشباب الكُردية. التقت نظراتنا؛ اعتزازه يشع نوراً. رفعت له إبهامي عالياً.

في الأسفل شكّل الشبان حلقة وتركوا في الوسط ساحة كبيرة مفتوحة. جلست أمهات ضحايا القصف على الأرض خلف الشبان مباشرة. ومن حولهم الكثير من القرويين والزوار.

نادى أحد الطلاب بالمكروفون اسم أحد الضحايا: صالح أوريك! فتقدم أحد الشبان خارج الحلقة. وصاح ’أنا هو‘ ورمى نفسه على الأرض الباردة وبقي كجثة هامدة. بدران إنجو! تقدم شاب آخر إلى الأمام. ’أنا هو‘ وسقط وبقي ممدداً على الأرض. آدم آنت! وشاب آخر. إركان إينجو! وشاب ثالث وهكذا.

سيفان إينجو! محمد إينجو! بلال إينجو! آصلان إينجو! محمد توسون! سافاش إينجو! أورهان إينجو! نادر آلما! جلال إينجو! فاضل إينجو! محسون إينجو! شيرفان إينجو! يوكسال أوريك! جيهان إينجو! فيدات إينجو! صالح إينجو! أوزكان أويسال! حسين إينجو! نفزات إينجو! حمزة إينجو! سليم إينجو! زيدان إينجو! صلاح الدين إينجو! عبد السلام إينجو! شرف الدين إينجو! أوصمان قبلان!

في هذه الأثناء كانت بكيزا قد غادرت إلى المنزل.

المراجع والمصادر

Adıyan, Abdurrahman, Onbes nolu sınır tası, Miran Yayıncılık, Istanbul, 2012.

Alpkaya, Gökçen Prof., Ilkem Altıntas, Asst. Prof. Öznur Sevdiren en Emel Ataktürk Sevimli, Enforced disappearances and the conduct of the judiciary, Truth Justice Memory Center, Istanbul, 2013.

Aykol, Hüseyin, Susturulamayanlar, Aram Yayinlari, Istanbul, 2012.

Ayata, Bilgin, 'Kurdish Transnational Politics and Turkey's Changing Kurdish Policy: The Journey of Kurdish Broadcasting from Europe to Turkey', Journal of Contemporary European Studies, 2012.Bar'el, Zvi, 'Neighbors / 33 Bullets and one censor', uit: Haaretz, 1 december 2010.

Baumann, Timothy, 'Defining ethnicity', uit: The SAA Archeological Record, september 2004.

Bayır, Derya, Minorities and Nationalism in Turkish Law, Ashgate Publishing Ltd, Surrey, 2013.

Bozarslan, Hamit, 'Between integration, autonomization

and radicalisation – on the Kurdish Movement and the Turkish Left‘ (interview by Marleis Casier and Olivier Grojean), uit: European Journal of Turkish Studies, nr. 14, 2012.

Candar, Cengiz, The transformation of Öcalan, website al-Monitor, 6 januari 2013.

Eissenstat, Howard, ’Metaphors of Race and Discourse of Nation, Racial Theory and State Nationalism in the First Decades of the Turkish Republic‘, uit: Race and Nation: Ethnic Systems in the Modern World, Routledge, 2005.

Bruinessen, Martin van, ’Ismail Besikci: Turkish sociologist, critic of Kemalism, and kurdologist‘, The Journal of Kurdish Studies, 2005.

Bruinessen, Martin van, ’Genocide of Kurds‘, uit Israel W. Charney, The Widening Circle of Genocide, New Brunswick, New York, 1994.

Bruinessen, Martin van, ’The Suppression of the Dersim Rebellion in Turkey (1937-1938)‘, uit: Conceptual and historical dimensions of genocide, University of Pennsylvania Press, 1994.

Bruinessen, Martin van, ’Popular Islam, Kurdish nationalism and rural revolt: the rebellion of Shaikh Said in Turkey (1925)‘, uit: Religion and reural revolt, Manchester University Press, 1984.

Çetin, Fethiye, Anneannem, Metis Yayınları, Istanbul, 2004

(in het Nederlands verschenen als Het geheim van mijn grootmoeder, Van Gennep, Amsterdam, 2010).

Günes, Cengiz, The Kurdish national movement in Turkey – From Protest to Resistance, Routledge New York, 2012.

Insan Hakları Dernegi en MazlumDer, Roboski Katliamı Raporu, 3 januari 2012.

International Crisis Group, Ending the PKK insurgency, Brussel, 2011.

International Crisis Group, The PKK and a Kurdish settlement, Brussel, 2012.

International Crisis Group, Turkey‘s Kurdish impasse: the view from Diyarbakir, Brussel, 2012.

International Crisis Group, Crying 'Wolf,' why Turkish fears need not block Kurdish reform, Brussel, 2013.

Jarvis, Jeff, 'All journalism is advocacy (or it isn't)', website BuzzMachine, 17 juni 2013.

Jenkins, Gareth, 'Continuity and change: prospects for civil-military relations in Turkey', uit: International Affairs 83, 2007.

Jenkins, Gareth, 'Calculating ambivalence: the Imrali process and the balance between Kurdish and Turkish nationalist violence', Turkey Analyst, 2013.

Jongerden, Joost, en Ahmet Hamdi Akkaya, 'Born from the left: the making of the PKK', uit: Nationalims and

politics in Turkey: political Islam, Kemalism and the Kurdish issue, Routledge, 2011.

Jongerden, Joost, ’The Kurdistan Workers Party and the new left in Turkey, Analysis of the revolutionary movement in Turkey through the PKK‘s memorial text on Haki Karer‘, European Journal of Turkish Studies, 2012.

Kieser, Hans-Lukas, ’Case study: Dersim Massacre 1937-1938‘, Online Encyclopedia of Mass Violence, 2011.

Kılıç, Abdullah, en Ayca Örer, ’Devletin zirvesi Dersim‘de‘, uit: Radikal, 20 november 2011.

Marcus, Aliza, Blood and Belief, New York University Press, 2007.

Massicard, Elise, ’The Repression of the Kocgiri Rebellion, 1920-1921‘, uit: Online Encyclopedia of Mass Violence, 2009.

Matur, Bejan, Dagın ardına bakmak, Timas Yayınları, Istanbul, 2012.

McDowall, David, A modern history of the Kurds, I.B. Taurus & Co Ltd, New York, 2004.

Meiselas, Susan, Kurdistan, in the shadow of history, Random House, New York, 1997.

Öcalan, Abdullah, Prison writings, The PKK and the Kurdish question in the 21st century, Transmedia Publishing Ltd, Londen 2011.

Özar, Semsa (e.a.), From past to present, a paramilitary

organization in Turkey: Village guard system, DISA Publications, 2013.

Senol, Nihat Hikmet, Ape Musa‘nin Kücük generalleri, Aram Yayinlari, Istanbul, 2008.

Stekelenburg, Jacqueline van, e.a., ’Politicized Identity‘, uit: The Wiley-Blackwell Encyclopedia of Social and Political Movements, 2013.

Üngör, Ugur Ümit, The making of Modern Turkey, Nation and State in Eastern Anatolia 1913-1950, Oxford University Press, 2011.

بالإضافة إلى كم هائل من مقالات أرشيف الجرائد الهولندية Handelsblad، NRC، Volkskrant:. والجرائد التركية: Özgür Gündem, Agos, Radikal, Milliyet, Hürriyet, Zaman, Vatan, Yeni Safak, Sabah, Today‘s Zaman, Hürriyet Daily News، وغيرها.

المحتويات

مرة أخرى.. ٧
إهداء المترجم ١١
الفصل الأول: ٢٨ كانون الأول ٢٠١١
٢١:٣٩ – ٢٢:٢٤.. ١٣
الفصل الثاني: القرية ٢١
في الطريق إلى القرية: ماذا عن هؤلاء المهربين؟.......... ٣٢
التهريب بعلم الجيش.. ٣٩
كيف تحوّل القرويون إلى العمل حراس قرى ٤٧
زيفيّه: القرية المدمّرة ٥٣
خريطة كُردستان.. ٥٦
معاهدة سيفر والثورة الكمالية ٦٠
ثورة الشيخ سعيد.. ٦٦
في وداع القرية ٧٠
أقارب الضحايا الكُرد يرفضون التعويض ٧١

الفصل الثالث: الناس ٧٩
العودة إلى كول يازي ٨٣
إقامتي عند بكيزا، الأم والأرملة ذات الـ (٢٨ عاماً) ٨٧
لجنة التحقيق البرلمانية ٩٣
الثلاثينيات: مجازر ديرسيم ٩٨
استسلام سيد رضا ١٠٣
تعلم اللغة الكُردية ١٠٧
معنى كلمة 'ملح' ١١١
من هو الكُردي؟ ١١٤
الأقليات في معاهدة لوزان ١١٦
'نحن كُردا!' ١٢١
ثوار كُردستان والـ PKK ١٢٤
مرحلة الثمانينيات: واقع عسكري ١٢٨
الحي الجديد في هنِكلو ١٣٤
هولنديّة في بلد غريب ١٣٨
الهوية متعددة الأوجه ١٤٣
مع النساء إلى المراعي ١٤٨
لافتات في المقبرة ١٥٢
دموع بكيزا ١٥٥

استخدام القصف رهاناً في لعبة سياسية ١٥٩
الطفح الجلدي يغزو جسدي ١٦٢
الفصل الرابع: الجبال ١٦٧
مهربون وأدلاء ١٦٩
رفقة ميدانية مع المهربين ١٧٥
التهريب والدولة والـPKK ١٨٠
حقول المارجوانا في ليسا ١٨٥
الـPKK: ابن حركة اليسار التركي ١٩٢
طلاب في الحركة الكُردية ١٩٨
الانضمام إلى الـPKK أم لا؟ ٢٠٣
متهم في قضية KCK ٢٠٧
مهزلة في قاعة المحكمة ٢٠٩
'إنهم يدمرون حياتنا' ٢١٤
موقفي كصحفية ٢١٨
هل تحولت إلى مناصرة جداً للكُرد؟ ٢٢٣
الصحافة الكُردية تملأ الفراغ ٢٢٧
القصف: عملية مقصودة وموجهة ٢٣٢
المسؤولية السياسية: رئيس الوزراء أردوغان ٢٣٧
الانتقال إلى دياربكر ٢٤٢

بِدِل إينجو: إلى الجبال ٢٤٥

الفصل الخامس: الأرض ٢٤٩

تقرير لجنة التحقيق البرلمانية: أسئلة أكثر من أجوبة ٢٥٣

التحقيق: السرية خط أحمر ٢٦١

نوروز ٢٠١٣: بدء عملية السلام ٢٦٦

الهدنة ومحادثات أوسلو (٢٠٠٨ – ٢٠١١) ٢٧٠

'حداثة ديمقراطيّة' ٢٧٦

حوادث القتل التي وقعت في التسعينيات

والتي لاتزال دون حل ٢٨٠

فرق الموت العسكرية ٢٨٢

مركز فني متخصص بالبحث عن المفقودين ٢٨٥

اليوم الـ ٥٠٠ على القصف ٢٩١

الفصل السادس: الأفق ٢٩٧

في رثاء زوج بكيزا ٣٠١

اعتذار عن ديرسيم – وماذا عن أولوديرى؟ ٣٠٦

الدولة تحمي نفسها ٣١٠

خرافة النظام القضائي التركي ٣١٣

تلفزيون كُردي حكومي: تلفزيون فارغ المحتوى ٣١٦

الشعوب تملك حق تقرير المصير ٣٢١

الاتحاد الأوروبي والنضال الكُردي........................ ٣٢٦
تركيبة دولية معادية للكُرد................................ ٣٣٠
كُردستان مستقلة: حلم لمستقبل بعيد ٣٣٦
صراع سياسي وحداد شخصي............................... ٣٤٠
كانون الأول ٢٠١٢: الذكرى الأولى ٣٤٥
المراجع والمصادر....................................... ٣٤٩